ألبير كامو

الرجل الأول

ترجمة: د. كيتي سالم



دار شرقيات
للنشر والتوزيع

هذه ترجمة لكتاب

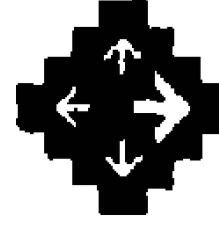
Le Premier Homme
Albert Camus
Edition Gallimard, 1994

الرجل الأول

البير كامو

ترجمة: د. كيتي سالم

الطبعة الأولى ١٩٩٩



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١ باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨ س.ت ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف: محمد فتحي

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع

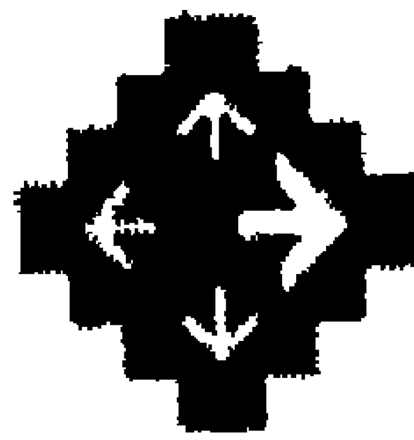


المركز الفرنسي
للثقافة والتعاون العلمي
قسم الترجمة والنشر

ألبير كامو

الرجل الأول

ترجمة: د. كيتي سالم



دار شرقيات للنشر والتوزيع

ملاحظة الناشرة الفرنسية

ننشر اليوم " الرجل الأول". إنه المؤلف الذي كان يعده ألبير كامو حين داهمه الموت. لقد وجدت المخطوطة في محفظته، في ٤ كانون الثاني عام ١٩٦٠، وتتألف من ١٤٤ صفحة خطت بانسياب القلم، أحيانا بلا نقاط ولا فواصل، بكتابة سريعة، يصعب فكها، لم تراجع قط (انظر صور الصفحات طبق الأصل عن المخطوطة، صفحة ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨)

لقد حققنا هذا النص عن المخطوطة وعن نسخة أولية طبعتها على الآلة الكاتبة فرنسين كامو. ولفهم القصة فهما جيدا، تم تنقيطها. أما الكلمات التي التبست قراءتها فلقد وضعت بين قوسين. والكلمات أو بعض أقسام الجملة التي استحال فكها أشير إليها بفراغ بين قوسين. وقد أشير بعلامة نجمية في آخر الصفحة إلى الاختلافات الصغيرة التي كتبت كبديل؛ وأشير بحرف إلى الإضافات في الهامش؛ وبرقم إلى تعليقات الناشرة.

يوجد كملحق الوريقات (التي رقمناها من واحد إلى خمسة)، والتي كان بعضها قد أدرج في المخطوطة (الوريقة رقم ١ قبل الفصل الرابع، والوريقة رقم ٢ قبل الفصل ٦ المكرر)، أما الوريقات الأخرى (٣، ٤ و ٥) فلقد وضعت في آخر المخطوطة.

إن الدفتر الذي يحمل عنوان الرجل الأول (ملاحظات ومخططات) هو دفتر صغير ذو شريط حلزوني وورق مربع، يسمح للقارئ أن يستشف التوسع الذي كان الكاتب يتمنى أن يعطيه لمؤلفه وقد ضم إلى آخر المؤلف.

حين يقرأ المرء الرجل الأول يفهم لماذا وضعنا في الملحق الرسالة التي أرسلها ألبير كامو إلى معلمه، لوي جيرمان، غداة حصوله على جائزة نوبل، وكذلك الرسالة الأخيرة التي أرسلها إليه

لوي جيرمان.

إننا نحرص أن نشكر هنا أوديث دياغن كرباش وكذلك روجيه غرونيه وروبيير غاليمار للمساعدة التي قدموها لنا مع صداقتهم الكريمة والوفية.

كاترين كامو

١- البحث عن الأب

إليك يامن لن تستطيعي أبدا

أن تقرئي هذا الكتاب [أ]

الشفيعة: الأرملة كامو

كانت غيوم داكنة ضخمة تسرع نحو الشرق في الغروب فوق عربة تسير على طريق حصوي. لقد تكاثفت هذه الغيوم فوق المحيط الأطلسي قبل ثلاثة أيام، وانتظرت ريح الغرب، ثم انطلقت بطيئة في البدء لتزداد سرعتها بعد ذلك أكثر فاكثر، محلقة فوق مياه الخريف الفوسفورية، وهي تسير قاصدة الأرض وتمزقت[ب] على القمم المغربية. ثم تشكلت ثانية على شكل قطعان ارتفعت فوق هضاب الجزائر، والآن تحاول هذه الغيوم، وقد اقتربت من الحدود التونسية، أن تصل إلى الضفاف الغربية للبحر الأبيض المتوسط حيث تضيع فيه. بعد جولة قطعت فيها آلاف الكيلومترات فوق هذا النوع من الجزيرة العظيمة، التي يحميها البحر المائج من الشمال ومن الجنوب تلك الأمواج التي جمدها الرمال، مارة فوق هذا البلد الذي لا اسم له بسرعة تكاد تتجاوز سرعة الامبراطوريات والشعوب خلال آلاف السنين، ثم يخف اندفاعها تعبا ويذوب بعضها على شكل قطرات كبيرة نادرة من المطر كانت قد بدأت ترن على غطاء العربة القطني فوق رؤوس المسافرين الأربعة.

[أ] (إضافة اغفال حيولوحي: الأرض والبحر).

[ب] سولفيرينو.

كانت العربة تئز على الطريق التي شقت بشكل واضح إلى حد ما، إلا أنها لم تكن صلبـــة. ومن وقت لآخر كان شرر يلمع تحت إطار العجلة الحديدي أو تحت حافر أحد الحصانين، وكـان صوان يضرب خشب العربة أو على العكس كانت تغوص، بصوت خـــافت، في أرض الحفـــرة الرخوة. ومع ذلك كان الحصانان الصغيران يسيران بانتظام ولا يكبوان إلا نادرا وبشكل خفيـف، وقد تقدم صدراهما ليجرا العربة الثقيلة، المحملة بالمتاع، تاركين، بلا هـــوادة، الطريـــق خلفـــهما بخبيبهما المختلفين. كان أحد الحصانين يطرد بصوت قوي الهواء من منخاريه فيختل خببه. وكـان العربي الذي يقود العربة يفرقع بسوطه ليضرب ظهر الحصان فوق الأعنة المســـطحة والمهترئـــة*، فيسترجع بشجاعة الحيوان خببه الموزون.

كان الرجل الجالس على المقعد الأمامي، قرب السائق، فرنسيا في الثلاثين من العمر، ينظـر، بوجه كتيم إلى الردفين اللذين يهتزان تحته. كان عالي القامة، ممتلئا، طويل الوجه، ذا جبين عـــال ومربع، فكه حازم، عيناه فاتحتا اللون، كان يلبس بالرغم من قرب فصل الصيف سترة من القماش ذات أزرار ثلاثة، وقد أغلقت عند الياقة على غرار زي هذا العصر، وقبعة [أ] خفيفة وضعت علـى شعر قص قصيرا [ب] . وحين بدأ المطر يقصف على غطاء العربة فوقهم، استدار نحو داخل العربـة وصرخ: " هل كل شيء على مايرام؟ " كانت امرأة تلبس ثيابا مهلهلة إلا أنها قد التفت بخمار من الصوف الخشن، قد جلست على المقعد الثاني المثبت بين المقعد الأول وكومة من الحقائب العتيقـة والأمتعة، تبتسم له ابتسامة خفيفة. قالت بحركة اعتزاز بسيطة: "نعم، نعم". كان صبي صغـــير في الرابعة من العمر ينام مستندا عليها. كان وجهها عذبا منتظم الملامح، وشعرها، شعر الإســـبانية، كثير التموج أسود، وهي ذات أنف صغير مستقيم، ونظرة عيون بنية اللون دافئة جميلة. إلا أنـــه كان ثمة شيء في هذا الوجه يسترعي الانتباه. لم يكن هذا نوعا من قناع صنعه التعب فقـط أو أي شيء مماثل يرتسم مؤقتا على تقاطيعها، كلا، كان أقرب إلى مظهر غياب وشرود عذب يبدو دائما على وجه الأبرياء الساذجين، ولكن هذا التعبير كان يبرز بشكل خفي جمال التقاطيع. كان يمتزج أحيانا مع طيبة النظر الواضحة بريق خشية لاعقلي ينطفئ فورا. وبراحة يدها التي أتلفها العمـــل فبرزت عقدها عند المفاصل، كانت تضرب بضربات خفيفة ظهر زوجها قائلة: " الأمـــور علـــى مايرام، الأمور على مايرام، ثم توقفت عن الابتسام لتنظر، تحت غطاء العربة، إلى الطريق حيـــث بدأت بركة ماء تلمع.

---

* تشققـــت العنان من التلف.

[أ] وربما مستديرة ومنتفخة (على شكل البطيخة).

[ب] وقد انتعل حذاء غليظا.

التفت الرجل إلى العربي الهادئ تحت عمامته، ذي الشرائط الصفراء، وقد تضخم جسمه من سرواله ذي القعر الواسع والمشدود فوق بطة الساق " ألا زلنا بعيدين؟" ابتسم العربي تحت شواربه الكبيرة البيضاء "ثمانية كيلو مترات وتصل". استدار الرجل، ونظر إلى امرأته بلا ابتسامة ولكن بانتباه. لم تحول نظرها عن الطريق. قال الرجل: " أعطني العنان. - قال العربي- كما تشاء". أسلمه العنان، قفز الرجل بينما كان العربي العجوز يترلق تحته نحو المكان الذي تركه الرجل. وبضربتي يد على الزمام أخذ الرجل قيادة الأحصنة التي أصلحت خببها وانتصبت فجأة نحو الأمام. قال العربي: " أنت تعرف جيدا الخيول" قال: " أجل". أتى الجواب سريعا مقتضبا ودون أن يبتسم الرجل.

كان النور قد انخفض، وفجأة حل الليل. أخرج العربي من خلف مزلاجه فانوسا مربعا كان على يساره، ثم استدار نحو الداخل، وأشعل عدة أعواد ثقاب ضخمة ليشعل الشمعة التي كانت في الفانوس ثم أعاد الفانوس إلى مكانه. بدأ المطر يترل الآن بهدوء وانتظام. كان المطر يلمع وسط نور المصباح الشاحب، وكان يملأ حوله بصوت خفيف الظلام الدامس. كانت العربة تسير من وقت لآخر بمحاذاة أدغال شائكة؛ كانت هناك أشجار قصيرة، تضاء بنور خافت لعدة ثوان. كانت العربة تسير بقية الوقت وسط مكان فارغ زادته الظلمات فساحة. كانت روائح العشب المحترق أو رائحة سماد قوية منبعثة فجأة، توحي بان العربة كانت تسير أحيانا بمحاذاة أرض مزروعة. تكلمت المرأة وراء السائق وقد عدل سير جياده قليلا وانحنى إلى الوراء. "كررت المرأة قولها: لايوجد أحد. - هل أنت خائفة؟ - ماذا تقول؟ " أعاد الرجل جملته وهو يصرخ هذه المرة. " كلا، كلا، ليس وأنا معك". ولكنها بدت قلقة. "قال الرجل: أتتألمين؟ - قليلا ". حث جياده، كان لايسمع إلا ضجيج العجلات وهي تسحق الأخاديد وصوت النعال الثمانية المحددة تضرب الطريق فتملأ الليل ثانية.

كانت تلك الليلة من ليالي خريف ١٩١٣. كان المسافرون قد غادروا، قبل ساعتين، محطة بلدة بون بعد أن وصلوا من مدينة الجزائر وقد أمضوا ليلة ويوما من السفر على مقاعد الدرجة الثالثة القاسية. وجدوا في المحطة العربة والعربي الذي كان ينتظرهم ليصحبهم إلى الضيعة الواقعة بالقرب من قرية صغيرة، على بعد عشرين كيلو مترا داخل الأراضي، كان على الرجل أن يستلم إدارتها. استغرقت تعبئة الحقائب وبعض المتاع وقتا وكذلك رداءة الطريق قد أخرتهم. قال له العربي وكأنه أدرك قلق رفيقه: " لاتخف. هنا لايوجد قاطعو طرق. - قال الرجل: يوجد منهم في كل مكان. ولكن عندي مايلزم". ثم ضرب على جيبه الضيق. قال العربي: " أنت على حق. هناك دائما

مجانين". حينئذ نادت المرأة زوجها قائلة" هنري، إني أتألم". صرخ الرجل وحث جياده أكثر[أ] . قال: وصلنا. وبعد فترة قصيرة، نظر ثانية إلى زوجته. "ألا زلت تتألمين؟" ابتسمت له بشرود غريب وبدت كأنها لاتتألم " أجل، كثيرا ". كان ينظر إليها بالجدية ذاتها. فاعتذرت من جديد ". لاشيء. ربما كان هذا بسبب القطار. "قال العربي، انظر القرية"، وحقا كانت ترى، على يسار الطريق، وبعيدا قليلا، أنوار سولفيرينو وقد غشيها المطر. قال العربي" ولكن خذ طريق اليمين". تردد الرجل ثم التفت إلى زوجته "سألها قائلا: " أنذهب إلى البيت، أم إلى القرية؟ - آه ! إلى البيت، هذا أفضل". بعد مسافة قليلة، انعطفت العربة نحو اليمين في اتجاه البيت المجهول الذي كان ينتظرهم".قال العربي: لم يبق إلا كيلو متر واحد". قال الرجل موجها كلامه إلى زوجته:" لقد وصلنا". كانت قد انطوت على ركبتيها، ووجهها بين ذراعيها. قال الرجل: "لوسي". لم تكن تتحرك. فلمسها الرجل من يدها. كانت تبكي بلا صوت. صرخ، وهو يقطع الكلمات: "ستستلقين. وسأذهب لأحضر الطبيب. - أجل، أجل. اذهب لإحضار الطبيب. أعتقد أن الأوان قد حان". كان العربي ينظر إليهما متعجبا. " قال الرجل: ستلد طفلا صغيرا، هل ثمة طبيب في القرية؟ - نعم. سأذهب لإحضاره إذا أردت. - كلا، إبق أنت في البيت. وانتبه. أنا سأذهب بسرعة أكبر. هل عنده عربة أو حصان؟- عنده العربة". ثم قال العربي للمرأة: وستلدين صبيا. آمل أن يكون جميلا". ابتسمت له المرأة دون أن يبدو عليها أنها فهمت. " قال الرجل: إنها لاتسمع، في البيت اصرخ عاليا وأومئ".

انطلقت العربة فجأة بلا صوت تقريبا. كانت الطريق التي ضاقت قد غطيت بالأحجار الفتاتية. كانت العربة تحاذي عنابر صغيرة مغطاة بالقرميد ترى من ورائها الصفوف الأمامية لكروم العنب. استقبلتهم رائحة العنب المعصور القوية. ثم قطعوا أبنية كبيرة ذات أسطحة مرتفعة وسحقت العجلات نوعا من الباحة بلا شجر، صنعت أرضها من خبث الحديد. ودون أن يتكلم العربي أخذ العنان ليجرها. توقفت الجياد وحمحم أحدها[أ] . أشار العربي بيده إلى بيت صغير مطلي بالكلس الأبيض. كان ثمة كرمة متسلقة تمتد حول باب صغير منخفض ازرقت حافته بفعل الزاج. قفز الرجل إلى الأرض وركض تحت المطر نحو البيت وفتحه. أدى الباب إلى غرفة معتمة تنبعث منها رائحة موقد فارغ. مشى العربي الذي كان يسير خلفه بخطوات ثابتة في الظلام، نحو المدفأة وقد حك جمرة، استطاع أن يشعل مصباح الغاز الذي كان يتدلى وسط الغرفة فوق طاولة مستديرة. ألقى الرجل نظرة سريعة ليتعرف على مطبخ مكلس مع مجلى صحون بلط ببلاط أحمر،

[أ] الصبي الصغير.

[أ] هل كان الوقت ليلا ؟

وصوان قديم وتقويم مبلل قد علق على الحائط. كان سلم قد غطي بالبلاط الأحمر ذاته يـؤدي إلى الطابق الأعلى. قال: " اشعل النار" ثم رجع إلى القرية. (هل أخذ معه الصبي الصغير؟). كانت المرأة تنتظر دون أن تقول شيئا. حملها بين ذراعيه ليضعها على الأرض وقد ضمها لحظة إلى صدره، قلب رأسها. "هل تستطيعين أن تمشي؟- قالت: أجل وداعبت ذراعه بيدها ذات العقد. جرها داخـل البيت. قال: " انتظري". كان العربي قد أضرم النار وراح يغذيها بأغصان الكرمة بحركات محـددة ماهرة. وكانت المرأة واقفة قرب الطاولة، يداها على بطنها وقد ارتفع وجهها الجميل نحـو نـور المصباح وكانت تجتاحها الآن موجات ألم قصيرة. يبدو أنها لم تلحظ الرطوبة ولا رائحة البيـت المهجور والفقير. كان الرجل منهمكا في العمل في غرف الطابق الأعلى. ثم ظهر في أعلى السلم. " ألا يوجد مدفأة في الغرفة؟ - قال العربي: كلا ، كما لايوجد مدفأة في الغرفة الأخـرى- قـال الرجل: "تعال". لحق به العربي ثم شوهد من ظهره وقد برز فجأة، حاملا فراشا أمسكه الرجل من الطرف الثاني. وضعاه قرب المدفأة. ثم جر الرجل الطاولة إلى زاوية، في حين كان العربي يصعـد ثانية إلى الطابق الأعلى ويترل فورا ومعه وسادة وأغطية، قال الرجل لزوجته: " استلقي هنـا" ثم قادها إلى الفراش. كانت مترددة. كانت رائحة الشعر الرطبة تنبعث من الفراش. قالت وهي تنظر حوله بخشية كما لو كانت تكتشف هذه الأماكن . . ." لا أستطيع أن أخلع ملابسـي" قـال الرجل:" انزعي ماتلبسين تحت ثيابك" ثم كـرر: " اخلعي ثيابك السفلي". ثم قـال للعـربي: " شكرا. فك حصانا عن العربة. سأركبه حتى القرية". خرج العربي. كانت المرأة منهمكة في خلـع ملابسها، وقد أدارت ظهرها لزوجها، وقد استدار هو الآخر. ثم استلقت على الفراش، ومـا أن تمددت، وقد جرت الأغطية فوقها، حتى صرخت صرخة واحدة، طويلا، ملء فمها، كمـا لـو كانت قد رغبت أن تخلص دفعة واحدة من كل الصرخات التي خزنها الألم فيها. تركها الرجـل الواقف قرب الفراش، تصرخ، ثم حين سكتت، نزع قبعته وجثا بركبته على الأرض وقبل الجبـين الجميل فوق العيون المغمضة. ثم لبس قبعته وخرج فورا تحت المطر. كان الحصان الذي فك، قد بدأ يدور حول نفسه، وقد انتصب حافراه الأماميان على خبث الأرض. "قال العربي: سأحضر سـرجا - كلا، اترك له العنان. سأركبه هكذا. ادخل الحقائب والمتاع إلى المطبخ. أعندك امرأة؟ - إنهـا ميتة. كانت مسنة. - أعندك ابنة؟- كلا، والحمد لله، ولكن عندي زوجة ابني. - قل لها أن تـأتي. - سأفعل ذلك. إذهب بسلام". نظر الرجل إلى العربي العجوز الذي وقف بلا حراك تحت المطـر الخفيف وقد ابتسم له تحت شواربه المبللة. أما هو فلم يبتسم قط، ولكنه كان ينظر إليـه بعينـين مشرقتين ويقظتين. ثم مد له يده فأخذها الآخر، على الطريقة العربية، باطراف أصابعه وقربها بعـد ذلك إلى فمه. استدار الرجل وقد صر الخبث تحت قدميه، سار نحو الحصان، وقفز فوقه بلا سرج،

وابتعد بخبب وئيد.

أخذ الرجل، خارج البيت، اتجاه مفرق الطرق حيث كانوا قد رأوا للمرة الأولى أنوار القرية. كان بريقها قد ازداد الآن لمعانا، توقف المطر عن الهطلان، وكانت الطريق المؤدية إليها من اليمين قد شقت مباشرة عبر كروم عنب راحت أسلاكها الحديدية تلمع في بعض الأماكن. وفي منتصف الطريق تقريبا، أبطأ الحصان من تلقاء ذاته، وراح يمشي الهويني. اقتربا من شيء أشبه بكوخ مستطيل شكل قسم منه غرفة كانت مبنية بالحجارة، في حين بنيت الغرفة الكبرى بألواح خشبية، مع إفريز كبير مردود على نوع من رفراف بارز. كان ثمة باب قد ركب على القسم المبني وكتب عليه: " مطعم للمزارعين السيدة جاك". كان خيط من النور يتسرب تحت الباب. أوقف الرجل حصانه قرب الباب، ودون أن يترجل، قرعه. انطلق فورا صوت رنان حازم يسأل من الداخل: "ماالأمر؟- أنا وكيل ضيعة سان أبو تر الجديد. زوجتي تلد. أحتاج لمساعدة ؟ ". لم يجب أحد. وبعد لحظة سحبت المزاليج، ورفعت المراتيج، ثم جرت وفتح الباب نصف فتحة. كان يرى رأس أوروبية أسود مجعدا وخدين ممتلئين مع أنف أفطس قليلا فوق شفتين غليظتين "أدعى هنري كورمري. هل تستطيعين أن تذهبي لمساعدة زوجتي؟ سأذهب لأحضر الطبيب. كانت المرأة تنظر إليه بتفحص وقد اعتادت عيناها أن تقدر الرجال والمصيبة. كان يبادلها النظر بثبات، دون أن يضيف أية كلمة توضيح. " قالت: سأذهب إليها، هيا أسرع". فشكرها وضرب حصانه بكعبيه. وبعد فترة قصيرة، كان يحاذي القرية مارا بنوع من أسوار مصنوعة من لبن ترابي.

كان ثمة شارع وحيد، على مايبدو، يمتد أمامه، وعلى طرفيه انبسطت بيوت أرضية، كلها متماثلة، تبعها إلى أن وصل إلى ساحة صغيرة مغطاة بالأحجار الفتاتية حيث ارتفع، بشكل غير متوقع، كشك موسيقى معدني الصنع. كانت الساحة، شأنها شأن الشارع، مقفرة. كان كورمري يسير نحو أحد المنازل حين انحرف الحصان جانبا. ظهر عربي من الظلام، لابس برنسا قاتما ممزقا واتجه نحوه. سأله كورمري فورا " أين بيت الطبيب". تفحص العربي الفارس. قال له بعد ذلك "تعال". سلكا الشارع في اتجاه معاكس. كانت تقرأ على واحد من الأبنية، ذي طابق أرضي مرتفع، يوصل إليه بسلم طلي بالكلس: " حرية، مساواة، أخوة ". وكانت حديقة صغيرة محاطة بجدران خشنة تتاخمها، وفي داخل الحديقة كان بيت أشار إليه العربي قائلا: " هذا هو" قفز كورمري عن حصانه، وبخطوة لم تكن تشير إلى تعب ما، اجتاز الحديقة التي لم ير فيها، إلا شجرة تمر قزمة، في وسطها تماما، ذات حبات تمر جافة وجذع فاسد. دق الباب. لم يجب أحد[أ] . استدار

[أ] حاربت المغاربة (بنظرة غامضة) المغاربة ليسوا طيبين.

الرجل. كان العربي ينتظر، صامتا، دق الرجل ثانية. سمعت خطوة من الطرف الآخر وتوقفت وراء الباب. إلا أنه لم يفتح. دق كورمري مرة أخرى وقال: " إني أبحث عن الطبيب". حينئذ سحبت مزاليج وفتح الباب. ظهر رجل، ذو وجه فتي مكلثم، كاد شعره أن يكون كله أبيض. كان طويل القامة، بدينا، التفت ساقاه بقماطين وكان يلبس سترة صيد. قال وهو يبتسم: "عجبا، من اين تخرج؟ لم أرك قط". شرح له الرجل وضعه. "آه، أجل، لقد أعلمني العمدة ذلك. ولكن قل لي، أليس من الغرابة أن يأتي أحد إلى منطقة نائية كهذه ليلد فيها". أجاب الآخر: إنه كان ينتظر الولادة فيما بعد، ولا بد أنه قد أخطأ التقدير. "حسن، هذا يحدث لكل الناس. هيا، سأسرج حصاني ماتادور وأتبعك".

تحت المطر الذي عاد إلى السقوط ثانية، وفي منتصف طريق العودة، لحق بهم الطبيب وقد امتطى حصانا أشهب مدنر، كورمري وقد ابتل الآن ولكنه انتصب مستقيم الظهر فوق حصان المزرعة الغليظ. "صرخ الطبيب: ياله من وصول غريب. ولكنك سترى، ففي البلد أشياء جميلة، ماعدا البعوض وقاطعي طرق هذه المنطقة". ثبت على علو رفيق دربه قائلا: " لاحظ بالنسبة للبعوض، أنت في أمان حتى الربيع. أما بالنسبة لقاطعي الطريق..." كان يضحك في حين تابع الآخر تقدمه دون أن ينبس ببنت شفة. نظر إليه الطبيب نظرة فضول وقال: "لاتخش شيئا، ستسير الأمور على خير حال. أدار كورمري عينين مشرقتين نحو الطبيب ونظر إليه بهدوء وقال بنبرة لاتخلو من الود: " إني لاأخاف. لقد اعتدت على المصائب. – هل هذا أول ولد لك؟ – كلا، لقد تركت صبيا في الرابعة من العمر في مدينة الجزائر عند حماتي" [1] . وصلا عند مفرق الطرق فسلكا طريق المزرعة. راح الصخر الفتاتي يتطاير تحت حوافر الحصانين. حين توقف الحصانان، وخيم الصمت ثانية، سمعت صرخة عظيمة تنبعث من البيت. فترجل الرجلان.

كان شبح ينتظرهما، وقد استظل تحت الكرمة، وهو يقطر ماء. وحين اقتربا، تعرفا على العربي العجوز وقد لبس كيسا في رأسه. "قال الطبيب، طاب يومك، ياقدور، كيف الحال؟ قال العجوز: – لاأدري، لاسيما أنني لاأدخل على النساء. قال الطبيب: – نعم المبدأ، وخاصة حين تصرخ النساء". لم يعد أي صراخ يأتي من الداخل. فتح الطبيب الباب ودخل يتبعه كورمري. كان في المدفأة أمامهم نار عالية تشتعل من أغصان الكرمة فتضيء الغرفة أكثر مما يضيئها مصباح الغاز بإطاره النحاسي المزخرف الذي كان يتدلى من وسط السقف. وعلى اليمين، امتلأ المجلى فجأة بالأباريق المعدنية والمناشف. أما على اليسار، أمام صوان صغير مهتز من الخشب الأبيض، فلقد دفعت طاولة الوسط بعيدا. وقد غطاها حاليا حقيبة سفر عتيقة، وعلبة كرتون للقبعات وطرود

[1] هذا يناقض ماذكر في الصفحة (٣) : "صبي صغير نائم وهو يستند عليها".

مختلفة. في كل زاوية من زوايا الغرفة كان ثمة أمتعة قديمة، بما فيها صندوق خيزران كبير، قد ملأت كل الزوايا و لم يترك إلا فسحة خالية في الوسط، بالقرب من النار. ففي هذا المكان، وعلى الفراش الذي مد أمام المدفأة، استلقت المرأة وقد انحنى وجهها قليلا على وسادة بلا غطـاء، وفك شعرها الآن. لم تكن الأغطية تغطـي الآن إلا نصف الفراش. كانت صاحبة المطعم قـد جثـت علـى ركبتيها، على يسار الفراش، وقد أخذت الجزء المكشوف منه. كانت تعصر، فوق طست، منشفة تقطر منها ماء محمر. أما على اليمين، فلقد تربعت امرأة عربية، حاسرة الرأس، وأمسكت في يدها، كمن يقدم قربانا، طستا ثانيا من الميناء المثلم قليلا، كان بخار الماء الحار يتصاعد منه. كانت المرأتان تقفان من طرفي الشرشف المطوي الموجود تحت المريضة. كانت ظلال المدفأة ونيرانها تصعد وتنزل على الجدران الكلسية، وعلى الطرود التي كانت تملأ الغرفة، وكانت ترى عن قرب، وقد احمـرت وجوه المرأتين الساهرتين والمرأة المريضة وقد غاص رأسها تحت الأغطية.

حين دخل الرجلان، رمقتهما المرأة العربية بنظرة خاطفة مع ضحكة خفيفة ثم استدارت نحو النار، وهي مازالت تحمل بذراعيها الهزيلتين السمراوين الطست. نظرت صاحبة المطعـم إليـها وصرخت بفرح: " لم يعد هناك حاجة إليك، أيها الطبيب. لقد تم الأمر بسهولة". وقفت المـرأة ورأى الرجلان، بالقرب من المريضة، شيئا داميا لاشكل له يحيه نوع من الحركة الساكنة وقد خرج الآن من هذا الشيء صوت متواصل أشبه بصرير نفقي يكـاد لا يسـمع [1] . قـال الطبيـب: "الجميع يقولون ذلك. آمل ألا تكونوا قد لمستم الحبل السري. - قالت الأخرى ضاحكة: " كلا، كان علينا أن نترك لك شيئا ". ثم نهضت وتركت مكانها للطبيب، الذي حجب ثانية الوليد عـن عيني كورمري الواقف في مدخل الباب وقد كشف رأسه. جلس الطبيب القرفصاء، وفتح محفظـة أدواته الطبية، ثم أخذ الطست من يدي المرأة العربية التي انسحبت فورا من الفسـحة الضوئيـة والتجأت إلى ركن المدفأة المعتم. غسل الطبيب يديه، وقد أدار ظهره إلى الباب، ثم صب على يديه كحولا انبعثت منها رائحة ثـفل خفيفة و لم تلبث هذه الرائحة أن عبقت في الغرفـة. في هـذا الوقت، رفعت المريضة رأسها ورأت زوجها. ارتسمت بسمة رائعة أضفت على وجهها المتعـب جمالا. اقترب كورمري من الفراش. قالت له زوجته وهي تلهث: " لقد أتى" ثم بسطت يدها نحـو الطفل. "قال الطبيب: نعم، ولكن ابقي هادئة". نظرت إليه المرأة نظرة متسـائلة. أشـار إليـها كورمري، الواقف عند أسفل الفراش، إشارة مطمئنة. "ارقدي". أرخت جسمها إلى الـوراء. في هذا الوقت ضاعف المطر انهماره على سطح القرميد العتيق. انهمك الطبيب في العمل تحت الغطاء. ثم انتصب واقفا وبدأ كأنه يهز شيئا ما أمامه. سمعت صرخة خافتة. " قال الطبيب: إنه صبي. وهو قطعة جميلة. - قالت صاحبة المطعم: هو ذا واحد يبدأ بداية حسنة بانتقاله إلى مسكن جديـد".

[1] كأصوات بعض الخلايا تحت المجهر.

ضحكت المرأة العربية القابعة في ركن الغرفة وصفقت صفقتين. نظر إليها كورمري فأشاحت بوجهها، خجلة. وقال الطبيب: حسنا، دعنا لحظة الآن". نظر كورمري إلى زوجته. ولكن رأسها كان لا يزال مشدودا إلى الخلف. كانت يداها وحدهما وقد انبسطتا على الغطاء الخشن، لا تزالان تذكران بالابتسامة التي ملأت منذ لحظة الغرفة الفقيرة فأنارتها. لبس قبعته واتجه نحو الباب. صرخت صاحبة المطعم "ماذا ستسمونه؟- لاأدري، لم نفكر بذلك". كان ينظر إلى الطفل. "سنسميه جاك لأنك كنت هنا". قهقه الطبيب وخرج كورمري. كان العربي ينتظر قابعا تحت الكرمة وقد تغطى بكيس. نظر إلى كورمري الذي لم ينبس ببنت شفة. قال العربي: "خذ" ومد طرفا من كيسه. التجأ كورمري تحته. كان يشم رائحة كتف العربي العجوز ورائحة الدخان التي تعبق من ملابسه وكذلك المطر الذي كان ينهمر على الكيس فوق رأسيهما. قال دون أن ينظر إلى رفيقه: " إنه صبي". أجاب العربي: "حمدا لله، انت قائد". كانت المياه الآتية من آلاف الكيلومترات تتساقط بلا هوادة أمامهما على الأرض الفتاتية، حافرة بركا كثيرة، في كروم العنب الأبعد. وكانت الأسلاك الحديدية المعلقة تلمع تحت القطرات بلا توقف. لن تصل هذه المياه إلى البحر شرقا، وستغمر الآن البلد كله، حتى الأراضي المستنقعية بالقرب من النهر، والجبال المحيطة، والأراضي الشاسعة شبه الجرداء والتي تصل رائحتها القوية إلى الرجلين وقد التفا تحت الكيس نفسه، في حين كان ثمة صرخة خافتة تسمع ثانية، من وقت لآخر، خلفهما.

في ساعة متأخرة من الليل، كان كورمري مستلقيا، بسروال طويل وقميص داخلي، على فراش ثان بالقرب من زوجته، ينظر إلى اللهب المتراقص على السقف. كانت الغرفة الآن قد رتبت إلى حد ما. وفي الطرف الآخر من فراش زوجته، في سلة غسيل، كان الطفل يرقد بلا صوت، اللهم إلا بعض قرقرات ضعيفة من وقت لآخر. كانت زوجته تنام أيضا، وقد استدار وجهها نحوه، وفمها مفتوح قليلا. كان المطر قد توقف. يجب البدء بالعمل في الغد. كان بالقرب منه، يد زوجته المنهمكة بالعمل، المخشوشنة، تحدثه هي الأخرى عن هذا العمل. قرب يده، ثم وضعها برفق في يد زوجته المريضة وقد مال برأسه إلى الوراء، أغمض عينيه.

سان بريوك[1]

بعد أربعين سنة [أ] ، كان رجل واقف في ممر قطار سان بريون، ينظر باستنكار، تحت شمس شاحبة بعد ظهر يوم من أيام الربيع، تتابع هذا البلد الضيق المسطح، المغطى بالقرى والبيوت البشعة، والذي يمتد من باريس حتى بحر المانش. كانت المروج وحقول ارض مزروعة منذ قرون حتى آخر متر مربع تتوالى أمامه. كان الرجل حاسر الرأس، مقصوص الشعر قصيره، وجهه طويل، ذو تقاطيع دقيقة، ممشوق القامة، ذا نظرة زرقاء صريحة وكان لا يزال يبدو نحيلا في معطفه الواقي من المطر بالرغم من بلوغه الأربعين عاما. كانت يداه قد أمسكتا بقوة المسند الحديدي، وقد ارتكز جسمه على ورك واحدة، وفك قميصه فكان يوحي بالرشاقة والنشاط. أخذ القطار في هذا الوقت بالإبطاء إلى أن توقف في محطة صغيرة رثة. وبعد قليل مرت امرأة شابة أنيقة تحت المسند حيث كان الرجل واقفا، توقفت لتنقل حقيبتها من يد إلى أخرى فلمحت حينئذ المسافر. كان الأخير ينظر إليها وهو يبتسم، فلم تستطع إلا ان تبتسم هي الأخرى. أخفض الرجل زجاج النافذة، ولكن القطار كان قد انطلق. قال في نفسه: : يا للأسف". كانت الشابة لا تزال تبتسم له.

ذهب المسافر ليجلس في مقصورة الدرجة الثالثة في مكانه قرب النافذة. كان أمامه، رجل خفيف الشعر، وقد ألصقه على رأسه، لم يكن مسنا على خلاف ما يوهم وجهه المنتفخ المبقع بلطع حمراء. كان قد انطوى على نفسه، وأغمض عينيه وراح يتنفس بقوة، بدا متضايقا من هضم عسير، فكان يلقي من وقت إلى آخر نظرات سريعة* نحو من أمامه. وعلى المقعد ذاته، بالقرب من الممر، كانت قروية في أبهى ثيابها، وقد لبست قبعة غريبة زينت بعنقود عنب من الشمع، تمخط طفلا احمر الشعر ذا وجه باهت وبلا تعبير. امحت ابتسامة المسافر. أخرج مجلة من جيبه وقرأ بشرود مقالا جعله يتثاءب.

---

[1] مدينة صغيرة في شمال فرنسا على بحر المانش (المترجمة).

[أ] يجب الإشارة، منذ البدء، بشكل أوضح إلى الجانب الوحشي لدى جاك.

* هامدة.

توقف القطار، بعد قليل، وظهرت لافتة صغيرة تحمل اسم "سان بريوك" موضوعة على البوابة. نهض المسافر فجأة، ورفع دون اي جهد، من رف الأمتعة فوقه، حقيبة منفاخية، وبعد أن حيا رفاق سفره الذين أجابوا على تحيته باستغراب، خرج بخطوة سريعة وهبط درجات القاطرة الثلاث. نظر وهو على رصيف المحطة إلى يده اليسرى التي كانت لا تزال متسخة من الشحار المجمع على المسند النحاسي الذي أفلته، فأخرج منديلا ومسح يديه بعناية. ثم أخذ باب الخروج، وانضم إليه شيئا فشيئا زمرة من المسافرين ذوي الملابس القاتمة والوجوه الكابية اللون. انتظر بصبر تحت إفريز ذي أعمدة قصيرة حتى تطلب تذكرته، كذلك انتظر أن يعيدها إليه الموظف الصامت، ثم اجتاز غرفة انتظار ذات جدران عالية قذرة، لم يكن يزينها سوى لافتات عتيقة حيث اكتسى الشاطئ اللازوردي نفسه ألوان السخام، ونزل بخطوة نشطة وسط ضوء الغروب، الشارع المنحدر من المحطة إلى المدينة.

طلب في الفندق الغرفة التي كان قد حجزها، ورفض مساعدة وصيفة ذات وجه كالبطاطك والتي أرادت ان تحمل حقيبته، إلا أنه أعطاها، مع ذلك، بعد أن قادته إلى غرفته، حلوانا أدهشها ورسم على وجهها تعبيرا وديا. ثم غسل يديه من جديد ونزل ثانية بالخطوة النشطة ذاتها دون أن يغلق بابه بالمفتاح. التقى في بهو الفندق بالوصيفة، فسألها أين توجد المقبرة، سمع تفسيرات مستفيضة، أصغى إليها بلطف ثم اتجه إلى الجهة التي دلته عليها. راح يقطع الآن الشوارع الضيقة والحزينة، المحاطة ببيوت بسيطة ذي قرميد أحمر بشع. كان هناك أحيانا بيوت قديمة بعوارض ظاهرة تبرز صحائفها الإردوازية المورروبة. كان المارة القلائل لا يتوقفون حتى ولا أمام واجهات المخازن التي تعرض أدوات من الزجاج، وتحفا من البلاستيك والنيلون، وأشياء خزفية كريهة يجدها المرء في كل بلاد الغرب الحديث. كانت دكاكين الأطعمة وحدها تظهر البحبوحة واليسر. كانت المقبرة مطوقة بجدران عالية كئيبة. كان بجوار الباب صفوف من الأزهار الهزيلة، ودكاكين لبائعي الرخام، توقف المسافر أمام إحداها لينظر إلى طفل بدا متقد الذهن كان يكتب وظائفه في ركن على شاهدة قبر لم يحفر شيء عليها بعد. ثم دخل المسافر واتجه نحو بيت الحارس. لم يكن الحارس هناك. انتظر المسافر في المكتب الصغير ذي الأثاث البسيط، ثم انتبه إلى مخطط بدأ فكه حين دخل الحارس. كان رجلا طويل القامة، بارز العظام، ذا أنف ضخم، وكانت تنبعث منه رائحة التعرق تحت سترته الخشنة التي تغطي الصدر والكتفين. سأل المسافر عن مربع موتى حرب ١٩١٤- " قال الحارس: حسنا، إنه يدعى مربع الذكرى الفرنسية. عن أي اسم تبحث؟ أجاب المسافر: " هنري كورمري".

فتح الحارس سجلا كبيرا مغلفا بورق صر وتابع باصبعه الشاحبة قائمة أسماء. توقف اصبعه. قال: "كورمري هنري، أصيب بجراح مميتة في معركة المارن، مات في سان بريوك في ١١ تشرين

الأول عام ١٩١٤". قال المسافر: "هذا ما أبحث عنه" أغلق الحارس السجل وقال: " تعال " وتقدمه نحو صفوف القبور الأمامية، بعضها بسيط، وبعضها الآخر متكلف وقبيح، كانت كلها مغطاة بعتائق من الرخام والخزف تشوه أي مكان في العالم. سأل الحارس بلهجة شاردة: " هل هو قريب لك؟" - إنه والدي. قال الآخر: هذا قاس- كلا، لم أكن قد بلغت عاما حين مات. أنت تفهم ذلك ولا شك. - قال الحارس: أجل، ولكن هذا لا يمنع. لقد مات كثيرون جدا ". لم ينبس جاك كورمري ببنت شفة. بالطبع لقد مات رجال كثيرون جدا؛ ولكن، بالنسبة لأبيه، لم يكن يستطيع أن يختلق أسى لم يشعر به. لقد عاهد نفسه وهو يعيش منذ سنوات كثيرة في فرنسا، أن يقوم بما كانت أمه، التي بقيت في الجزائر، تطلبه منه(١) منذ زمن طويل، ألا وهو أن يذهب لزيارة قبر والده، هذا القبر الذي لم تره مطلقا، كان يرى أن لا معنى لهذه الزيارة، أولا بالنسبة إليه وهو الذي لم يعرف قط أباه، كما كان يجهل إلى حد كبير ما كان عليه والده، وكان يكره التصرفات والمساعي التقليدية، ثم بالنسبة إلى والدته التي لم تكن تتكلم قط عن الميت والتي لم يكن باستطاعتها أن تتخيل ما سيرى ابنها. ولكن، بما أن معلمه العجوز وقد تقاعد أتى ليعيش في سان بريوك فلقد وجد بذلك مناسبة ليراه ثانية، لذا قرر أن يزور هذا الميت المجهول حتى إنه حرص قبل أن يلاقي صديقه القديم أن يقوم بهذه الزيارة كي يشعر فيما بعد بأنه حر تماما. قال الحلوس " هاهنا ". كانا قد وصلا أمام مربع محاط بأحجار صغيرة رمادية وصلتها سلسلة ضخمة طليت بالسواد. كانت الأحجار كلها، بالرغم من كثرتها، متماثلة، إنها عبارة عن مجرد مستطيلات محفورة. وقد وضعت بصفوف متتابعة، مفصولة بانتظام. كانت كلها مزينة بباقة صغيرة من الأزهار النضرة.. " إنها رابطة الذكرى الفرنسية التي تهتم بالعناية بالأزهار منذ أربعين سنة. انظر، إن قبر والدك هنا". أشار إلى حجر في الصف الأول. توقف جاك كور مري بعيدا قليلا من الحجر، قال له الحارس: " أدعك هنا ". اقترب كورمري من الحجر ونظر إليه شاردا. أجل. كان هذا اسمه. رفع عينيه. ففي السماء التي زاد شحوبها، كان ثمة غيوم صغيرة بيضاء ورمادية تسبح ببطء ، وكان يسقط من السماء بشكل متناوب نور خفيف ثم يخفت. وحوله، في حقل الموتى الفسيح، هيمن الصمت. كانت تسمع فقط ضوضاء خفيفة آتية من المدينة، من فوق الجدران العالية. كان يمر أحيانا خيال أسود بين القبور البعيدة. كان جاك كورمري، وقد رفع نظره إلى السماء وراح يراقب حركة الغيوم البطيئة فيها، حاول أن يشم من خلال عطر الأزهار المبللة، رائحة الملح التي كانت تأتي في هذا الوقت من البحر البعيد والساكن حين أخرجه من أحلامه رنين دلو على رخام قبر. حينئذ قرأ على القبر تاريخ ولادة أبيه وقد اكتشف في هذه المناسبة أنه كان يجهل ذلك. ثم قرأ التاريخين، "١٨٨٥- ١٩١٤" وحسب بشكل آلي: تسع وعشرون سنة". فجأة أذهلته فكرة

(١) هكذا ذكر حرفيا.

فجعلت جسمه يرتجف. كان في الأربعين من العمر. في حين كان الرجل المدفون تحت هذه الشاهدة، والذي كان أباه، كان أصغر منه[أ] .

وإن موجة الحنان والأسى التي غمرت دفعة واحدة قلبه، لم تكن بادرة روح تحمل الابن نحو ذكرى والده الميت، ولكنها شفقة عنيفة تهز رجلاً مكتملاً أمام ولد قتل ظلماً. كان هنا شيء يخرج عن النظام الطبيعي والحق يقال، لم يكن هناك نظام وإنما مجرد جنون وفوضى حيث كان الابن أكبر سناً من الأب. كان تعاقب الزمن نفسه قد تحطم حوله وهو بلا حراك، بين هذه القبور التي لم يعد يراها وتوقفت السنون عن انتظامها وفق هذا النهر العظيم الذي يجري نحو مصبه. لم تكن هذه السنوات إلا صخبا وهيجانا ودوامة راح جاك كورمري يتخبط فيها الآن أسير القلق والشفقة[ب] . كان ينظر إلى شاهدات المربع الأخرى ويتعرف من التواريخ أن هذا التراب قد نثر بأطفال كانوا آباء لرجال شيب ظنوا انفسهم أحياء حتى الآن. لأنه هو نفسه كان يعتقد أنه يحيا، لقد بنى نفسه وحده، كان يعرف قوته ومقدرته، كان يواجه الصعاب، ويمسك بيديه زمام الأمور. ولكن، في الدوامة الغريبة التي كان فيها الآن، هذا التمثال الذي يقيمه الإنسان طوال السنين ويجعله صلبا لينهار وينتظر التفتت النهائي، قد تصدع بسرعة وانهار الآن. لم يكن إلا هذا القلب القلق، المتلهف على العيش، المتمرد على نظام العالم الفاني الذي رافقه خلال أربعين عاما، والذي مازال يصطدم بالقوة نفسها، بالجدار الذي كان يفصله عن سر كل حياة، كان يريد أن يذهب أبعد من ذلك، إلى الما وراء، ويعرف. يريد ان يعرف قبل أن يموت، أن يعرف أخيرا ليكون، ولو لمرة واحدة، لثانية واحدة، خالدا .

كان يرى من جديد حياته الطائشة، الشجاعة، الجبانة، العنيدة والتي كانت دائما تسعى نحو هذا الهدف الذي يجهل عنه كل شيء. والحقيقة أنها قد انقضت دون أن يحاول أن يتخيل ما كان عليه رجل ما إن أعطاه هذه الحياة حتى مات بعد ذلك على أرض مجهولة، في الطرف الآخر من البحار. ألم يكن هو أيضا وهو في التاسعة والعشرين، ضعيف الصحة، مريضا، متوترا، حازما، شبقا، حالما، وقحا وشجاعا. أجل، كان كل هذا وأكثر، كان حيا، رجلا بكل معنى الكلمة، إلا أنه لم يفكر قط بالرجل الراقد هنا كما يفكر بإنسان حي، ولكن بمجهول مر فيما مضى على هذه الأرض حيث ولد، وقد كانت أمه تقول له إنه يشبهه وإنه استشهد في ميدان الشرف. ومع ذلك فإن ماكان قد سعى بنهم لمعرفته من خلال الكتب والناس، بدا له الآن أن هذا السر متصل اتصالا وثيقا بهذا الميت، أبيه الأصغر منه، متصل بما كانه وما أصبحه، وأنه قد بحث بعيدا عما كان قريبا

[أ] انتقال.

[ب] التوسع في حرب ١٩١٤.

منه في الزمان وفي الدم. وفي الحقيقة لم يساعده أحد. كان أفراد أسرته لا يتكلمون إلا نـــادراً، لا أحد يقرأ ولا يكتب، أمه تعيسة وشاردة، من كان بإمكانه أن يعلمه شيئاً عن هذا الأب الشـــاب والبائس؟ لم يعرفه احد ماعدا أمه التي نسيته. كان واثقاً من ذلك. ولقد مات مجهولاً على هـــذه الأرض حيث مر خلسة، كمجهول. كان عليه هو ان يستعلم بلا شك، أن يسأل. ولكن من كان مثله لا يملك شيئاً ويريد العالم بأسره، لا تكفيه طاقته كلها ليبني نفسه وليغزو العالم أو يفهمه. ومع ذلك، لم يفت الأوان، لازال باستطاعته أن يبحث، وأن يعرف من كان هذا الرجل الذي بدا لـــه الآن أقرب من أي إنسان آخر في العالم. إنه يستطيع...

انقضى الآن ما بعد الظهر. ثمة حفيف تنورة بالقرب منه، شبح أسود، أعـــاده إلى مشـــهد القبور والسماء التي كانت تحيط به. كان عليه أن يغادر، لم يعد لديه ما يعمله هنا. ولكنه لم يكن يستطيع أن يفترق عن هذا الاسم، عن هذه التواريخ. لم يكن تحت هـــذه الشـــاهدة إلاّ الرمـــاد والتراب. أما بالنسبة إليه، فلقد كان أبوه حياً من جديد، حياة غريبة صامتة، وبدا له أنه سـيتخلى عنه ثانية، سيتركه هذه الليلة أيضاً، يتابع وحدته التي لا تنتهي حيث رُمي ثم أُهمل. دوى في السماء المقفرة انفجار عنيف مباغت. كانت طائرة لا ترى قد اخترقت جدار الصوت. وقد أدار ظهره إلى القبر، ترك جاك كورمري أباه وانصرف.

٣- سان بريوك ومالان (ج. غ)[أ]

في المساء، وعلى العشاء، كان جاك كورمري ينظر إلى صديقه العجوز يأكل بنـــهم قلـــق، الشريحة الثانية من فخذ الخروف؛ وقد راحت الريح التي كانت قد هبت تصر صريراً خفيفاً حـــول البيت الصغير المنخفض في ضاحية قرية على طريق الشواطئ. لاحظ جاك كورمري، إثر وصوله، في الساقية الجافة، التي تشكل حافة الرصيف، قطعاً صغيرة من الطحالب اليابسة، والـــتي كـــانت توحي وحدها، مع رائحة الملح، بقرب البحر. كان فيكتور مالان الذي أمضى حياته المهنية كلـــها في إدارة الجمارك، قد تقاعد وأتى يعيش في هذه البلدة، التي لم يخترها ولكنه راح يبرر ذلك بالتالي قائلاً: إنه لاشيء يلهيه عن التأمل الانعزالي، لا فرط الجمال، ولا فرط القبح، ولا الوحدة نفســـها. وإن إدارة الأشياء وإدارة الناس قد علمتاه الكثير، وإن كان يبدو أنه لايعرف الكثير عنـــه، إلا أن ثقافته كانت عظيمة، وكان جاك كورمري يعجب به، بلا تحفظ، لأنه، في زمن كان فيه الرجـــال المتفوقون عاديين جداً، كان لمالان فلسفة شخصية، بقدر مـــا يســـتطيع الإنســـان أن يكـــوّن فكراً ما. وفي جميع الأحوال، تحت مظاهر متسامحة خادعة، كان له حرية الرأي التي توافق الأصالة الأكثر ثباتاً.

قال مالان: " حسناً يا بنيّ بما أنك ستذهب لترى أمك، حاول أن تعرف شيئاً عن أبيـــك. وعد بسرعة كبيرة لتروي لي البقية. إن فرص الضحك نادرة.

- أجل، هذا مثير للسخرية، ولكن بما أن هذا الفضول قد انتابني، أستطيع على الأقـــل أن أحاول تجميع بعض المعلومات الإضافية. إن عدم اهتمامي بذلك حتى الآن ليبدو إلى حد ما مرضياً.

- كلا، في هذا المجال، إنها الحكمة. بقيت ثلاثين سنة متزوجاً مارتا التي عرفت، إنها امرأة في منتهى الكمال، وحتى الآن لا أزال أشتاق إليها. لقد خيل إلي دائماً أنها كانت تحب بيتها [1] .

[أ] فصل للكتابة أو للحذف.

[1] هذه المقاطع الثلاثة قد شطبت.

– قال مالان وهو يشيح بنظره: " لاشك أنك على حق"، كان كورمري ينتظر الاعتراض، وقد كان يعرف أن هذا الاعتراض سيتبع حتما الموافقة.

تابع مالان: " ومع ذلك، وإني مخطئ، قد أتجنب السعي لمعرفة أكثر مما علمتني الحياة. ولكني قدوة سيئة في هذا المجال، أليس كذلك؟ وبمجمل القول: إني لا أشرع في أية مبادرة بسبب نقائصي بلا شك. أما أنت (وقد برقت عيناه ببريق سخرية ودهاء)، فإنك رجل عمل".

كان يبدو مالان كصيني برأسه المستدير كالقمر، وانفه الأقطس قليلا، وحاجبيه شبه المعدومين، وشعره على شكل طاقية وشارب ضخم لم يستطع أن يغطي الفم الغليظ والشبق. كان الجسم غضا ممتلئا، ويده السمينة ذات الأصابع المبرومة قليلا تذكر بسيد عظيم من الصين يكره مباريات الجري. وحين كان يغمض عينيه نصف إغماضة وهو يأكل بشهية، كان لا يمكن إلا أن يتخيله بثوب حريري والأعواد بين أصابعه. إلا ان النظرة كانت تغير كل شيء. فالعينان الكستنائيتان الداكنتان، المحمومتان، القلقتان، أو المحدقتان فجأة، كأن الذكاء كان يعمل بسرعة على نقطة محددة، كانتا عيني إنسان غربي ذي إحساس مرهف جدا وثقافة واسعة.

أحضرت الخادمة العجوز الأجبان التي كان مالان يسترق النظر إليها. قال: "عرفت رجلا، بعد أن عاش مع امرأته ثلاثين عاما..." اشتد انتباه كورمري. كان مالان كلما ابتدأ بـ "عرفت رجلا ... أو صديقا ... أو انكليزيا كان يسافر معي..." كان من المؤكد أن الموضوع يدور عنه شخصيا... " لم يكن يحب الحلوى، وكذلك زوجته لم تكن تأكل منها البتة. حسنا، وبعد عشرين سنة من الحياة المشتركة، فاجأ زوجته عند بائع الحلوى، وأدرك وهو يراقبها انها كانت تذهب مرات كثيرة في الأسبوع إلى دكان بائع الحلوى لتتخم بقطع الحلوى المحشوة بكريمة القهوة. أجل، كان يظن انها لم تكن تحب الحلوى وفي الواقع كانت مولعة بهذا النوع من الحلوى.

قال كورمري: – إذن لا يمكن معرفة الآخر.

– إذا أردت. ولكن ربما من العدل كما يبدو لي، على كل حال أعتقد أني أفضل أن أقول، ولكن أعذر عجزي عن عدم جزمي بأي شيء، نعم يكفي أن أقول إن كانت عشرون عاما من الحياة المشتركة لا تكفي لتعرف شخصا ما، فإن تحقيقا ولا شك سطحيا، بعد أربعين سنة من موت إنسان، قد لا يحمل لك إلا معلومات ذي معان محددة. أجل يمكن أن تقول محددة عن هذا الرجل. وإن كان، بمعنى آخر...".

رفع يدا قدرية، تسلحت بسكين، وهوت على قطعة من جبن الماعز.

" اعذرني. الا تريد قطعة من الجبن؟ كلا، دائما معتدل جدا! إنها لمهنة شاقة أن تعجب

الناس ! ".

لمع ثانية بريق سخرية من أجفانه نصف المغمضة. مضى عشرون عاما على معرفة كورمــوي لصديقه العجوز (يجب الإضافة هنا لماذا وكيف) وكان يقبل تهكماته بمرح.

" ليس لأعجب الناس. فالإفراط في الأكل يجعلني ثقيلا. وأفقد اعتباري.

- أجل، لم تعد تتفوق على الآخرين".

كان كورمري ينظر إلى الأثاث الريفي الجميل الذي كان يملأ غرفة الطعام المنخفضـــة، ذات العوارض المطلية بالكلس الأبيض.

قال: " يا صديقي العزيز، لقد اعتقدت دائما أني متكبر. إني كذلك. ولكن ليس دائمـــا ولا مع كل الناس. فمعك، مثلا، أنا عاجز عن التكبر"

أشاح مالان بنظره، كان هذا علامة تأثر لديه.

قال: - أعرف ذلك، ولكن لماذا ؟

قال كورمري بهدوء: " لأني أحبك "،

جر مالان صحن سلطة الفواكه المبردة نحوه و لم يجب بشيء.

تابع كورمري: " لأني، حين كنت صغيرا، وفي منتهى الغباء والوحدة (أتذكر ذلك، في مدينة الجزائر)، التفت نحوي وفتحت لي، دون أن تعرف، أبواب كل ما أحب في هذا العالم.

- آه! إنك موهوب.

- طبعا. ولكن يلزم لأعظم الموهوبين معلم. إنه الشخص الذي تضعه الحياة ذات يــــوم في دربك، يجب أن يحب هذا الإنسان ويحترم إلى الأبد وإن لم يكن مسؤولا عن ذلك. هذا ما أؤمــن به!

قال مالان بلهجة مواربة: أجل، أجل.

- أعرف أنك تشك في ذلك، انظر، لا تعتقد أن مودتي لك عمياء. ففيك عيوب، عيــــوب كبيرة جدا. على الأقل في نظري".

لحس مالان شفاهه الغليظة وبدا فجأة مهتما

" وما هي هذه العيوب ؟ "

– أنت مثلا، فلنقل، مقتصد. إلا أن ذلك ليس عن بخل، ولكن عن هلع، عن خوف من العوز، الخ. على كل حال هذه نقيصة كبرى، وبشكل عام أنا لا أحبها. والأسوأ من ذلك أنك لا تستطيع أن تمتنع من أن تظن بوجود نوايا سيئة لدى الآخرين. إنك، بشكل عفوي، لا تستطيع أن تؤمن بمشاعر نزيهة تماما.

قال مالان وهو ينهي كأس نبيذه: قل بصراحة، علي الا أشرب قهوة. ومع ذلك..."

إلا أن كورمري لم يفقد هدوءه [أ] .

" فمثلا أنا واثق أنك لن تصدقني إذا قلت لك إنني أعطيك فورا كل أموالي، بمجرد أن تطلب مني ذلك.

تردد مالان ونظر هذه المرة إلى صديقه:

" آه ، إني أعرف. أنت كريم.

– كلا، لست كريما. فانا بخيل بوقتي، بجهودي، بتعبي وهذا ما تشمئز منه نفسي. ولكن ما قلته صحيح. أما أنت فإنك لاتصدقني، وهذا عيبك وعجزك الحقيقي بالرغم من أنك إنسان متفوق. فأنت مخطئ. تكفي كلمة منك، حالا، وكل أموالي تصبح لك. لا تحتاج أن تقول هذه الكلمة وليس هذا إلا مثالا. ولكن ليس مثالا قد اخترته بشكل تعسفي، فإن أموالي هي فعلا لك.

قال مالان وعيناه نصف مغمضتين: شكرا، فعلا إني متأثر.

– حسنا، إني أقبلك. إنك لا تحب أبدا أن تتكلم بشكل صريح جدا. أردت أن أقول لك فقط إني أحبك بعيوبك. نادرا ما أحب أو أقدس أحدا. وإني خجل من لا مبالاتي، بالنسبة للناس. ولكن بالنسبة للذين أحب، فلا شيء ولا حتى نفسي، ولا حتى هم بشكل خاص يجعلني أكف عن محبتهم. لقد أمضيت وقتا طويلا لتعلم هذه الأشياء؛ الآن، أعرف ذلك. ومن ثم فلنعد إلى موضوعنا: إنك لا تؤيد محاولتي لأستفسر عن أبي.

– أي، بلى، إني أؤيدك، ولكن أخشى أن تصاب بخيبة. كان لي صديق متيم بشابة، وكان يريد أن يتزوجها، وقد أخطأ حين أخذ معلومات عنها.

قال كورمري: إنه برجوازي.

[أ] غالبا ما أدين مالا لأشخاص لا يعنون شيئا بالنسبة إلي وأعرف أن هذا المال ضائع. ذلك أني لا أعرف أن أرفض وفي الوقت نفسه أشعر بحنق وغيظ.

قال مالان: أجل، كان هذا أنا.

وقهقها ضاحكين:

" كنت شابا. جمعت آراء متناقضة لدرجة أنها بلبلت فكري. شككت في حبي لها أو عدم حبي لها. وبمجمل القول، تزوجت امرأة أخرى.

- لا أستطيع أن أجد أبا ثانيا لي.

- كلا، لحسن الحظ، يكفي أب واحد، إن صحت خبرتي.

- قال كورمري: حسنا، وفضلا عن ذلك، يجب أن أذهب لزيارة أمي خلال عدة أسابيع. إنها مناسبة. ولقد حدثتك عن هذا خاصة لأني قد تأثرت للتو من فارق السن هذا الذي لصالحي، نعم لصالحي.

- " أجل، إني أفهم".

نظر إلى مالان

" كل مافي نفسك أنه لم يهرم. لقد تجنب هذا العذاب وإنه لطويل.

- مع أفراح كثيرة أيضا.

- " نعم. إنك تحب الحياة. هذا ما يلزم، فانت لا تؤمن إلا بها ".

جلس مالان بثقل على أريكة واسعة قد غطيت بقماش قطني مطبع، وفجأة لاحت على وجهه كآبة خفية غيرت تعبيره.

" أنت على حق. أنا قد أحببت الحياة، إني أحبها بنهم. وتبدو لي في الوقت نفسه فظيعة، ولا يمكن إدراكها كلها. لهذا أنا أؤمن، بدافع الشك، أجل، أريد أن أومن، أريد أن أعيش، دائما ".

صمت كورمري.

" في الخامسة والستين، كل سنة هي وقف التنفيذ. أود أن أموت بهدوء، فالموت شيء مخيف. لم أنجز شيئا.

- هناك أشخاص يبرر وجودهم العالم، يساعدون الآخرين على العيش بحضورهم فقط.

- أجل، ويموتون ".

عصفت الريح، خلال صمتهما، بشكل أعنف قليلا، حول المترل. قال مالان: أنت على صواب يا جاك. هيا اذهب وابحث عن الأخبار. لم تعد بحاجة إلى أب. لقد نشأت وحدك. والآن، تستطيع أن تحبه كما تعرف أن تحب، ولكن... قال مترددا... " عد لزيارتي. لم يبق متسع من الوقت. وسامحني...

قال كورمري: - أسامحك؟ إني مدين لك بكل شيء.

-كلا، لست مدينا لي بشيء. سامحني لمجرد أني لم أعرف أن أجيب أحيانا على محبتك..."

كان مالان ينظر إلى ثريا كبيرة قد علقت على الطريقة القديمة والتي كانت تتدلى فوق الطاولة، وأصبح صوته اكثر انخفاضا، ليردد ما سمعه بعد لحظات وحده في الريح وفي الضاحية المقفرة وما زال يسمعه في أعماقه بلا هوادة:

" في داخلي فراغ مرعب، لامبالاة تؤلمني [أ] ... "

(أ) جاك حاولت أن اجد بنفسي، منذ البدء، وأنا طفل، ما هو صالح وما هو طالح- لأنه لم يكن أحد حولي يمكنه أن يقول لي ذلك. وأشعر الآن أن الكل يتخلى عني، وإني أحتاج لأحد يدلني على الطريق ويؤنبني ويمدحني، ليس وفق المقدرة ولكن وفق السلطة، إني بحاجة إلى أبي.

ظننت أني اعرف ذلك، وأني ممسك زمام الأمور في يدي. إني لازلت لا [أعرف؟]

٤- ألعاب الطفل

كان تموج خفيف وقصير يدفع السفينة في قيظ تموز. كان جاك كورمري، وقد استلقى نصف عار في مقصورته، ينظر إلى انعكاسات الشمس المتفتتة على البحر تتراقص على الأطراف النحاسية لكوة السفينة. نهض بقفزة ليوقف المروحة التي كانت تجفف عرقه في مسامه قبل أن يبدأ بالسيلان على جذعه، كان من الأفضل التعرق، ثم استلقى على فراشه، القاسي والضيق كما كان يجب أن تكون الأسرة. وفورا، صعد ضجيج الآلات المخنوق من أعماق السفينة على شكل اهتزازات مخففة شأنه شأن جيش ضخم يسير بلا توقف. كان يحب أيضا ضجيج البواخر الضخمة ليل نهار، والشعور بالسير على بركان، بينما كان البحر الفسيح حوله ينبسط على مد النظر. إلا أن الطقس كان حارا جدا على ظهر السفينة؛ بعد الغداء؛ ثمة ركاب وقد أرهقتهم كثرة الطعام استلقوا على كراسي طويلة على السطح المغطى أو هربوا وقت القيلولة إلى الممرات الضيقة داخل السفينة. لم يكن جاك يحب أن ينام بعد الغداء. تذكر بنقمة " هيا إلى النوم"، كان هذا التعبير الغريب ما تردده جدته عليه حين كان طفلا في مدينة الجزائر وكانت ترغمه على مرافقتها إلى السرير للقيلولة. كانت غرف الطابق الصغير الثلاث، في ضاحية الجزائر، غارقة في ظل مخطط عكسته شبابيك قد أحكم إغلاقها [أ] . كان القيظ في الخارج يحرق الشوارع الجافة والمغبرة، وفي عتمة الغرف، كانت ذبابة أو ذبابتان ضخمتان نشيطتان تبحثان بلا كلل عن مخرج بأزيز كأزيز الطائرة. كان القيظ لا يسمح بالنزول إلى الشارع للقاء الرفاق، وقد أبقيوا عنوة هم أيضا في بيوتهم. كما كان القيظ لا يسمح بقراءة كتاب **Pardallian** أو كتاب المقدام[ب] . وحين تغيب الجدة بشكل استثنائي، أو حين كانت تتكلم مع الجارة، كان الطفل يلصق أنفه على شبابيك غرفة الطعام المطلة على الشارع. كانت قارعة الطريق مقفرة. وأمام مخازن الأحذية ودكان الأقمشة والخردوات في المقابل، كانت ستائر الكتان الحمراء والصفراء قد أسدلت، كما كان مدخل دكان

[أ] حوالي العاشرة من عمره.

[ب] كانت هذه الكتب الضخمة تطبع على ورق الجرائد بغلاف لون بألوان فاقعة، وقد طبع عليه ثمنها بأحرف أكبر من العنوان ومن اسم المؤلف.

التبغ قد حجب بستار من الخرز الكثير الألوان، وكانت الصالة، عند جان صاحب القهوة، خالية عدا قط نائم كأنه ميت، على طرف الأرض المغطاة بالنشارة بمحاذاة الرصيف المغبر.

كان الطفل يلتفت إلى الغرفة شبه العارية، وقد طليت بالكلس، وفرشت في الوسط بطاولة مربعة، وصوان امتد على طول الجدران، ومكتب صغير غطي بخطوط حفرت فيه، وببقع حبر، وعلى الأرض كان مفرش صغير جلل بغطاء حيث كان الخال نصف الأبكم ينام عليه ليلا، كما كان هناك خمسة كراسي(أ) . وفي زاوية، على مدفأة سطحها فقط من المرمر، كان ثمة مزهرية صغيرة، من المزهريات التي توجد في الأسواق الشعبية، بعنق ممشوق قد زينت بالزهر. راح الطفل، وقد وجد نفسه محصورا بين قفرين: الظل والشمس، يدور حول الطاولة بلا توقف، بخطوة سريعة تتفق مع ما يكرره كصلاة رتيبة: " إني أضجر، إني أضجر! " ولكن كان في هذا السأم، في الوقت نفسه، شيء من اللعب والفرح، ونوع من المتعة، إلا أن الغيظ ما يلبث ان يسيطر عليه حين يسمع جدته وقد عادت أخيرا تردد "هيا إلى النوم". ولكن احتجاجاته لم تكن مجدية. كان للجدة التي ربت تسعة أطفال في الريف آراؤها الخاصة في التربية. كان الطفل يدفع دفعة واحدة إلى غرفة النوم. وكانت هذه الغرفة إحدى الغرفتين اللتين تطلان على الباحة. كان في الأخرى سريران، واحد لأمه وآخر ينام فيه مع أخيه. كان للجدة الحق في غرفة نوم لها وحدها. ولكن غالبا، ماكانت تستقبل، في سريرها الخشبي العالي والواسع، الطفل في الليل، ودائما للقيلولة. كان يخلع نعليه ويرتقي السرير. كان عليه ان يشغل مكانه في الداخل على الحائط منذ اليوم الذي انسل إلى الأرض أثناء نوم جدته ليعود إلى دورانه حول الطاولة متمما لازمته. كان ينظر إلى جدته وهو داخل السرير، تخلع ثوبها وتخفض قميصها الداخلي من الكتان الخشن، وقد زم من الأعلى بشريط تفكه حينئذ فيترلق. ثم تصعد بدورها على السرير. وكان الطفل يشم بالقرب منه رائحة اللحم الهرم حين كان ينظر إلى العروق الزرقاء الضخمة وبقع الشيخوخة التي تشوه قدمي جدته. كانت تكرر "هيا إلى النوم"" وتستغرق بسرعة في النوم، بينما كان الطفل، وعيناه مفتوحتان، يتابع حركات الذباب المستمرة التي لاتعرف الكلل.

أجل، لقد كره القيلولة طوال سنوات، وكذلك فيما بعد، حين أصبح رجلا ومرض مرضا خطيرا، لم يكن يستطيع أن يستلقي بعد الغداء وقت القيظ. وإذا ما نام بعد ذلك، فإنه كان يستيقظ متضايقا مع إحساس بالغثيان. ومنذ فترة قصيرة فقط، حين بدأ يشكو من الأرق، أصبح

(أ) في منتهى النظافة.

خزانة، خوان الزينة من الخشب وفوقه مرمر. وبساط سرير بغرزة معقودة، وهذا البساط بال، متسخ، اطرافه مهدبة، وفي الزاوية، كان هناك صندوق ضخم غطي بسجادة عتيقة ذات عقد.

بإمكانه أن ينام نصف ساعة في النهار وأن يستيقظ مرتاحاً ونشيطاً. هيا إلى النوم...

كانت الريح قد هدأت، وقد انتصرت عليها الشمس. فقد المركب تمايله الخفيف وبدا الآن كأنه يسير وفق طريق مستقيمة، والآلات تدور بأقصى سرعة، ومروحة السفينة تمخر كثافة الماء مخراً مستقيماً وضجيج المكابس وقد انتظم أخيراً حتى إنه اختلط بصوت الشمس المكتوم والمتداخل فوق البحر. كان جاك مغفيا إغفاءة خفيفة، وقد انقبض قلبه بنوع من القلق السعيد لفكرة العودة إلى الجزائر وإلى البيت الصغير والفقير في الضواحي. كان كلما غادر باريس إلى افريقيا شعر بنوع من الغبطة المكتومة، ينشرح لها قلبه، كما يحس برضى كمن نجح في الفرار وراح يضحك حين يفكر بمظهر حراسه. وكان كلما عاد إلى باريس براً وبالقطار كان قلبه ينقبض من رؤية بيوت الضواحي الأوائل المتلاصقة بشكل لا أحد يعرف كيف، بلا تخوم من الأشجار أو المياه، كسرطان بائس يعرض غدده المكوَّنة من الفقر والقبح والذي كان يهضم شيئاً فشيئاً الجسم الغريب ليقوده إلى قلب المدينة، حيث إطار رائع ينسيه أحياناً غابة الإسمنت والحديد التي كانت تحبسه ليل نهار وتملأ ليالي أرقه. ولكنه هرب، كان يستنشق على دفعات، على ظهر البحر الفسيح، وتحت اهتزاز الشمس الكبير، كان يستطيع أخيراً أن ينام وأن يعود إلى الطفولة التي لم يبرأ منها قط، إلى هذا السر من النور والفقر الطافح بالمشاعر الحارة التي ساعدته على أن يحيا وأن يقهر كل الصعاب.

كان الشعاع المتكسر على نحاس كوة المركب قد أصبح الآن جامداً، كان هذا الشعاع هو نفسه آتياً من الشمس ذاتها التي، في الغرفة المعتمة حيث كانت تنام الجدة، ترمي بكل ثقلها على سطح الشبابيك كله، وتغمد في الظل سيفاً واحداً مرهفاً جداً ينفذ من الفتحة الوحيدة التي تركتها في وصلة الشبابيك عقدة خشبية مكسورة. كان الذباب غائباً، ولم يكن هو الذي يئز أو يملأ نعاسه ويغذيه، لم يكن من ذباب في البحر والذباب الذي كان الطفل يحبه لأنه كان صاخباً، قد مات. كان ذاك الذباب وحده حياً في عالم خدرته الحرارة، كما خدرت كل الناس وكافة الحيوانات التي كانت على جنبها، بلا حياة، إلا هو، وبالفعل فلقد كان يتقلب في السرير في المكان الضيق الذي بقي له بين الحائط والجدة، وكان يريد هو أيضاً أن يعيش، وكان يبدو له أن وقت النوم يُختطف من الحياة ومن ألعابه. كان الرفاق، بلا شك ينتظرونه في شارع بريفو - بارادول، الذي يحاذي حدائق صغيرة تعبق في الليل برطوبة السقاية وزهر العسل الذي كان ينبت في كل مكان سواء، سقي أم لم يسقَ. كان يقول في نفسه ماإن تستيقظ جدته حتى يتسلل، وينزل إلى شارع ليون الذي لايزال مقفراً في ظلال أشجار التين، ويركض حتى عين الماء القائمة في زاوية شارع بريفو بارادول ويدور بأقصى سرعة المقبض الضخم المصنوع من الحديد الصب الموجود على رأس العين وقد انحنى رأسه تحت الصنبور ليتلقى دفقة كبيرة تملأ منخريه وأذنيه وتنفذ من ياقة قميصه المفتوحة حتى بطنه ثم تجري تحت بنطاله القصير على طول ساقيه حتى صندليه. حينئذٍ وقد سعد بشعور بالماء يرغي بين

أخمص قدميه وجلد النعلين، سيركض طويلاً لينضم إلى بيير [أ] وإلى بقية الرفاق، وقد جلسوا في مدخل ممر للبيت الوحيد في الشارع المؤلف من طابقين، يشحذون عصا من الخشب على شكل سيكار ليلعبوا بها بعد ذلك لعبة (عود الكرم [1]) بمضرب من الخشب الأزرق.

كانوا ما إن اكتمل عددهم حتى ينطلقون، ممررين المضرب على طول حواجز الحدائق الحديدية الصدئة، أمام المنازل، محدثين ضجة كبيرة توقظ الحي وتدفع القطط النائمة تحت العريش المغبر أن تقفز مهرولة. كانوا يركضون، وهم يقطعون الشارع، ويحاول كل واحد أن يمسك بالآخر، قريباً من مدرستهم، على بعد أربعة شوارع أو خمسة من هناك. ولكن كان ثمة محطة إلزامية، حيث ما يسمونه فوارة، في ساحة كبيرة إلى حد ما، كان هناك سبيل مستدير ذو طابقين، لم يكن الماء يسيل منه، إلاّ أن الحوض، وقد انسد منذ زمن طويل، كان قد ملأته حتى حافته، على فترات طويلة، أمطار البلد الغزيرة. كانت المياه آسنة، وقد غطيت بأعشاب قديمة، وبقشور البطيخ والبرتقال وببقايا من كل الأنواع إلى أن تمتصها الشمس، أو تستيقظ البلدية وتقرر ضخها، وكان طمي يابس، متشقق قذر بقي طويلاً في قعر الحوض، ينتظر أن تحوله الشمس وهي تواصل دأبها، إلى غبار ترميه الريح أو مكنسة المنظفين على أوراق التين اللامعة التي كانت تحيط بالساحة. في الصيف، على كل حال، كان الحوض جافاً وكان يعرض حافته الضخمة المصنوعة من الحجر الداكن، اللماع، الذي صار زلقاً من جراء آلاف الأيدي وجلسات الأولاد، وعليه كان جاك وبيير وباقي الأولاد يلعبون لعبة سرج الحصان، ويدورون على أردافهم إلى أن ترميهم سقطة عنيفة في الحوض القليل العمق والذي كانت تنتشر منه رائحة البول والشمس.

ثم، وقد استمروا في الركض، وسط الحرارة والغبار الذي كان يغطي بطبقة رمادية أقدامهم وصنادلهم، كانوا يطيرون إلى الحقل الأخضر. كان هذا الحقل عبارة عن أرض قفر تقع وراء معمل براميل، حيث نبتت بين دوائر الحديد الصدئ وقعور البراميل المتعفنة أعشاب هزيلة ملتفة بين ألواح الصفائح التبشورية. هناك كانوا يرسمون، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم، دائرة في الصفائح. كان يتمركز أحدهم، والمضرب في يده، داخل الدائرة، بينما يشرع الآخرون، كل واحد في دوره، في رمي السيكار الخشبي داخل الدائرة. فإذا حط السيكار في الدائرة، أخذ الرامي المضرب وراح يدافع بدوره عن الدائرة. وكان أمهر اللاعبين [أ] هم الذين يمسكون السيكار في الهواء ويدفعونه بعيداً جداً. وكان من حقهم، في هذه الحالة، أن يذهبوا إلى المكان الذي سقط فيه، وهم يضربون بحافة

[أ] كان بيير هو الآخر ابن أرملة حرب تعمل في البريد، وكان صديقه.

[1] انظر شرح المؤلف، فيما يلي.

[أ] المدافع الماهر في المفرد.

المضرب على طرف السيكار الذي كان يرتفع في الأجواء، ثم يمسكون به ليرسلوه أبعد من قبل، وهكذا إلى أن يخطئوا الضربة، أو يمسك الآخرون السيكار في الهواء، فيرجعون بسرعة إلى الوراء ليدافعوا من جديد عن الدائرة ضد السيكار الذي أرسله الخصم بسرعة وبمهارة. كانت لعبة كرة مضرب الفقراء هذه، مع بعض قواعد اكثر تعقيداً، تشغلهم طوال ما بعد الظهر. كان بيير أمهر اللاعبين، كان انحل من جاك وأقصر قامة ايضاً يميل جسمه إلى الهزال، وبقدر ماكان جاك اسمر، كان بيير أشقر حتى أهدابه حيث برز منها نظرة زرقاء واضحة مستسلمة، جريحة قليلاً، مندهشة، مرتبكة على ما يبدو ولكن تصرفه كان ذا مهارة محددة وثابتة. أما جاك فكان ينجح في تجنب ضربات صعبة جداً ويخطئ في ضربات مقلوبة سهلة جداً، وبسبب ضرباته الصعبة، وانتصاراته التي كانت تثير إعجاب رفاقه، كان يظن نفسه الأمهر وغالباً ما يتبجح بذلك. في الواقع، كان بيير يهزمه باستمرار ولا يتبجح أبداً بذلك. ولكن، بعد اللعب، كان ينتصب واقفاً، دون أن يضيع سنتيمتراً واحداً من قامته، ويبتسم بصمت، وهو يصغي إلى الآخرين [ب] .

أما حين كان الطقس أو المزاج لا يسمح باللعب، فبدلاً من الركض في الشوارع والأراضي القفار، كانوا يجتمعون أولاً في ممر بيت جاك. من هناك، كانوا يمرون عن طريق باب خلفي، إلى باحة صغيرة في مستوى أدنى محاطة بجدران ثلاثة بيوت. أما على الطرف الرابع، فلقد كان هناك جدار حديقة انتشرت عليه أغصان شجرة برتقال ضخمة، وحين تزهر، كان عطرها ينبعث على طول البيوت الفقيرة، ويصل من الممر او ينحدر إلى الباحة عن طريق سلم حجري صغير. كان على طرف الباحة ونصف طرف ثان منها بناء صغير مربع قائم الزاوية يسكن فيه حلاق اسباني يمارس مهنته في القسم الواقع من جهة الشارع كما تسكن أسرة عربية [ج] . وكانت المرأة في بعض الأمسيات تحمص البن في الباحة. كان على الطرف الثالث مستأجرون يربون الدجاج في أقفاص عالية مهدمة ذات سياج خشبي. وأخيراً على الجهة الرابعة، من طرفي السلم كانت أقبية البناية تفغر أفواهها السوداء الواسعة. كانت عبارة عن كهوف بلا منفذ ولا نور، حفرت في الصخر، دون أي فاصل، وترشح بالرطوبة. كان النزول إليها عن طريق أربع درجات مغطاة بالتراب المخضر، وحيث كان المستأجرون يكومون، بشكل يختلط فيه الحابل بالنابل، ما زاد من ممتلكاتهم، أي لاشيء يذكر: كانت أكياس بالية تتعفن فيه، ثمة قطع صناديق وأحواض عتيقة صدئة، مثقوبة، وبمجمل القول كل ما يرمى في الأراضي البور والذي لا ينفع حتى لأكثر المعدمين فقراً. وهنا، في أحد هذه الأقبية، كان الأولاد يجتمعون. كان جان وجوزيف، ولدا الحلاق الاسباني قد اعتادا أن

[ب] كانت تجري في الحقل الأخضر " المباريات ".

[ج] كان عمر ابن هذه الأسرة – والأب كناس تابع للبلدية.

يلعبا فيه. فعلى أبواب مسكنهما الخرب كان هذا القبو حديقتهما الخاصة. كان جوزيف السمين والماكر، دائم الضحك ويعطي كل ما معه. في حين كان جان القصير والنحيل، يجمع بلا هوادة أبسط مسمار، وبرغي يراهما وكان يبدو مقتصداً خاصة فيما يخص كللـه الزجاجية أو نوى المشمش اللازمة لأحد ألعابهما المفضلة [1] . كان لايمكن لأحد أن يتخيل اثنين اكثر تعاكساً من هذين الأخوين اللذين لا يفترقان. كان هذان الأخوان مع بيير وجاك وماكس، الشريك الأخير، يغورون في القبو النتن والمبلل. وعلى دعائم حديدية صدئة، كانوا يسطون اكياساً ممزقة تتفعن في الأرض، بعد أن يكونوا قد نظفوها من صراصر صغيرة رمادية لها قوقعة مفصلية يسمونها خنازير الهند. وتحت هذه الخيمة المقززة، كانوا أخيراً في بيت لهم (في حين لم يكن لديهم غرفة ولا حتى سرير يخصهم). كانوا يشعلون نيراناً صغيرة وقد احتبست في هذا الهواء الرطب والفاسد، راحت تُخفت متحولة إلى دخان وتطردهم من وكرهم حتى يتوصلوا إلى تغطيتها بتراب رطب كشطوه مباشرة من ارض الباحة. ثم كانوا يقاسمون جان الصغير، حينئذٍ، بعد مجادلة معه سكاكر كبيرة محشوة بالنعناع، وفستق العبيد أو الحمص، المجفف والمملح، وكذلك نوع خاص من الترمس أو سكاكر المص بالألوان الفاقعة التي يبيعها العرب على أبواب السينما القريبة، على طبق يحاصره الذباب وهو عبارة عن صندوق بسيط من الخشب ركب على كرات فولاذية تدور. أما أيام الأمطار الوا بلة، فكانت أرض الباحة الرطبة والمشبعة بالماء تترك الأمطار الغائصة تجري داخل الأقبية التي تغرقها بانتظام، فالأولاد وقد ركبوا الصناديق القديمة العائمة راحوا يلعبون مدعين أنهم روبنسون بعيداً عن السماء الصافية ورياح البحر، وقد انتصروا في مملكة بؤسهم [ب] .

ولكن أجمل الأيام* كانت أيام الصيف، حين كانوا يتوصلون بأية ذريعة إلى أن يقطعوا القيلولة بكذبة لطيفة. وبما إنه لم يكن معهم البتة. ثمن تذكرة الترام، فإنهم يستطيعون أن يسيروا طويلاً حتى حديقة الاختبار، عبر سلسلة شوارع الضاحية الصفراء والرمادية وقد اجتازوا حي الاصطبلات، والمخازن الكبيرة للمؤسسات أو للأفراد التي كانت توصل بضائعها إلى الداخل بواسطة عربات شحن تجرها أحصنة، كما كانوا يحاذون الأبواب الضخمة ذات المزلاق والتي كان يسمع من ورائها وقع قوائم الجياد، وأنفاسها الخشنة التي تجعل مشافرها تفرقع، وعلى خشب

---

[1] كانوا يضعون نواة فوق ثلاث أخر على شكل ركيزة، وعلى بعد مسافة محددة، يحاول اللاعب أن يخرب هذا البناء برميه نواة أخرى. وكان الفائز يجمع النوى الأربع. أما إذا أخطأ هدفه فإن نواته تعود إلى صاحب الركيزة.

[ب] مايسمونه غالوفا.

* أعظم.

المعلف، كان يسمع ضجيج سلسلة الحديد التي تستعمل كرسن، وكانوا حينئذٍ يشمون بمتعة رائحة الروث، والقش والعرق المنبعثة من هذه الأماكن المحظرة والتي كان جاك لا يزال يحلم بها قبل أن ينام. كانوا يتلكؤون أمام اصطبل مفتوح كان أصحابه يفرجنون فيه الخيول، هذه الحيوانات الضخمة، الغليظة القوائم، الآتية من فرنسا والتي كانت تفتح عليهم عيونها المستوحشة وقد أثقلها القيظ والذباب. ثم كانوا، وقد دفعهم سائقو الشاحنات يركضون نحو الحديقة الفسيحة حيث تزرع أزهار عطرة نادرة جداً. كان في الممر الكبير المطل على البحر والذي يرى منه الأحواض والزهور، كانوا يتخذون مظهر متنزهين لا مبالين ومتحضرين أمام نظرات الحراس الحذرة، ولكن أمام أول ممر عرضي، يهرولون جرياً نحو القسم الشرقي للحديقة، عبر صفوف أشجار الشورى الضخمة، المتلاصقة، كأن الليل قد حل في ظلالها، يركضون نحو أشجار المطاط [أ] الكبيرة والتي لا يمكن تمييز أغصانها المتهدلة من جذور كثيرة الفروع والتي كانت تنزل من الأغصان الأولى نحو الأرض، وكان يرى وراء هذه الأشجار، الهدف الحقيقي لنزهتهم، أشجار الثمر الباسقة التي تحمل في رؤوسها عناقيد من الثمار الصغيرة المستديرة والكثيفة، البرتقالية اللون التي يسمونها النخلات. هناك كان عليهم أن يقيموا نقاط استكشاف في كل الاتجاهات ليتأكدوا من غياب الحرس في الجوار. ثم يبدأ البحث عن الذخيرة، أي الحصى. وحين يعود الجميع وقد امتلأت جيوبهم، كان كل واحد يرمي بدوره على العناقيد التي كانت تتأرجح بهدوء في السماء، تعلو على كل أشجار الحديقة. وكانت كل ضربة تصيب، تقع بعض الثمار، التي لاتعود إلاّ للرامي المحظوظ. وكان على الآخرين أن ينتظروا حتى ينتهي من جمع غنيمته حتى يرموا بدورهم. في هذا اللعب، كان جاك البارع في الرماية، يعادل بيير مهارة. إلا أنهما كانا يشاركان الآخرين، الأقل حظاً، غنيمتهما. وكان ماكس أقلهم مهارة، كان يلبس نظارتين ويشكو من سوء بصره. كان قصير القامة سميناً وقوياً، ومع ذلك كان الجميع يحترمونه منذ اليوم الذي رأوه يقاتل. وكانت العادة، في قتال الشوارع الكثير الوقوع الذي يشتركون فيه، أن يهجموا على الخصم، وخاصة جاك الذي لم يكن يستطيع أن يكبح جماح غضبه ويسيطر على عنفه، كان يهجم على الخصم ويؤلمه إيلاماً شديداً بأقصى سرعة، وإن تعرض بالتالي لقتال عنيف. وكان ماكس الذي يحمل اسماً ذا نبرة ألمانية، قد وصفه ابن الجزار الضخم، الملقب بفخذ الخروف، بالألماني القذر [1] ، خلع حينئذ نظارتيه بهدوء، وأعطاهما لجوزيف، ثم وقف وقفة حذر كما يفعل الملاكمون الذين كان يراهم في المجلات واقترح على الآخر أن يأتي ليكرر مسبته. ثم، دون أن يبدو عليه الانفعال، تجنب ضربات فخذ الخروف كما ضربه ماكس ضربات متتالية دون أن يمس هو وأخيراً، انتصر عليه. وكم كانت سعادته

[أ] يجب ذكر أسماء الأشجار.

[1] يعتبر هذا التعبير مسبة تطلق على الخونة المتعاونين مع الألمان إبان الحرب العالمية الأولى (المترجمة).

عظيمة حين أدرك أن ضرباته قد سودت عين خصمه. ومنذ ذاك اليوم توطدت شعبية ماكس بين أفراد فرقته الصغيرة. كانوا يجرون خارج الحديقة نحو البحر وقد تدبقت أيديهم وجيوبهم من الثمار، وما إن يصبحوا خارج السور، وقد جمعوا التمر في مناديلهم القذرة، حتى يشرعون في مضغه متلذذين بفجوات التمر الليفية السكرية، الدسمة التي تقزز، ولكنها خفيفة ولذيذة كالانتظار، ثم يركضون نحو الشاطئ.

للوصول إليه، كان عليهم أن يجتازوا الطريق المسماة بالغنمية لأنه غالباً ماتسلكها قطعان الغنم آتية أو ذاهبة إلى السوق (البيت المربع) شرقي مدينة الجزائر. كانت هذه السوق في الواقع عبارة عن طريق عرضي تفصل عن البحر قوس الدائرة الذي يؤلف المدينة الواقعة على هضابه والتي على شكل مدرج. فبين الطريق والبحر كان هناك معامل، ومصانع آجر، ومصنع غاز تفصلها مساحات من الرمل المغطى بلوحات الفخار أو غبار الكلس، حيث كانت تبيِّض كسارات حطب أو حتات حديد. فإذا ما اجتازوا هذه الأرض البور الجرداء القاحلة، خرجوا إلى شاطئ يدعى سابليت (Sablettes) . كانت رماله ضاربة إلى السواد ولم تكن الموجات الأولى بشفافة دائماً. كان على اليمين منشأة سياحية تفتح غرف حماماتها، كما تفتح أيام الأعياد صالتها للرقص، وكانت هذه الصالة عبارة عن صندوق خشبي ضخم، رُكب على موتدة، وكل يوم كان بائع البطاطا المقلية، طوال الفصل يسعر فرنه. وفي معظم الأحيان لم يكن لدى الفرقة الصغيرة حتى ثمن قرن بطاطا. وإذا حصل أحدهم مصادفة على قطعة النقد اللازمة [أ] ، اشترى القرن، وتقدم بوقار نحو الشاطئ، يتبعه موكب الرفاق الجليل، وأمام البحر، في ظل مركب قديم مفكك، وقد غرس قدميه في الرمل، تهاوى مسترخياً على ردفيه حاملاً بيد وبشكل عمودي قرنه في حين غطاه باليد الأخرى كي لايضيع اصبعاً من أصابع البطاطا المحمصة. كان العرف حينئذ أن يقدم إصبعاً لكل واحد من الرفاق الذين كانوا يتذوقون بورع القطعة الطيبة الوحيدة الساخنة والمعطرة والمكوية بالزيت التي تركها لهم رفيقهم. ثم كانوا ينظرون إلى هذا المحظوظ الذي كان يتذوق بجدية كبيرة واحدة تلو الأخرى أصابع البطاطا المقلية الباقية. كان يبقى دائماً في قعر الصرة فتات البطاطا. وكانوا يترجون الشبعان أن يتفضل ليوزعها عليهم. وفي معظم الأحيان، إلا إذا كان جان هو المعني، كان رفيقهم يفك صرة الورق الدهنية ويبسط فتات البطاطا ويسمح لكل واحد، بشكل متتابع، أن يأخذ فتاتة. وكان يلزمهم بمجرد "زر" يرمى فيحدد اتجاهه من سيهجم اولاً ويستطيع بالتالي أن يأخذ أكبر فتاتة. وبعد انتهاء الوليمة، وقد نسوا فوراً المتعة والحرمان، كان الركض يبدأ حتى نهاية الشاطئ الغربي، تحت سعير الشمس، حتى يصلوا إلى بناء نصف متهدم ربما استعمل كقاعدة كوخ لم يعد موجوداً وكانوا يخلعون ملابسهم وراءه وفي عدة ثوان، كانوا عارين، ثم، اللحظة التالية، يسبحون في الماء

[أ] قرشان

بنشاط وبلا مهارة وهم يصرخون (أ) ويشربون ويبصقون ويتحدون بعضهم بالغطس أو بمن قد يبقى تحت الماء فترة أطول من الآخرين. كان البحر لطيفا، دافئا، والشمس قد خفت وطأتها الآن من على رؤوسهم المبللة، كان المجد والنور يغمران هذه الأجسام الفتية بفرح يدفعهم للصراخ بلا انقطاع. كان لهم الحياة والبحر وكل ما يمكن ان يعطيه العالم من سعادة، كانوا يتلقونه ويتمتعون به بلا قياس، كأسياد واثقين من ثروتهم التي لا تعوض.

وفي غمرة لعبهم كانوا ينسون حتى الوقت وهم يركضون من الشاطئ إلى البحر، ينشفون على الرمال الماء المالحة التي جعلتهم دبقين، ثم يغسلون في البحر الرمال الفضية التي التصقت بهم فكستهم بلونها. كانوا يركضون وكانت السنونوات بصراخ سريع قد بدأت تطير منحدرة فوق مصانع الشاطئ. أما السماء، وقد انقشع عنها جو النهار الخانق، فقد أصبحت أكثر صفاء ثم اخضرت. وكان النور قد امتد، ومن جهة الخليج الأخرى، كان القوس الذي تشكله منازل المدينة والذي كان غارقا في نوع من الضباب قد أصبح الآن أكثر وضوحا. كان النور لا يزال منتشرا، ولكن ثمة مصابيح قد أضيئت نظرا لسرعة الغروب في افريقيا. كان بيير عادة الأول في إعطاء الإشارة: " الوقت متأخر" وفورا تتشتت الفرقة، وهي تودع بعضها بسرعة. كان جاك مع جوزيف وجان يركضون نحو بيوتهم دون أن يهتموا بالآخرين وهم يعدون وقد انقطعت أنفاسهم. كانت أم جوزيف سريعة الضرب. أما جدة جاك... كانوا يركضون دائما في المساء الذي بدأ يرخي سدوله بسرعة، وقد أذهلتهم مصابيح الغاز الأولى، والحافلات المضاءة التي كانت تهرب من امامهم، وقد أسرعوا ركضا، مرتاعين من حلول الليل، وكانوا يفترقون على الباب دون أن يودعوا بعضهم بعضا. في تلك الأمسيات، كان جاك يتوقف في السلم المعتم النتن يستند في الظلام على الحائط وينتظر ان يهدأ قلبه المتوثب. ولكنه لم يكن يستطيع الانتظار. وإن معرفة ما كان بانتظاره يزيد لهاثه. وبثلاث خطوات كان على صحن الدرج، يمر أمام باب المراحيض ويفتح باب بيته: كان هناك نور في غرفة الطعام الواقعة في نهاية الممر، وكان يسمع، وقد تجمد، وقع الملاعق على الصحون. كان يدخل. حول الطاولة، تحت الضوء المستدير الذي يرسله مصباح الغاز كان الخال (أ) شبه الأبكم مسترسلا في ابتلاع الحساء بصوت عال؛ كانت أمه، التي لم تزل شابة، ذات شعر بني اللون غزير، تنظر إليه بنظرتها الجميلة العذبة. وتبدأ بالقول " أنت تعرف جيداً ... " إلا أن جدته المنتصبة في ثوبها الأسود، وبفمها الحازم، وعينيها الصافيتين والقاسيتين والتي لم يكن يرى إلا ظهرها، تقاطع ابنتها قائلة: " أين كنت؟- لقد أراني بيير وظيفة الحساب". كانت الجدة تنهض وتقترب منه. وتشم شعره، ثم تمر يدها على كعبيه اللذين لا يزالان معفرين بالرمل. " كنت في

(أ) إذا غرقت فسوف تقتلك أمك - ألا يحمر وجهك خجلاً أن تظهر عريك. أين أمك.

(أ) الأخ.

الشاطئ". كان الخال ينطق بصعوبة قائلاً : " إذن أنت كاذب". إلا أنَّ الجدة كانت تمر خلفه وتأخذ من وراء باب غرفة الطعام السوط الضخم، المسمى عرق البقر، والذي كان معلقاً، وتجلد ساقه وفخذيه بثلاث ضربات أو أربع تحرقه فيصرخ ألماً. وبعد قليل، وقد امتلأ فمه وحلقه بالدموع، أمام صحن الحساء الذي ملأه الخال وقد أشفق عليه، كان جاك يتمالك بكل قواه ليمنع دموعه أن تسيل.

كانت أمه، بعد نظرة سريعة نحو الجدة، تدير نحوه وجهها الذي كان يحبه كثيراً وتقول له: كل الشوربة، انتهى الأمر، انتهى الأمر". حينئذٍ كان ينخرط في البكاء.

استيقظ جاك كورمري. لم تعد الشمس تنعكس على نحاس كوة نافذة السفينة ولكنها انخفضت في الأفق وراحت تُضيء الآن الجدار المقابل له. لبس ثيابه وصعد إلى ظهر السفينة. سيجد مدينة الجزائر في نهاية الليل.

٥- الأب. مَوتُه

الحرب. الاعتداء

كان يضمها بين ذراعيه، وهو لم يزل بعد على عتبة الباب، لاهثاً من صعوده السلم أربع درجات فأربعاً بوثبة واحدة ثابتة، دون أن يخطئ درجة، كما لو كان جسمه يحتفظ دائماً بدقة بذكرى ارتفاع الدرجات. حين نزل من سيارة الأجرة، في الشارع المزدحم جداً، وقد لمعت بعض أماكن فيه من سقاية الصباح [أ] التي كانت حرارة النهار قد بدأت تبددها على شكل بخار، كان قد رآها، في المكان ذاته كما في الماضي، على شرفة الشقة الضيقة والوحيدة، بين الغرفتين، فوق مظلة باب الحلاق- لم يكن أبو جان وجوزيف الذي مات مسلولاً، وهذه أخطار المهنة، كما كانت تقول زوجته، وهي أن يتنشق دائماً الشعر- وقد غلفت بصفيحة متموجة احتفظت دائماً بحمولتها من ثمار التين ومن قصاصات ورق مجعدة وكذلك من أعقاب سكائر قديمة. كانت هنا، بشعرها الغزير أبداً والذي صار أبيض منذ سنوات، كانت منتصبة القامة وبالرغم من تجاوزها الثانية والسبعين فلا يمكن ان يُقدر عمرها إلا بعشر سنوات أقل، بسبب نحافتها الشديدة ونشاطها الذي مازال ظاهراً، كان هذا شأن أسرتها كلها، قبيلة من النحاف، جامدي الهيئة، ذوي همة ونشاط لا تعرفان الكلل، وكأن الشيخوخة لا تمتد إليهم. كان الخال إميل [٢] ، شبه الأبكم، وهو في الخمسين، يبدو شاباً. ماتت الجدة دون أن تحني رأسها. أما بالنسبة لأمه، التي كان يركض نحوها الآن، كان يبدو أن لاشيء يخفف من صلابتها العذبة بما ان عشرات الأعوام من العمل المضني لم تمس جمال الشابة التي كان كورمي الطفل يتأملها ملء عينيه.

حين وصل أمام الباب، كانت أمه قد فتحته وألقت بنفسها بين ذراعيه. وهنا، شأنها كل مرة يلتقيان فيها، كانت تقبله مرتين أو ثلاثاً وهي تضمه إلى صدرها بكل قواها. كان يشعر بين ذراعيها بأضلاعها، وبعظام كتفيها القاسية والناتئة والمرتجفة قليلاً، بينما كان يستنشق رائحة جلدها العذبة التي كانت تذكره، في هذا الموضع، تحت جوزة العنف، بين وتري الحلق، والذي لم يعد يجرؤ أن يقبله لديها، ولكنه كان يحب أن يشمه ويداعبه حين كان طفلاً، وفي مرات نادرة

[أ] الأحد.

[٢] سيصبح اسمه أرنست.

كانت تأخذه على ركبتيها فكان يتظاهر بالنوم، وقد وضع أنفه في هذه الحفرة من رقبتها التي كانت رائحتها بالنسبة إليه رائحة الحنان، وهي رائحة نادرة في حياته كطفل. كانت تقبله، ثم بعد أن تكون قد فكته، تنظر إليه ثم تأخذ ثانية، لتقبله مرة أخرى، كما لو كانت، قد قدرت في نفسها كل الحب الذي تستطيع أن تكنه له او تعبر عنه، فارتأت أن قدراً من هذا الحب كان لا يزال ناقصاً. قالت له: " يابني، لقد كنت بعيداً " [أ] ثم، وبعد ذلك مباشرة، تستدير وتعود إلى الشقة لتجلس في غرفة الطعام المطلة على الشارع، كان يبدو عليها أنها لم تعد تفكر فيه ولا في أي شيء آخر، حتى إنها كانت تنظر إليه أحياناً بتعبير غريب، كما لو كان الآن، أو هكذا كان يشعر، متطفلاً يزعج العالم الضيق، الخالي والمغلق حيث كانت تتحرك وحدها في عزلتها. في ذاك اليوم، بعد أن جلس بالقرب منها، كانت تبدو، فضلاً عن ذلك، وقد سيطر عليها نوع من القلق وكانت تنظر خلسة من وقت إلى آخر إلى الشارع، بنظرتها الجميلة الكئيبة والمحمومة التي لم تلبث أن تهدأ حين تقع على جاك.

كان الشارع قد ازداد صخباً، وكثر مرور الحافلات الضخمة الحمراء، محدثة قعقعة مصمة. كان كورمري ينظر إلى أمه، لابسة قميصاً رمادياً قصيراً تزينه ياقة بيضاء، وقد جلست جانبياً أمام النافذة على الكرسي غير المريح [ ] [1] حيث كانت تجلس دائماً، وقد انحنى ظهرها قليلاً من تقدم العمر، ولكنها لم تكن تحاول أن تستند على ظهره، وقد ضمت يديها حول منديل صغير كانت من وقت لآخر تبرمه على شكل كتلة بأصابعها الخدرة، ثم تتركه في قعر ثوبها بين يديها الجامدتين، وقد استدار رأسها قليلاً نحو الشارع. كانت هي نفسها منذ ثلاثين سنة خلت، وخلف التجاعيد، كان يجد الوجه نفسه الذي احتفظ بشبابه بمعجزة، كما يجد قوسي الحاجبين الأملسين اللامعين كأنهما امتزجا بالجبين، وكذلك الأنف الصغير المستقيم، والفم الذي مازال مرسوماً بالرغم من انقباض زوايا الشفتين حول طقم أسنانها. كانت الرقبة نفسها، والتي تهرم عادة بسرعة، قد احتفظت بشكلها بالرغم من اوتارها التي صارت عقداً، كما ارتخت اللحية قليلاً. قال جاك: " لقد ذهبت عند الحلاق". ابتسمت ابتسامة فتاة صغيرة ضُبطت متلبسة بالخطأ: " أجل، طبعاً لأنك آت". لقد كانت متأنقة دائماً على طريقتها، التي تكاد لا تُرى. وبالرغم من ثيابها الفقيرة فإن جاك لا يذكر أبداً أنه قد رآها تلبس شيئاً قبيحاً. لا تزال الآن أنيقة وقد أحسنت اختيار ملابسها الرمادية والسوداء. كان ذلك ذوق القبيلة البائسة دائماً، أو الفقيرة، كما كان هذا أحياناً ذوق بعض الأقرباء الميسورين إلى حد ما. ولكن الجميع، وخاصة الأطفال، كانوا يحبون، ككل سكان حوض المتوسط، القمصان البيضاء، والبناطيل ذات الكسرة، وهم يجدون طبيعياً ان تضاف هذه

[أ] تمهيد.

[1] حرفان غير مقروئين.

الصيانة المتواصلة، نظرا لملابسهم القليلة، على أعمال النساء والأمهات والزوجات. أما بالنسبة لأمه[أ] ، فلقد كانت ترى دوما أنه لا يكفي غسل الثياب وتنظيف بيوت الآخرين، وكان جاك، من أبعد ما يتذكر، يرى دائما أمه تكوي بنطاله الوحيد وبنطال أخيه، إلى أن رحل وابتعد إلى عالم نساء لا يغسلن ولا يكوين. قالت أمه: " إنه الإيطالي، الحلاق. يحسن عمله. قال جاك: " أجل". كان يوشك أن يقول: " أنت جميلة جدا " ولكنه توقف. كان يفكر دائما هكذا في أمه ولكنه لم يجرؤ قط أن يقوله لها. لا لأنه يخشى أن تصده أو يشك أن إطراء كهذا يسرها. ولكن كان هذا يعني خرق الحاجز اللا مرئي والذي رآها طوال حياتها تحتمي وراءه- عذبة، مهذبة، رصينة، وحتى سلبية، ومع ذلك لم يغلبها أحد أو يقهرها شيء، وقد انعزلت في شبه صممها، وصعوباتها اللغوية، كانت جميلة طبعاً ولكن يستحيل إلى حد كبير الوصول إليها بقدر ما كانت متبسمة وبقدر ما كان قلبه هو يندفع نحوها - أجل، طوال حياتها، احتفظت بهذا المظهر الوجل والمستكين ولكنه متحفظ، كان لها النظرة نفسها التي بها كان ترى منذ ثلاثين سنة خلت، دون أن تتدخل، أمها تضرب جاك بالسوط، هي التي لم تمس قط ولديها و لم تؤنبهما البتة، ومما لاشك فيه أن هذه الضربات كانت تمزق قلبها أيضاً ولكنها كانت تترك أمها تنصرف، وقد عاقها التعب عن التدخل كما عاقتها صعوبة التعبير، وكذلك الاحترام الواجب نحو أمها، وكانت تعاني طوال تلك الأيام والسنين وتتألم من الضربات التي يتعرض لها ولداها، كما قاست هي نفسها العمل المضني طوال اليوم، في خدمة الناس، وغسل البلاط وهي راكعة على ركبتيها، تحملت الحياة بلا رجل وبلا سلوى وسط فضلات الطعام الدهنية، وثياب الآخرين القذرة، أيام عناء طويلة يضاف كل منها إلى الأيام الأخرى ليصنع حياة خالية من أية ضغينة، حياة جهل وعناد، وبمجمل القول استسلام لكل العذابات، لآلامها هي وكذلك لآلام الآخرين لم يكن يسمعها قط تشكو اللهم إلا لتقول إنها تعبة أو إن كليتيها تؤلمانها بعد غسيل ملابس كثيرة. لم يسمعها قط تتكلم بالسوء عن أحد اللهم إلاَّ لتقول إن أختاً او عمة أو خالة لم تكن لطيفة معها، أو كانت " مزهوة ". ولكن، بالمقابل، نادراً ما سمعها تضحك من كل قلبها. إنها تضحك الآن أكثر منذ أن توقفت عن العمل ومنذ تكفل ولداها بكامل معيشتها. كان جاك ينظر إلى الغرفة، التي لم تتغير، هي أيضاً. لم ترد أن تنتقل من هذه الشقة التي اعتادتها، ولا من هذا الحي حيث كان كل شيء سهلاً بالنسبة إليها، إلى شقة أخرى أكثر وثراً ولكن يصبح فيها كل شيء صعباً. أجل، كانت الغرفة ذاتها. لقد تغير الأثاث الذي أصبح الآن أليق وأقل فقراً. ولكنه بقي عارياً، وقد التصق بالجدار. قالت أمه: " أنت تفتش دائماً". أجل، لم يتمالك عن فتح صوان كان يحوي دائماً الضروري جداً، بالرغم من كل توسلاتها، كان عري الصوان يفتنه، كما كان يفتح دروج صوان المائدة الذي يحوي دواءين أو ثلاثة تكفي في هذا

[أ] قوسب الحاجب العظمي واللامع حيث تبرق عين سوداء محمومة.

البيت، بالإضافة إلى جريدتين أو ثلاث من الجرائد القديمة، وكذلك أطراف خيوط، وعلبة صغيرة من الكرتون ملأى بالأزرار غير المتجانسة، وصورة هوية قديمة. هنا، حتى الكماليات كانت معدومة لأن الكماليات لم تكن تستعمل البتة. وكان جاك يعلم حق العلم أن أمه إذا سكنت في بيت عادي، حيث تكثر الأشياء كما في بيته، فإنها لن تستعمل إلا ماهو ضروري جدا. كان يعرف أن غرفة نوم أمه المجاورة، قد فرشت بخزانة صغيرة، وسرير ضيق، ومنضدة زينة من الخشب وكرسي من القش، مع نافذة وحيدة زينتها ستارة نسجت يدويا بالصنارة المعقوفة، لن يجد أبدا شيئا آخر اللهم، أحيانا، المنديل الصغير المبروم على شكل كرة الذي تفركه أمه على خشب منضدة الزينة العاري.

إن مااسترعى انتباهه على وجه التحديد، مااكتشف في البيوت الأخرى، سواء في بيوت رفاقه في المدرسة الثانوية أو فيما بعد في بيوت ناس ميسورين، كان هناك عدد من المزهريات والكؤوس، والتماثيل الصغيرة، واللوحات التي تغص بها الغرف. كان يقال في بيته "المزهرية التي على المدفأة "، فالإناء، والصحون المقعرة وبعض الأشياء التي قد توجد لم يكن لها اسم. وعلى خلاف ذلك، فعند خاله، كانت تعرض الأواني المصنوعة من خزف صلب محروق آتية من جبال الفوج، وكانوا يأكلون في صحون من مدينة كامبير. أما هو فلقد ترعرع وسط بؤس عار كعري الموت، وسط الأسماء النكرة؛ عند خاله، اكتشف أسماء العلم؛ واليوم كذلك، في الغرفة ذات البلاط المغسول حديثا، وعلى الأثاث البسيط واللامع، لم يكن ثمة شيء، إلا على صوان المائدة فلقد وضعت منضدة عربية من النحاس المضغوط استعدادا لمجيئه، وكان على الحائط تقويم مؤسسة البريد. لم يكن ثمة شيء يسترعي النظر هنا، والقليل جدا يمكن ان يقال، لذا كان يجهل كل شيء عن أمه، إلا ماكان يعرفه هو بنفسه وعن أبيه.

" والدي؟ " نظرت إليه وصارت منتبهة [أ] .

" أجل .

– كان يدعى هنري وماذا أيضا ؟

– لا أعرف.

– ألم يكن له أسماء أخرى ؟

– أظن ذلك، ولكني لا أذكر ".

[أ] الأب – الاستفهام – حرب ١٤ – الاعتـــداء.

وفجأة وقد بدت شاردة، راحت تنظر إلى الشارع حيث أخذت الشمس الآن تسقط بكل قوتها.

" هل كان يشبهني "

– أجل، إنه صورتك تماماً. كانت عيناه فاتحتي اللون، والجبين مثلك.

– في أية سنة ولد ؟

– لا أعرف. أنا كنت أكبره بأربع سنوات.

– وأنت، في أية سنة ؟

– لا أعرف. انظر دفتر العائلة ".

ذهب جاك إلى غرفة النوم، وفتح الخزانة. بين المناشف، على الرف العلوي، كان دفتر العائلة، ودفتر المعاش وبعض الأوراق القديمة التي كتبت باللغة الإسبانية. عاد ومعه المستندات.

" ولد عام ١٨٨٥ وأنت عام ١٨٨٢. كنت تكبرينه ثلاث سنوات.

– آه! كنت أظن أربعا. مضى زمن طويل.

– قلت لي إنه فقد أباه وأمه وهو صغير جدا فوضعه إخوته في دار الأيتام.

– أجل. وكذلك فعلت أخته.

– هل كان لوالديه مزرعة ؟

– نعم. كانا من أصل الزاسي.

– في " أولاد – فايت "

– أجل وكنا نحن في "شراقة " قريبا منهم.

– كم كان عمره حين فقد والديه ؟

– لا أدري. آه! كان صغيرا. تركته أخته. هذا ليس حسنا. لم يعد يرغب في رؤيتهم أبدا.

– كم كان عمر أخته ؟

– لا أعرف.

- وإخوته؟ هل كان أصغرهم ؟

- كلا. الثاني.

- ولكن، كان إخوته أصغر من أن يعتنوا به.

- نعم، هذا صحيح.

- إذن، لم يكونوا مخطئين.

- بلى، كان يلومهم. فبعد الميتم، في السادسة عشرة، عاد إلى مزرعة أخته. كانوا يرهقونه بالعمل. لم يستطع التحمل.

- أتى إلى "شراقة ".

- أجل. عندنا.

- هناك تعرفتِ عليه ؟

- نعم ".

أدارت رأسها ثانية نحو الشارع، وشعر أنه عاجز عن الاستمرار في هذا الطريق. ولكنها أخذت هي نفسها اتجاهاً آخر.

" لم يكن يعرف القراءة، أنت تعلم. ففي الميتم لم يكونوا يتعلمون شيئاً.

- ولكنك أطلعتني على بطاقات أرسلها لك من الحرب.

- نعم، لقد تعلم مع السيد كلاسيو.

- في مزرعة ريكوم.

- أجل. كان السيد كلاسيو الرئيس. فعلمه القراءة والكتابة.

- كم كان عمره ؟

- عشرين عاماً، على ما أظن. لا أدري. كل هذا قديماً. ولكن حين تزوجنا، كان قد تعلم صناعة الخمور، وكان يستطيع أن يعمل في كل مكان. كان ذكياً."

كانت تنظر إليه

" مثلك

- وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك؟ أتى أخوك. كان ابوك يعمل عند ريكوم، وريكوم أرسله إلى مزرعته في سان-لابوتـــر.

- سان - أبوتر؟

- أجل. ثم وقعت الحرب. قتل. ارسلوا لي شظية القذيفة.

إن شظية القذيفة التي فتحت رأس أبيه كانت في علبة بسكويت صغيرة خلف المناشف ذاتهـا للخزانة نفسها، مع البطاقات المكتوبة من الجبهة والتي كان يستطيع ان يتلوها عن ظهر قلـب في جفاف أسلوبها وإيجازها. " عزيزتي لوسي. إني بخير. نغير معسكرنا غداً. اعتنِ بالأولاد. أقبلـك، زوجك".

أجل، من اعماق الليلة نفسها حيث ولد خلال انتقالهم، مهاجراً، ابن مـهاجرين، كـانت أوروبا قد بدأت تضبط مدافعها التي ستنفجر كلها معاً بعد عدة أشهر، لتطرد أسرة كورمري مـن سان - أبوتـر. تطرده هو نحو قطعة جيشه في مدينة الجزائر، وهي نحو شقة أمـها الصغـيرة في ضاحية فقيرة، حاملة بين ذراعيها الطفل وقد تورم من لسع حشرات نهر السايبوز. " لاتنزعجي يا أمي، سنرحل حين يعود هنري". كانت الجدة منتصبة القامة، شعرها الأبيض مشدود إلى الـوراء، وعيناها فاتحتان وقاسيتان:

" يا ابنتي، عليك أن تعملي".

" كان قبل ذلك في الجيش الفرنسي الجزائري (الزوافيين).

- نعم، لقد حارب في المغرب".

كان هذا صحيحاً. لقد نسي ذلك. ففي عام ١٩٠٥ كان أبوه في العشرين من عمره. ولقد قام، كما يقال، بالخدمة الفعلية ضد المغاربة [1] . كان جاك يتذكر ما قاله له مدير مدرسته حـين التقاه منذ عدة سنوات في شوارع مدينة الجزائر. لقد دعي السيد لدفيك للخدمة في الوقت نفسـه الذي دعي فيه أبوه. ولكنه لم يبقَ إلا شهراً في الوحدة ذاتها. لم يعرف كورمري معرفة جيدة كما يقول، لأن كورمري كان قليل الكلام. كان يتحمل التعب، صامتا، ولكنه كان دمث الأخـلاق وعادلاً.

---

(١) - ١٤.

بدا كورمري خارجاً عن طوره، مرة واحدة فقط. حدث ذلك ليلاً، بعد يوم محرق، في تلك الزاوية من جبال الأطلس حيث كانت مفرزته تعسكر على قمة هضبة صغيرة يحميها مضيق صخري. كان على كورمري ولدفيك أن يبدلا الحرس في اسفل المضيق. لم يجب أحد على ندائهما. وفي اسفل سياج من أشجار الصبار، وجدا رفيهما وقد سقط رأسه إلى الوراء، ملتفتاً نحو القمر بشكل غريب. لم يتعرفا في البدء على رأسه ذي الشكل المريب. إلا أن الأمر اتضح. كان قد ذبح. والكتلة المنتفخة الدافئة التي وضعت في فمه كانت عضوه التناسلي بأكمله. حينئذ رأوا الجسم وقد تباعدت ساقاه، وشق بنطال الجندي، ووسط الشق، في انعكاس ضوء القمر هذه المرة، رأوا بركة مستنقع [أ]. وعلى بعد مئة متر، خلف صخرة ضخمة هذه المرة، ظهر الحارس الثاني بالطريقة نفسها. أطلقت إشارة الإنذار، وشددت المراقبة. وفي الفجر، حين صعدوا إلى المعسكر، قال كورمري: إن الآخرين لم يكونوا رجالاً. أما لدفيك، الذي كان يفكر، فلقد أجاب: بالنسبة إليهم، وجب على الرجال أن يتصرفوا على هذا النحو، وأننا في بلدهم، وأنهم يلجؤون إلى كل الوسائل. اتخذ كورمري هيئته العنيدة. " ربما. ولكنهم مخطئون. لا يرتكب الرجل فعلاً كهذا". قال لدفيك إنه لامانع لديه، في بعض الظروف، أن يسمح الرجل لنفسه بكل التصرفات وأن [يهدم كل شيء]. ولكن كورمري صرخ كأن مساً من الجنون العنيف قد أصابه:" كلا، إن الرجل يمتنع عن اقتراف أعمال كهذه. هذا هو الرجل، وإلاّ..." ثم هدأ. " قال بصوت مكتوم: أنا فقير، تربيت في الميتم، ألبسوني هذه الملابس، وساقوني إلى الحرب، ولكن أمتنع عن اعمال كهذه.- [قال] لدفيك: ثمة فرنسيون لا يمتنعون، - إذن، هم كذلك ليسوا رجالاً ".

وفجأة صرخ: جنس قذر! يا لهذا الجنس! الجميع! الجميع ..." ودخل إلى خيمته، باهت اللون شاحباً.

حين كان جاك يفكر، فإنه كان يدرك أنه قد عرف من المعلم العجوز، الذي لم يعد يراه الآن، أشياء كثيرة عن أبيه. لم يزد شيء عما استشفه من صمت امه إلا في بعض التفاصيل. كان أبوه رجلاً قاسياً، حزيناً، عمل طوال حياته، قتل كما طلب منه، وقبل كل مالا يمكن تجنبه، ولكن كان ثمة جزء من نفسه يابى أن يُمس. وبمجمل القول: كان رجلاً بائساً. ذلك أن البؤس لايختار [ذاته]، ولكنه يستطيع أن يتجنب أشياء كثيرة. وكان جاك يحاول أن يتخيل، بالقليل الذي عرفه من أمه، الرجل نفسه، بعد تسع سنوات، متزوجاً، ووالد طفلين، وقد حصل على وضع أفضل بقليل من وضعه السابق ثم دعي إلى مدينة الجزائر للتعبئة العامة(١) ، السفر الطويل ليلاً مع

[أ] قال الرقيب ان تموت كالكلب به او بدونه.

[١] صحف ١٨١٤ في مدينة الجزائر [هكذا ذكر حرفياً] .

زوجة صبورة وطفلين لا يحتملان، الفراق في المحطة ثم، بعد ثلاثة ايـام، في الشـقة الصغـيرة في بلكـور، وصوله المفاجئ ببزته الجميلة الحمراء والزرقاء وسرواله المنتفخ لجيش الزواويـين [٢]، ينضح عرقاً تحت ملابسه الصوفية السميكة، في قيظ تموز* وقد أمسك بيده قبعته القشيّة، لأنـه لم يكن هناك شاشية ولا خوذة، بعد أن غادر خلسة المستودع تحت قباب أرصفة الشاطئ، وركـض ليأتي ويقبل ولديه وامرأته قبل إبحار المساء، نحو فرنسا التي لم يكن قد رآها من قبل قط [٤]، على البحر الذي لم يحمله حتى الآن، ولقد قبلهم بقوة، وبسرعة، ورحل ثانية، بالخطوة نفسها، والمـرأة الواقفة على الشرفة الصغيرة لوحت إليه بإشارة أجابها عليها وهو يركض، ويلتفت ليلوح بقبعتـه القشية، قبل أن يعود إلى الركض في الشارع الرمادي من الغبار والقيظ وليختفي أمام السينما بعـد ذلك، في نور الصباح الساطع كي لايرجع أبداً. أما البقية، فلقد كان عليه أن يتخيلها. ليس مـن خلال ماكانت أمه تستطيع أن تقوله له، والتي لم يكن لديها أية فكرة عـن التـاريخ ولا عـن الجغرافيا، والتي كانت تعرف فقط أنها تعيش على أرض قرب البحر، وأن فرنسا كانت في الطرف الآخر لهذا البحر الذي لم تقطعه قط، هي الأخرى، وعلى كل حال كانت فرنسا مكاناً مجـهولاً ضائعاً في ليل غامض. كان بلوغها يتم عن طريق مرفأ يدعى مرسيليا وكانت تتصوره كمرفأ مدينة الجزائر، حيث تتلألأ مدينة يقال إنها جميلة جداً وتدعى باريس، وهناك توجد أخيراً منطقة تدعـى الألزاس قدم منها أهل زوجها الذين هربوا، منذ زمن طويل، أمام أعداء يدعون الألمان، ليقيمـوا في الجزائر، فالألزاس منطقة يجب استرجاعها من الأعداء ذاتهم، الذين كانوا دائماً أشراراً طغاة، خاصة مع الفرنسيين، وبلا أي سبب. كان على الفرنسيين دائماً أن يدافعوا عن أنفسهم من هؤلاء الرجال الشرسين القساة. أما بالنسبة لاسبانيا، فلقد كان يصعب عليها تحديد موقعها ولكن، على كـل حال، لم تكن بعيدة، وكان أهلها، من منطقة ماهون، قد رحلوا عنها وأتوا إلى الجزائر، منذ زمـن بعيد، شأنهم شأن أهل زوجها، لأنهم كانوا يتضورون جوعاً في ماهون، ولم تكن تعرف أن ماهون جزيرة، ذلك أنها لاتعرف ما هي الجزيرة بما انها لم ترَ قط جزيرة. أما بالنسبة للبـلاد الأخـرى، فكانت بعض الأسماء تثير اهتمامها احياناً دون أن تتمكن من أن تلفظها دائماً بشكل صحيح. وفي كل الأحوال لم تسمع أحداً يتكلم أبداً عن النمسا -هنغاريا ولا عن صربيا، وكانت روسيا شـأنها شان انكلترا اسماً صعباً، كانت تجهل معنى أرشيدوق، ولم يكن باستطاعتها مطلقاً ان تلفظ المقاطع الأربعة لسارايفو. كانت الحرب هناك، كغيمة شنيعة، تحمل تهديدات غامضة، ولكـن لا يمكـن منعها من اجتياح السماء، كما لا يمكن منع الجراد من المجيء ولا الأعاصير المدمرة التي تهوي علـى

---

[٢] زواوي: جندي مشاة فرنسي كان يخدم في الجزائر (المترجمة).

* آب.

[٤] لم يكن قد رأى قط فرنسا. سيراها ويقتل.

الهضاب الجزائرية. كان الألمان يجبرون فرنسا على الحرب، ومرة أخرى، سيعاني الناس ما يعانون – لم يكن ثمة أسباب لذلك، لم تكن تعرف تاريخ فرنسا، ولا حتى ما هو التاريخ. كانت تعرف قليلاً تاريخها هي، وتكاد لاتعرف إلا القليل جداً عن تاريخ الذين تحبهم، وكان على الذين تحبــــهم أن يتألموا مثلها. في ظلام العالم الذي لم تكن تستطيع أن تتخيله وفي غياهب التاريخ الـــذي كـــانت تجهله، كان ليل شديد الظلمة قد بدأ يحل، وأوامر غامضة قد وصلت، يحملها إلى وسط الريــــف شرطي منهك يتصبب عرقاً، فكان عليهم أن يغادروا المزرعة حين كانوا يعدون قطاف العنــــب– كان الخوري في محطة بون حين رحيل المجندين. قد قال لها: "عليك أن تصلي"، وأجابت: " نعـم، ياسيدي الخوري " ولكن في الحقيقة لم تسمعه، لأنه لم يكلمها بصوت عال، على كل حـــال إن فكرة الصلاة قد لا تخطر على بالها، لأنها لم ترغب قط أن تزعج أحداً–، ولقد رحل الآن زوجـها ببزته العسكرية الجميلة المتعددة الألوان، وسيعود قريباً، هذا ما كان يردده الجميـــع، فسـيعاقب الألمان، ولكن بانتظار ذلك يجب البحث عن عمل. ولحسن الحظ، فلقد كان احد الجيران قد قـال للجدة إنهم بحاجة إلى نساء في مصنع ذخيرة الأسلحة العسكرية، وقد تعطى الأفضلية لزوجـــات الجنود، ولا سيما إذا كن معيلات لأسرة، وستسعد بالعمل خلال عشر ساعات بترتيب أنـــابيب صغيرة من الورق المقوى وفق حجمها ولونها، وتستطيع أن تأتي بالمال إلى الجدة، وسيأكل الأطفال إلى أن يعاقب الألمان ويعود هنري. لم تكن تعرف، طبعاً، أن هناك جبهة روسية، ومـــاذا تعـني الجبهة، كما يمكن للحرب أن تمتد إلى دول البلقان، وإلى الشرق الأوسط، وإلى الأرض بأســـرها، كانت كل الأحداث تجري في فرنسا، حيث دخل الألمان دون استئذان واعتدوا على الأطفـــال. كان يحدث كل شيء هناك فعلاً حيث الجيوش القادمة من أفريقية، ومن بينـــها جيـــش هـــنري كورمري، قد نقلت بسرعة فائقة، كما هي، إلى منطقة غريبة كانوا يتكلمون عنـــها، وتدعـــى لامارن، ولم يكن للقادة الوقت ليجدوا لهذه الجيوش الخوذات، كما لم تكن الشمس بقوة شمـــس الجزائر في قتل الأوان وكانت النتيجة ان موجات الجزائريين العرب والفرنسيين، وقد لبسوا ألوانـــا زاهية متأنقة وعلى رؤوسهم قبعات من القش، كانوا اهدافاً حمراء وزرقاء ترى على بعد مئـــات الأمتار. كانت هذه الموجات تصعد كتلاً نحو النار، وتدمر كتلاً، وتبدأ بتسميد قطعة ارض ضيقـة سيقيم عليها خلال اربع سنوات رجال أتوا من أرجاء العالم، رابضين في مخـــابئ مـــن الطـــين، ليتشابكوا ويحاربوا متراً تلو متر تحت سماء محفوفة بقذائف مضيئة، بقذائف تئز في حـــين كـــانت الحواجز الضخمة تقصف كالرعد لتعلن عن غارات[1] غير مجدية. ولكن في ذاك الوقت، لم يكـــن هناك مخابئ، كانت جيوش أفريقية وحدها تذوب تحت النار كأنها دمى متعددة الألوان مصنوعـــة من الشمع، وكان يولد كل يوم مئات اليتامى في كل أنحاء الجزائر، صبيان وبنات بلا أب، عليـهم

---

[1] للتوســـع.

أن يتعلموا فيما بعد أن يعيشوا بلا درس ولا ارث. وبعد عدة أسابيع وذات صباح من يوم أحد، على قرص الدرج الداخلي للطابق الوحيد، بين السلم والمرحاضين المعتمين، اللذين كانا عبارة عن فتحتين سوداوين أعدتا على الطريقة التركية في البناء، ينظفان باستمرار بسائل الكريزيل المطهر ومع ذلك تنبعث دائماً منهما روائح نتنة كريهة. كانت لوسي كورمري وأمها جالستين على كرسيين منخفضين تنقيان العدس تحت نور واجهة الباب، فوق السلم، وكان الطفل، وقد وضع في سلة صغيرة للغسيل، يمص جزرة ملأى من لعابه، حين برز من الدرج سيد وقور حسن الهندام، وبيده ظرف. وضعت المرأتان، وقد فوجئتا، الصحون التي كانت تنقيان فيهما العدس الذي تأخذانه من مرجل وضع بينهما، ونشفتا أيديهما، حين رجاهما السيد ألا تتحركا، وقد توقف على الدرجة قبل الأخيرة، وطلب السيدة كورمري" قالت الجدة، هاهي، وإني أمها" وقال السيد إنه العمدة، وإنه يحمل نبأ مؤلماً، وإن زوجها قد استشهد في ميدان الشرف وإن فرنسا تبكيه وتفتخر به في الوقت نفسه. لم تكن لوسي كورمري قد سمعته، ولكنها وقفت ومدت له يدها بكثير من الاحترام، كما انتصبت الجدة، وقد وضعت يدها على فمها، ولفظت " يا إلهي" بالإسبانية. أبقى السيد يد لوسي في يده، ثم ضم يدها ثانية بين يديه وتمتم كلمات التعزية، ثم اعطاها الظرف، واستدار ونزل السلم بخطى متثاقلة. سألت لوسي " ماذا قال؟ - مات هنري. لقد قتل" كانت لوسي تنظر إلى الظرف دون أن تفتحه، ذلك أنها وأمها لم تكونا تعرفان القراءة، كانت تقلبه، بلا كلمة ولا دمعة، عاجزة عن تخيل هذه الميتة البعيدة جداً، في أعماق الليل المجهول. ثم وضعت الظرف في جيب إزارها الذي تلبسه للطبخ، ومرت بالقرب من الطفل دون أن تنظر إليه وذهبت إلى الغرفة التي يشاركها فيها طفلاها، وأغلقت الباب والشبابيك الخارجية للنافذة المطلة على الباحة واستلقت على السرير حيث بقيت صامتة بلا دموع خلال ساعات طويلة تضم في جيبها الظرف الذي لا تستطيع قراءته، وتنظر في الظلام إلى المصيبة التي لم تكن تفهمها[أ].

قال جاك " يا أمي "

كانت لا تزال تنظر إلى الشارع، بالمظهر نفسه، ولم تكن تسمعه. لمس كتفها النحيلة والمتجعدة، استدارت نحوه وهي تبتسم.

" بطاقات والدي، التي من المستشفى.

– نعم.

– استلمتها بعد زيارة العمدة ؟

[أ] اعتقدت أن شظايا القذيفة مستقلة بذاتها.

- أجل ".

كانت شظية قذيفة قد شقت رأسه فنقل في إحدى القطارات التابعة لقسم الصحة المثيرة للاشمئزاز من الدماء، والقش والضمادات التي كانت تقوم برحلات مكوكية بين المجزرة والمستشفيات التي أخليت في سان بربوك لهذا الغرض. هناك، استطاع أن يخربش بطاقتين على ما يُظن، لأنه لم يعد يرى. " إني جريح. لاشيء خطير. زوجك". ثم مات بعد عدة أيام. كتبت الممرضة: " هذا أفضل. فلو عاش لبقي أعمى أو مجنوناً. كان شجاعاً جداً ". ثم شظية القذيفة.

كانت دورية من ثلاثة مظليين مسلحين تمر من تحت في الشارع، الواحد، تلو الآخر، وهم ينظرون إلى كل الجهات. كان واحد منهم زنجياً، طويل القامة رشيقاً، مثل حيوان رائع في جلده المرقط.

قالت:" هذا لقطاع الطرق والسارقين. ثم إني مسرورة لذهابك إلى قبره. إن سني المتقدمة لاتسمح لي، كما ان قبره بعيد. هل هو جميل؟

- ماذا ؟ القبر ؟

- نعم.

- إنه جميل. وعليه ازهار.

- أجل إن الفرنسيين شجعان جداً ".

كانت تقول ذلك وتؤمن به، ولكن لم تعد تفكر في زوجها، وقد نسيته الآن، ونسيت معه تعاسة الماضي. لم يبقَ شيء في نفسها ولا في المترل، من هذا الرجل الذي افترسته نار شاملة و لم يبقَ منه إلا ذكرى غير ملموسة كرماد جناح فراشة احترقت في حريق غابة.

" سيحترق الطاجن، انتظر ".

نهضت[١] لتذهب إلى المطبخ فأخذ مكانها، ناظراً بدوره إلى الشارع الذي لم يتغير منذ سنوات كثيرة، بمخازنه نفسها ذات الألوان الباهتة والمثلمة من الشمس. كان بائع التبغ وحده في الجهة المقابلة قد استبدل بسيور طويلة بلاستيكية متعددة الألوان ستارته المؤلفة من قطع قصب صغيرة جوفاء كان جاك لا يزال يسمع صوتها الخاص، حين كان يقطعها لينفذ إلى رائحة المطبوعات اللذيذة والتبغ الطيب ويشتري بحلة (المقدام) حيث كان يتحمس لحكايات الشرف

---

[١] تغيير في الشقة.

والشجاعة. بدأ الشارع الآن ينبض حيوية كما هو مألوف صباح الأحد. كان العمال، بقمصانهم البيضاء المغسولة حديثا والمكوية يتوجهون وهم يثرثرون نحو ثلاثة من المقاهي أو أربعة تزخر بالظل البارد وباليانسون. كان رجال عرب يمرون، فقراء هم أيضاً ولكنهم يلبسون ملابس نظيفة، مع نساء متحجبات كلهن ولكنهن ينتعلن أحذية عالية من طراز لويس الخامس عشر. وكانت تمر أحياناً أسر عربية بكامل أفرادها وقد لبست ثياب الأحد المتأنقة. كانت إحدى الأسر تجر ثلاثة أطفال تنكر احدهم بملابس مظلي. وحدث ان مرت ثانية فرقة المظليين، مسترخين لا مبالين على ما يبدو. وفي اللحظة التي دخلت فيها لوسي كورمري الغرفة دوى انفجار.

كان يبدو هذا الانفجار قريباً جداً، وضخماً، وتمتد اهتزازاته أمداً لاينتهي. كان يبدو أنه لم يعد يسمع منذ وقت طويل ولكن مصباح غرفة الطعام استمر في الاهتزاز في قعر قوقعة زجاجية كانت تستخدم كثريا. تراجعت امه إلى أعماق الغرفة، وقد شحبت، وامتلأت عيناها السوداوان بفزع لم تستطع السيطرة عليه، وقد ترنحت قليلاً. قالت: إنه هنا، إنه هنا. - كلا، أجاب جاك وركض إلى النافذة. كان ثمة أناس يركضون، لايعرف إلى أين، دخلت أسرة عربية إلى دكان بائع الخردوات المقابلة، وهي تحث الأطفال على الدخول، واستقبلهم البائع، ثم أغلق الباب وهو يسحب قفل الباب وبقي مسمراً وراء الزجاج يراقب الشارع، في هذه الأثناء عادت فرقة المظليين، وهي تركض لاهثة في الاتجاه المعاكس. اصطفت السيارات بسرعة على طول الرصيف وتوقفت وخلال ثوان، كان الشارع خالياً. أما جاك، فلقد كان يستطيع أن يرى، عن بعد، وقد انحنى، جمعاً محتشداً بين السينما موسيه وموقف الترام. قال: " سأذهب لأرى".

كان في زاوية شارع بريفو - بارادول[أ] [1] جماعة من الناس تزعق. قال عامل صغير يلبس قميصاً داخلياً فقط باتجاه عربي قد التصق على رتاج باب المقهى: " هذا الجنس القذر". واتجه نحوه. قال العربي: " لم افعل شيئاً " . - أنتم كلكم متواطئون، زمرة سفلة". وهجم عليه. منعه الآخرون. قال جاك للعربي: " تعال معي". ودخل معه إلى المقهى الذي يديره الآن جان، ابن الحلاق، صديق طفولته. كان جان هنا، نفسه، ولكنه متجعد، قصير ونحيل، وجه ماكر ويقظ. قال جاك: " لم يفعل شيئاً. خبئه عندك. نظر جان، وهو يمسح المشرب، إلى العربي وقال: " تعال". واختفيا داخل المقهى.

[أ] - هل رآه قبل أن يأتي لزيارة أمه ؟

- إعادة كتابة الاعتداء على تسوس في الجزء الثالث وفي هذه الحالة الإشارة البسيطة هنا إلى الاعتداء.

- فيما يلي.

[1] كل هذا المقطع حتى " الآلام " محاط بدائرة مع إشارة استفهام.

حين خرج جاك كان العامل ينظر إليه شزراً. قال له جاك: " إنه لم يفعل شيئاً ". – يجب قتلهم جميعاً. – هذا ما يقوله المرء في ساعة الغضب. فكر". رفع الآخر كتفيه: " اذهب إلى هناك وستتكلم حين ترى عصيدة اللحم". كانت صفارات سيارات الإسعاف ترتفع، سريعة، ملحة. ركض جاك حتى موقف الترام. كانت القنبلة قد انفجرت في العمود الكهربائي الواقع قرب الموقف. وكان هناك أشخاص كثيرون ينتظرون الترام، وكلهم بملابس متأنقة. كان المقهى الصغير هناك مليئاً بالصراخ ولا أحد يعلم إن كان هذا الصراخ من الغضب[1] والألم.

رجع إلى أمه. كانت منتصبة الآن وشاحبة تماماً. " اجلسي" وصحبها نحو الكرسي الذي قرب الطاولة. جلس بالقرب منها، وهو يمسك يديها. قالت: "مرتين هذا الأسبوع. أخاف أن أخرج. – قال جاك: – لاشيء، سيتوقف ذلك. قالت: أجل". كانت تنظر إليه نظرة فضول وريبة، كما لو كانت مترددة بين الإيمان بذكاء ابنها ويقينها أن الحياة بأكملها مكونة من التعاسة التي لا يمكن تجنبها وكل ما يمكن هو تحملها. قالت: " أنت تفهم، إني عجوز. لم أعد أستطيع الركض". عادت الدماء الآن إلى وجنتيها. كان يسمع، عن بعد، صفارات سيارات الإسعاف، الملحة، السريعة. ولكنها لم تكن تسمعها. كانت تتنفس بعمق، ثم هدأت قليلاً وابتسمت لابنها بابتسامتها الجميلة الشجاعة. لقد نشأت، ككل افراد جنسها، وسط الخطر، وكان الخطر يستطيع أن يقبض صدرها، فتحملته كما تحملت بقية الأمور. كان هو الذي لا يستطيع أن يتحمل هذا الوجه الجاف لمحتضرة اتخذته فجأة. قال لها: " تعالي معي إلى فرنسا" ولكنها هزت رأسها بحزن حازم قائلة : " آه! كلا، هناك الطقس بارد. الآن أصبحت مسنة جداً. أريد أن أبقى في بيتنا ".

[1] هكذا ذكر حرفياً.

٦- الأسرة

" قالت له أمه: آه! إني مسرورة حين تكون هنا[أ] . ولكن تعال مساءً، فيقل ضجري. ففي المساء خاصة، في الشتاء يحل الليل باكراً. لو كنت على الأقل أعرف القراءة. كذلك لا أستطيع الشغل بالصنارة على الضوء، عيناي تؤلمانني. لذا حين يكون آتيين غائبا، استلقي وانتظر ساعة الطعام. الوقت طويل، ساعتان هكذا. لو كانت صغيراتي معي لتكلمت معهن. ولكنهن يأتين ويذهبن لقد بلغت من العمر عتياً. ربما رائحتي كريهة. إذن، هكذا، ووحدي...".

كانت تتكلم دفعة واحدة، بجمل قصيرة بسيطة تتتابع كما لو كانت تفرغ من فكرها وقد بقيت حتى الآن صامتة. ثم، تنضب الفكرة، فتصمت من جديد، وقد شدت فمها، ونظرت، بعينها العذبة الكئيبة، من خلال شبابيك غرفة الطعام المغلقة، إلى الضوء الخانق الذي كان يصعد من الشارع، وقد بقيت دائماً في مكانها على الكرسي نفسه غير المريح، وابنها يدور كما كان يفعل في الماضي حول الطاولة التي في وسط الغرفة[ب] .

نظرت إليه من جديد، وهو يدور حول الطاولة[ج] .

" إنها جميلة، سولفرينو.

- أجل، إنها نظيفة. ولكنها قد تغيرت منذ آخر مرة غبت عنها.

- نعم، إنها تتغير.

- إن الطبيب يبعث لك تحياته. هل تتذكرينه؟

- كلا، هذا قديم.

[أ] لم تستعمل قط جملاً مصدرية.

[ب] العلاقات مع الأخ هنري: المشاجرات.

[ج] ماكانوا يأكلون: طاجن المعلاق- طاجن سمك الموره، الحمص الخ.

- لا أحد يتذكر أبي.

- لم نبقَ هناك زمناً طويلاً. ثم، لم يكن يتكلم كثيراً.

- أمي ؟ "

كانت تتطلع إليه بنظرتها الشاردة العذبة دون ان تبتسم.

" كنت أظن انك وأبي لم تعيشا قط معاً في مدينة الجزائر.

- كلا، كلا

- هل فهمتني؟

- لم تفهم، ولقد قدر ذلك من مظهرها الواجل قليلاً كما لو كانت تعتذر، فردد سؤاله وهو يلفظه بشدة :

" ألم تسكنا البتـــة معاً في مدينة الجزائر ؟

- قالت : كلا.

- ولكن، حين ذهب أبي ليرى قطع رقبة بيريت ".

وهنا ضرب على رقبته بحد يده كي تفهمه. ولكنها أجابت فوراً:

" أجل، لقد نهض الساعة الثالثة ليذهب إلى بربروس.

- إذن، كنتم في مدينة الجزائر؟

- نعم.

- ولكن متى كان ذلك؟

- لا أدري. كان يعمل عند ريكوم.

- قبل أن تذهبوا إلى سولفرينو؟

- نعم .

كانت تقول نعم، وربما كان هذا يعني لا، كان يجب الارتقاء في الزمن عبر ذاكرة غارقــة في الظلام، ليس هناك ما هو أكيد. ذلك أن ذاكرة الفقراء أقل تغذية من ذاكرة الأغنياء، تقل ركائزها

في المكان لأنهم نادراً ما يغادرونه حيث يعيشون. كما أن الدلائل تقل كذلك في زمان حياة رتيبة قائمة. بالطبع هناك ذاكرة القلب التي يقال عنها إنها اكثر ثباتاً، ولكن القلب يستهلك من الألم والعمل، فينسى بسرعة أكبر تحت وطأة المشقات. فالزمن الضائع لا يسترجع إلا عند الأغنياء. أما بالنسبة إلى الفقراء، فهو يكتفي بالإشارة إلى آثار غامضة لطريق الموت. ثم، كي يستطيع الإنسان التحمل جيداً، عليه ألا يتذكر كثيراً، يجب البقاء بالقرب من الوقت الحاضر، ساعة تلو الساعة، كما كانت تفعل أمه، لاشك أنها كانت مرغمة على ذلك، لأن هذا المرض في صباها (وفعلاً، حسب ما تقول الجدة، كان هذا المرض الحمى التيفية. ولكن هذه الحمى لا تترك آثاراً كالصمم. ربما حمى صفراء تعرف بالتيفوس. أو ماذا؟ هنا، أيضاً، كان الغموض)، لأن هذا المرض في صباها قد تركها صماء مع صعوبة في الكلام، كما عاقها عن تعلم ما يدرس لأكثر المحرومين، وأرغمها بذلك على الاستسلام الصامت، ولكن هذا كان الطريقة الوحيدة التي رأتها ممكنة لمواجهة حياتها، وماذا كان باستطاعتها أن تفعل غير ذلك، ومن في مكانها يستطيع أن يجد شيئاً آخر؟ كان يود أن تتقد حماساً لتصف له رجلاً مات منذ أربعين سنة وقد شاركته حياته (هل شاركته فعلاً الحيلة ؟) خلال خمس سنوات. لم تكن تستطيع القيام بذلك. و لم يكن واثقاً من أنها قد أحبت هذا الرجل بوله، وعلى كل حال لم يكن بامكانه أن يسألها عن ذلك، لأنه هو أيضاً كان أمامها أخرس وعاجزاً على طريقته، ذلك أنه لم يكن يرغب حقاً أن يعرف ماذا كان بينهما، كان عليه أن يعدل عن معرفة شيء ما منها. حتى هذا الخبر البسيط الذي، حين كان طفلاً، قد أثر فيه، ولاحقه طوال حياته وحتى في أحلامه، وهو أن أباه قد نهض الساعة الثالثة صباحاً ليذهب ويحضر تنفيذ حكم الإعدام بمجرم شهير، أجل لقد عرف هذا التفصيل من جدته. كان بيريت عاملاً في مزرعة من منطقة الساحل، القريبة من مدينة الجزائر. كان قد قتل بضربات مطرقة معلميه وأطفال البيت الثلاثة. سأل جاك وهو طفل " ليسرق؟ " أجاب الخال أتيين "نعم". قالت الجدة " كلا"، ولكن دون أن تعطي تفسيرات أخرى. لقد وجدت الجثث مشوهة، والبيت ملطخاً بالدماء حتى السقف، وتحت أحد الأسرّة، كان أصغر الأطفال مازال يتنفس، ومات بعد ذلك، إلا أن الطفل قد وجد القوة أن يكتب على الحائط المطلي بالكلس الأبيض باصبعه الملطخة بالدم، " إنه بيريت". لاحقوا القاتل ووجدوه في الريف مخبولاً. أما الرأي العام وقد ارتاع هولاً، فلقد طالب بعقوبة الإعدام ولبى طلبه بلا مساومة ولا نقاش، وتم تنفيذ الحكم في مدينة الجزائر أمام سجن بربروس، بحضور جمهور غفير. نهض والد جاك ليلاً وذهب ليحضر العقاب الرادع لجريمة قد أثارت غضبه، كما روت الجدة.ولكن لا أحد قد عرف بالضبط ماذا حدث. لقد نفذ الإعدام بلا أي طارق، على ما يظهر. إلا ان أبا جاك قد عاد شاحب الوجه، فاستلقى، ثم نهض ليقيء مرات كثيرة، ثم استلقى ثانية. و لم يشأ أبداً ان يتكلم فيما بعد عما رأى. كان جاك وقد سمع هذه القصة، مساء مستلقياً على حافة السرير كي يتجنب أن يلامس أخاه الذي ينام معه، وقد انطوى على ذاته، كان يبلع غثياناً من

الهلع، وهو يسترجع التفاصيل التي رويت له، وما كان يتخيله. ولقد لاحقته هذه الصور، طوال حياته، حتى في لياليه إذ كانت تعود من وقت لآخر، بانتظام على شكل كابوس مفضل. متغير في أشكاله، ولكن الموضوع واحد: كانوا يأتون لإحضاره، هو، جاك، لإعدامه. ولقد كان يبقى طويلاً، حين يستيقظ مضطرباً خوفاً وقلقاً، إلى أن يسترجع بارتياح الواقع الجميل حيث لم يكن له حصراً أية فرصة ليعدم. إلى أن بلغ سن الرجولة، وأصبحت القصة عديمة الأهمية حتى إن أي إعدام، على العكس، يعد من الأحداث الممكن وقوعها والمحتملة، و لم يعد الواقع يعزي عن الأحلام، هذا الواقع الذي غزي طوال سنوات [محدودة] جداً بالقلق نفسه الذي هزَّ كيان أبيه والذي أورثه إياه كإرث وحيد حتمي وأكيد. إلا أن صلة غامضة كانت تربطه بالميت المجهول في سان- بريوك (لم يكن هذا الميت قد فكر، على كل حال، انه من الممكن ان يموت ميتة عنيفة كهذه)، هذه الصلة تتجاوز أمه التي عرفت القصة، بسبب التقيؤ ونسيتها ذاك الصباح، كما كانت تجهل أن الأزمنة قد تغيرت. كان الزمن، بالنسبة إليها، دائماً نفسه حين يمكن للمصيبة في كل لحظة أن تظهر دون إنذار.

أما بالنسبة إلى الجدة [أ] فعلى العكس، كان لديها فكرة أكثر صواباً عن الأشياء. وغالباً ماكانت تكرر على جاك " ستنتهي في المشنقة ". لمَ لا، لم يعد الإعدام حدثاً استثنائياً. لم تكن تعرف ذلك، ولكن، كما كانت، لم يكن يدهشها شيء. كانت منتصبة، بثوبها الأسود الطويل كثوب النبية، جاهلة وعنيدة، و لم تكن تعرف قط، هي على الأقل، الاستسلام والخضوع. ولقد سيطرت، أكثر من أي إنسان آخر، على طفولة جاك. رباها أهلها القادمون من ماهون، في مزرعة صغيرة في منطقة الساحل، وتزوجت وهي صغيرة مواطنا من ماهون، نحيلا وضعيفا، كان إخوته قد سكنوا الجزائر منذ عام ١٨٤٨ بعد الموت المأسوي للجد من جهة الأب، هذا الجد كان شاعرا حين يحلو له ذلك. وكان يؤلف أبياته وهو جاثم على أتان وسائر في الجزيرة بين الأسوار الصغيرة من حجر بلا طين تحيط ببساتين الخضر. وحدث أنه خلال إحدى نزهاته، قد صوب إليه زوج مخدوع رصاصة معتقدا أنه يعاقب عشيق زوجته، ولقد خدع بهامته وقبعته السوداء ذات الأطراف الواسعة، وهكذا قتل، رميا بالرصاص من الظهر، الشعر ونموذجا من الخصال العائلية، إلا انه لم يترك شيئا لأولاده. وكان الأثر البعيد لسوء التفاهم المأسوي هذا حيث لقي شاعر حتفه، أن أقام على ساحل الجزائر فريق من أولاد عائلته، أميون يتناسلون بعيدا عن المدارس، وقد ألزموا بعمل منهك تحت شمس ضارية.

أما زوج الجدة، إذا ما استندنا إلى الصور الفوتوغرافية، فلقد احتفظ بشيء ما من الجد

[أ] انتقـال.

الملهم، وكان وجهه النحيل، وقد رسمت تقاطيعه بشكل جميل، وبدت نظرة حالمة، يعلوه جبين عريض، كل ذلك كان بالبداهة لايخوله أن يعاند زوجته الشابة الجميلة والحازمة. أعطته تسعة أطفال، مات اثنان منهم وهما صغيران جداً، ولم تنقذ طفلة منهم من الموت إلاّ لتصبح عاجزة، وكان الطفل الأخير قد ولد أصم وأبكم تقريباً. كانت الجدة في المزرعة الصغيرة المعتمة، دون أن تتوقف عن المشاركة في العمل القاسي الجماعي، تربي صغارها، وقد وضعت عصا طويلة بالقرب منها وهي جالسة في طرف الطاولة، مما يجنبها كل ملاحظة لاطائل منها، كان المذنب يُضرب فوراً على رأسه. كانت تسيطر، وهي توجب الاحترام لها ولزوجها، وكان على الأولاد أن يخاطبوها بصيغة الجمع، وفق العرف الإسباني. ولم يتمتع زوجها طويلا بهذا الاحترام؛ فلقد مات قبل الأوان، وقد أضنته الشمس والعمل، وربما الزواج، دون أن يستطيع جاك أن يعرف أبدا من أية علة مات. صفت الجدة، وقد بقيت وحيدة، المزرعة الصغيرة وأتت مع أطفالها الصغار لتقيم في مدينة الجزائر، بينما كان بقية الأولاد قد بدؤوا يشتغلون منذ بلغوا سن تعلم الحرف.

حين كبر جاك، وأصبح قادرا أن يلاحظ جدته، أدرك أن الفقر وكذلك المحنة لم يستطيعا ان يؤثرا عليها. لم يبق معها إلا ثلاثة من أولادها. كاترين[1] كورمري، التي كانت تشتغل في البيوت، الابن الأصغر، المعاق، وقد أصبح صانع براميل قويا، وجوزيف، الابن البكر، الذي لم يتزوج وكان يعمل في الخطوط الحديدية. كان الثلاثة يكسبون أجورا زهيدة وعليها، مجتمعة، أن تقيم أود أسرة من خمسة أشخاص. كانت الجدة تدير مال الأسرة، ولهذا فإن أول شيء أثر في جاك، كان حرصها، لا لأنها كانت بخيلة، او ربما كانت كذلك كما الإنسان يبخل بالهواء الذي يستنشقه والذي يجعلك تعيش.

كانت هي التي تشتري ملابس الأولاد. كانت أم جاك تعود متأخرة مساء وتكتفي بأن تنظر وتسمع ما كان يقال، وقد تجاوزتها حيوية الجدة فتركت لها الاهتمام بكافة الأمور. لذا كان على جاك، طوال سنين طفولته، أن يلبس معاطف واقية من المطر طويلة جدا لأن الجدة كانت تشتريها لتدوم وتعتمد على الطبيعة كي يلحق طول الطفل بطول المعطف. ولكن جاك كان بطيء النمو ولم يقرر أن يشتد طوله فعلا إلا وقد بلغ الخامسة عشرة، فكان المعطف قد رث قبل ان يصبح مطابقاً لقياسه. فكانت تشتري معطفاً آخر وفق مبادئ الاقتصاد نفسها. كان رفاق جاك يسخرون من لباسه، مما اضطره أن ينفخ معاطفه عند الحزام ليجعل ما كان مضحكاً زياً مبتكراً. إلا أن هذه المواقف القصيرة المخجلة كانت تنسى بسرعة في الصف، حيث كان جاك يتفوق، وفي الباحة، حيث كانت كرة القدم مملكته. ولكن هذه المملكة كانت محظورة عليه. لأن الباحة كانت مبطنة

---

[1] صفحة ٥ تدعى والدة جاك " لوسي". من الآن فصاعداً، ستدعى كاترين.

بالاسمنت وكانت النعال تبلى فيها بسرعة كبيرة حتى إن الجدة قد منعت جاك من اللعب بكرة القدم أثناء الاستراحات. كانت تشتري بنفسها لحفيديها أحذية متينة وسميكة وتغطي القدم حتى الأعلى، وتأمل أن تكون هذه الأحذية خالدة. وعلى كل حال، فلكي تمد في عمر هذه الأحذية، كانت تدق في النعال مسامير ضخمة مخروطية الشكل ذات ميزة مزدوجة. كانت تتآكل قبل ان يستهلك الحذاء وكانت هذه المسامير تسمح بالتحقق من أن مخالفات منع اللعب بكرة القدم قد ارتكبت، أم لا. كان الجري على الأرض المطلية بالاسمنت يستهلك المسامير فعلا وبسرعة ويعطيها صقلا تشي حداثته بالمذنب. كان على جاك إذن، كل مساء، حين يعود إلى بيته أن يذهب إلى المطبخ حيث كانت كاسندرا[1] تترأس المراسم الدينية فوق الطناجر السوداء، وأن يطوي ركبته، رافعا نعله في الهواء، في وضعية الحصان المبيطر، وأن يريها نعليه. وبالطبع، لم يكن يستطيع ان يقاوم نداء رفاقه وجاذبية لعبه المفضل، وكان جهده ينصب ليس على ممارسة فضيلة مستحيلة وإنما على تمويه الخطيئة. كان يمضي إذن اوقاتا طويلة عند خروجه من المدرسة، وفيما بعد من المدرسة الثانوية، بفرك نعليه بالطين. كانت الحيلة تنجح أحيانا. إلى أن جاء وقت أصبح اهتراء المسامير فاضحا، وقد أصاب الاهتراء النعل ذاته وتحدث المصيبة الأخيرة نتيجة ضربة قدم رعناء على الأرض أو على السياج الذي يحمي الأشجار، فينفصل النعل عن وجه الحذاء ويصل جاك حينئذ إلى بيته وقد لف حذاءه بشريط كي يبقى وجه الحذاء مغلقا. في تلك الليالي كان العقاب بالسوط. وكانت امه تقول له لتعزيه وهو غارق في البكاء:" صحيح أن هذا يكلف مالا، لماذا لا تنتبه؟" ولكنها هي نفسها لم تضرب قط ولديها. وفي اليوم التالي، كان يلبس جاك خفين ويؤخذ حذاؤه إلى الإسكافي. ثم يسترجعه بعد يومين أو ثلاثة وقد زين بمسامير جديدة، وكان عليه أن يتعلم من جديد الحفاظ على التوازن على نعليه الزالقتين والمتقلقلتين.

كانت الجدة قادرة أن تذهب أبعد من ذلك، وكان جاك بعد كثير من السنوات لايستطيع أن يتذكر هذه القصة إلا مع انقباض من الخجل والقرف* . لم يكن جاك وكذلك أخوه يأخذان مصروف جيب، إلا حين يوافقان على الذهاب أحيانا لزيارة خال تاجر أو خالة متزوجة ميسورة. بالنسبة إلى الخال، كان الأمر سهلا لأنهما كانا يحبانه. أما بالنسبة إلى الخالة فلقد كانت تبدع بإظهار غناها النسبي. وكان الطفلان يفضلان ان يبقيا بلا مال وبدون المتعة التي يؤمنها هذا المال

---

[1] يشبه جدته بكاسندرا وهي في الأساطير الاغريقية، ابنة بريام ملك طروادة وهيكوب. تلقت من الإله أبولون موهبة التنبؤ بالمستقبل شريطة أن تستسلم له: ولكنها لم تنفذ الشرط، فحكم عليها أبولون أن لايصدق أحد نبوءاتها (المترجمة).

* حيث كان الخجل والقرف يختلطان.

على أن يشعرا بالذل. وفي كل الأحوال، وإن كان البحر والشمس، وألعاب الحي كلـــها متعــاً مجانية، فالبطاطا المقلية، وقطع الحلوى، والحلوى العربية وخاصة، بالنسبة إلى جاك، بعض مباريات كرة القدم، كانت هذه كلها تحتاج إلى قليلٍ من المال، على الأقل بضعة قروش. ذات مساء، كـان جاك عائداً إلى البيت بعد أن تسوق أشياء طلبت منه، وقد أمسك بطرف ذراعه طبـــق البطاطـــا بالجبن المبروش وبالحليب، وأتى به بعد خبزه عند فران الحي (لم يكن في البيت غـــاز ولا موقـــد للطبخ، وكان الطعام يطبخ على سخانة كحول. وبالتالي لم يكن هناك فرن، وحين كانوا يحتاجون إلى طبق يطبخ في الفرن، كان يؤخذ بعد إعداده إلى فران الحي، الذي يخبزه ويراقبه مقابل عـــدة قروش)، كان البخار يتصاعد من الطبق أمامه عبر قطعة قماش تحميه من غبار الشارع وتســـمح لجاك بأن يمسكه من أطرافه.وعلى مفصل ذراعه اليمنى، لم يكن الكيس الشبكي المليء بالمؤن التي اشتراها بكميات صغيرة جداً بثقيل (نصف ليبرة من السكر، ربع ليبرة من الزبدة، خمسة قروش من الجبن المبروش، الخ)، وكان جاك يشم رائحة الطبق الطيبة، ويمشي بخطا حذرة متجنباً الجمـــهور الشعبي الذي يروح ويغدو في هذه الساعة على أرصفة الحي. في هذه اللحظة، فلتت قطعة نقديـــة من ذات الفرنكين، من جيبه المثقوب وسقطت وهي ترن على الرصيف. التقطها جاك، وتأكد من القطعة التي كانت كاملة، ووضعها في جيبه الآخر. فكر فجأة " كان الممكن أن أضيعها". ومباراة الغد التي كان قد طردها حتى ذاك الوقت من فكره قد عادت الآن إلى ذهنه.

الحق أنه لم يكن احد قد علّم الطفل ماهو صالح وما هو طالح. كانت بعض الأشياء ممنوعـــة ومخالفاها تقتضي عقاباً شديداً. وثمة أشياء أخرى لم تكن ممنوعة. كان معلموه وحدهـــم، حـــين يسمح لهم برنامج الدروس بالوقت، يكلموهم احياناً عن الأخلاق، وهنا أيضاً، كانت الممنوعـــات أكثر دقة من التوضيحات. إن الشيء الوحيد الذي رآه جاك واختبره في مجال الأخلاق كان مجـــرد الحياة اليومية لأسرة عاملة حيث لم يفكر أحد قط كما يبدو بأن هناك طرقاً اخرى للحصول على المال الضروري للحياة غير العمل القاسي المضني. كان هذا درس شجاعة وليس درس أخلاق. ومع ذلك، كان جاك يعلم بأن من الخطأ إخفاء هذين الفرنكين. ولم يكن يريد أن يفعل ذلك. ولـــن يفعله؛ ربما قد يستطيع، كما فعل المرة السابقة، أن يتزلق بين لوحي خشب مدرج الملعب القديم إلى ساحة الحلبة وأن يحضر المباراة دون أن يدفع شيئاً. لذا لم يفهم هو نفسه لماذا لم يعد فوراً المـــال الذي أحضره ولماذا، وبعد فترة، حين رجع من المرحاض، أعلن ان القطعة النقدية من فئة الفرنكين قد سقطت في الحفرة حين كان يخلع سرواله. كانت المراحيض كلمة تطلق على مكان ضيق أعـــد في بناء درج الطابق الوحيد. كانت هذه المراحيض قد حرمت من الهواء وكذلك مـــن الضـــوء الكهربائي، ومن صنبور ماء، ولقد بنيت على قاعدة تعلو قليلاً وحُصرت بين البـــاب والجـــدار الداخلي حفرةٌ على الطريقة التركية مما يقتضي صب صفائح ملأى بالماء بعد الاستعمال. ولكـــن

لاشيء يمنع رائحة هذه الأماكن النتنة أن تعم في الدرج. كان تفسير جاك مقبولاً [أ] . كان هــذا يجنبه العودة إلى الشارع بحثاً عن القطعة المفقودة ويقطع الطريق على كل تطور. إلاّ أن جاك شـعر بأن قلبه منقبض وهو يعلن النبأ السيئ. كانت جدته في المطبخ تفرم الثوم والبقدونس على اللــوح القديم المخضر والمحفَّر من الاستعمال. توقفت ونظرت إلى جاك الذي كان ينتظر الانفجار. ولكنها سكتت وراحت تتفحصه بعينيها المشرقتين والمتجمدتين. قالت أخيراً: " هل أنت متأكد؟ - أجـل، لقد أحسستها تسقط". كانت لاتزال تنظر إليه. قالت: " حسناً، سنرى". ورآها جاك وقد تملكـه الهلع، تشمر كم ذراعها اليمنى، وتكشف ذراعها البيضاء المليئة بالعقد وتخرج إلى قرص الدرج. أما هو فلقد ألقى بنفسه في غرفة الطعام، على وشك الغثيان. حين نادته، وجدها أمام المجلى، وقـــد غطت ذراعها بالصابون الفضي وهي تغسلها تحت الماء المتدفق. قالت له: " لم يكن هناك شـــيء. أنت كاذب". تمتم: " لابد أن القطعة قد انجرفت". ترددت ثم قالت له: " ربما. ولكن إذا كذبــت فلن يجلب ذلك الحظ لك ..." كلا، لم يكن هذا العمل طالع سعد، لأنه في تلك اللحظة أدرك أنه لم يكن البخل هو الذي دفع الجدة أن تفتش في الأقذار، ولكنها الفاقة الرهيبة التي كانت تجعل من فرنكين في هذا البيت مبلغاً. لقد فهم ذلك وأدرك أخيراً بوضوح، مع اضطراب من الخجل، أنه قد سرق هذين الفرنكين من عمل أهله. واليوم وجاك ينظر إلى أمه أمام النافذة، لا يزال يجهل كيــف استطاع ألا يعيد هذين الفرنكين وأن يجد مع ذلك متعة في حضور مباراة اليوم التالي.

كانت ذكرى الجدة مرتبطة كذلك بمواقف مخجلة أقل تبريراً. لقد حرصت أن تعطي لهنري، الأخ الأكبر لجاك، دروساً في الكمان. وانقطع جاك عن هذه الدروس نظراً لنجاحه المدرسي وقــد ادعى أنه يستحيل عليه متابعة دروس الكمان الإضافية. وهكذا تعلم أخوه أن يستخرج بعض انغام فظيعة من كمان جامد وكان يستطيع على كل حال أن يعزف مع بعض الألحان الخاطئة الأغنيات الشائعة. وكان جاك صاحب صوت مضبوط إلى حد ما، ولكي يتسلى تعلم الأغاني نفســها، دون أن يتصور النتائج الوخيمة لهذا الاهتمام البريء. ويحدث يوم الأحد حين كانت الجدة تستقبل بناتها المتزوجات[ب] ، أنه كانت اثنتان منهن أَيِّمتَيْ حرب، أو تستقبل أختها التي لازالت تسكن مزرعة في منطقة الساحل وتتكلم العامية الماهونية أكثر مما تتكلم الإسبانية، وبعد تقدمة طاسات كبيرة من القهوة السوداء على الطاولة المغطاة بالقماش المشمع، كانت تدعو حفيديها لحفلة موسيقية مرتجلة. كانا يحملان، واجمين، حامل الموسيقى المعدني والتقسيمات المكتوبة على صفحتـــين للآزمــات مشهورة. كان عليهما أن ينفذا. وكان جاك يتبع، بقدر ما يستطيع كمان هنري المتعرج الألحـان، يغني أغنية "رامونا" رأيت حلماً رائعاً، يارامونا، لقد رحلنا كلانا معــاً " أو أغنيــة " ارقصــي،

(أ) كلا، لأنه كان قد ادعى أنه أضاع القطعة النقدية في الشارع وأنه اضطر أن يجد تفسيراً آخر.

(ب) بنات اخوتها.

يامحبوبتي، هذا المساء أريد أن أحبك"، أو للبقاء في جو الشرق، أغنية "ليالي الصين، ليالي الحنين، ليلة الغرام، ليلة النشوة والهيام..." وأحياناً اخرى كانت الأغنية الواقعية تطلب بشكل خاص للجدة. كان جاك يؤدي حينئذٍ: " أهذا أنت يارجلي، أنت يامن أحببت كثيراً، أنت يامن أقسمت لي، والله وحده يعرف كيف، بألا تُبكيني أبداً ". كانت هذه الأغنية الوحيدة التي كان جاك يغنيها بشعور صادق، لأن بطلة الأغنية كانت تكرر في النهاية لازمتها المؤثرة وسط الجمهور الذي كان يحضر إعدام عاشقها الشكس. ولكن أفضليات الجدة كانت تتجه نحو أغنية كانت تحب فيها ولا شك الكآبة والحنان الذي يبحث الإنسان عنه عبثاً في طبيعته الخاصة. كانت هذه الأغنية"سريناد[أ] توسيللي"، ينشدها طويلاً هنري وجاك بكثير من الإبداع، بالرغم من اللهجة الجزائرية التي لاتتفق فعلاً مع الساعة الفاتنة التي توحي بها الأغنية. كان يحدث هذا في فترة بعد الظهر المشمسة، كانت أربع نسوة أو خمس، لابسات السواد، وقد نزعن كلهن، ماعدا الجدة، وشاحهن الأسود الذي تضعه النساء الإسبانيات، وجلسن في زوايا الغرفة التي فرشت فرشاً فقيراً، ذات الجدران المجصصة البيضاء، يتبعن بعذوبة بحركة من رؤوسهن انسياب الموسيقى مع النص، إلى أن تتدخل الجدة، هي التي لم تستطع قط أن تميز "دو" من "سي" كما لم تكن تعرف أسماء العلامات الموسيقية في سلم الأنغام، فتقطع الأغنية بجملة قصيرة: " لقد أخطأت" فكانت بذلك تسكت الفنانين. كانت تقول الجدة: "سنعيد من "هنا"، حين كان المقطع الصعب يغنى بطريقة ترضي مزاجها، كانت الرؤوس لاتزال تهتز وفي الختام كان الجميع يصفقون للفنانين الموهوبين، اللذين كانا يفكان بسرعة أدواتهما الموسيقية لينطلقا إلى الشارع يلحقان رفاقهما. كانت كاترين كورمري وحدها لاتقول شيئاً وقد لبثت في زاوية. كان جاك لايزال يذكر بعد ظهر الأحد هذا حيث كان على وشك الخروج من الغرفة حاملاً التقسيمات الموسيقية المكتوبة، حين سمع إحدى خالاته تمدحه لأمه التي أجابت: " أجل. كان الغناء جيداً. إنه ذكي" كما لو كان ثمة علاقة بين الملاحظتين. ولكن، حين استدار، فهم العلاقة. كانت نظرة أمه، الواجفة، العذبة، المحمومة، قد استقرت عليه بتعبير جعل الطفل يتراجع ويتردد ثم يهرب. وراح يقول في نفسه وهو ينزل على السلم: " إنها تحبني، إنها تحبني إذن"، وأدرك في الوقت ذاته أنه يحبها بوله، وقد كان يتمنى من كل قواه أن يكون محبوباً منها وأنه كان دائماً يشك في حبها حتى ذاك الحين.

كانت حفلات السينما تخبئ متعاً أخرى للطفل... كانت الحفلة يوم الأحد بعد الظهر وأحياناً يوم الخميس. كانت تقع سينما الحي على بعد عدة خطوات من المنزل وكانت تحمل اسم شاعر رومانسي وكذلك الحي الذي يحاذيها. قبل الدخول إلى الصالة، كان عليهم أن يقطعوا ممراً متعرجاً من أطباق بضائع يعرضها الباعة العرب حيث كان يوجد مختلطاً فستق العبيد، والحمص

(أ) سريناد هو عزف أو غناء ليلي يقوم به العاشق تحت نافذة محبوبته. (المترجمة).

المبيس والمملح، وحبات الترمس، وسكاكر الشعير الملونة بالوان فاقعة و "سكاكر الليمون" الدبقة. كان آخرون يبيعون قطع حلوى ذات ألوان صارخة، وكان يوجد منها على أشكال أهرامات مضفرة بالكريمة المطلية بالسكر الوردي، وآخرون يبيعون فطائر عربية تقطر زيتا وعسلا. كان حول الأطباق أسراب من الذباب والأولاد قد جذبهم السكر نفسه، يئزون أو يصرخون وهم يلاحقون بعضهم وسط مسبات الباعة الذين كانوا يخشون على توازن طبقهم وكانوا بالحركة نفسها يطردون الذباب والأولاد.

واستطاع بعض الباعة أن يلتجئ تحت واجهة السينما الزجاجية التي كانت تمتد على أحد الأطراف، في حين وضع باعة آخرون ثرواتهم الدبقة تحت شمس حادة وسط غبار أثاره لعب الأطفال. كان جاك يرافق جدته التي سبلت شعرها الأبيض، لهذه المناسبة، وأغلقت ثوبها الأسود الخالد بمشبك من الفضة. كانت تبعد بوقار الشعب الصغير الذي يصرخ ويسد المدخل وتتقدم نحو نافذة التذاكر الوحيدة لتأخذ "المقاعد المحجوزة مسبقا ". والحقيقة أنه لم يكن هناك خيار بين " المقاعد المحجوزة مسبقا " التي كانت كراسي رديئة من الخشب وكانت مؤخرتها تهوي بضجة والمقاعد الأخرى حيث يتدافع الأولاد وهم يتقاتلون على الأماكن و لم يكن يفتح لهم باب جانبي إلا في آخر لحظة. كان هناك على طرف كل جانب من المقاعد، شرطي يحمل سوطا ومهمته الحفاظ على النظام في قطاعه. و لم يكن من النادر رؤيته يطرد طفلا أو شابا يحدث صخبا.

كانت السينما حينئذ تعرض أفلاما صامتة، تبدأ بأحداث الساعة، يليها فلم قصير مضحك، ثم الفلم الطويل وفي الختام فلم مسلسل يعرض منه حلقة كل اسبوع. كانت الجدة تحب بشكل خاص هذه الأفلام التي تقدم على شكل شرائح تنتهي كل حلقة منها بشكل مشوق وتبقى معلقة. فمثلا البطل المفتول العضلات يحمل على ذراعيه الشابة الشقراء والجريحة ويشرع في قطع جسر من نباتات متسلقة فوق شعب يتدفق فيه سيل جرفي. وكانت الصورة الأخيرة للحلقة الأسبوعية تظهر يدا موشومة، وقد تسلحت بسكين بدائي، تقطع نباتات الجسر العائم. كان البطل يتابع سيره بروعة بالرغم من صراخ جمهور الجالسين على " المقاعد" [أ] لينبهه. لم تكن المشكلة معرفة إن كان الشاب والفتاة سينجوان من هذا المأزق، لم يكن ثمة مجال للشك في نجاتهما، ولكن كيف سينجوان، وهذا ما كان يفسر عودة كثير من المشاهدين، عربا وفرنسيين، في الأسبوع الذي يليه ليروا كيف أنقذت شجرة أرسلتها العناية الإلهية هذين العاشقين من سقطة مميتة.

كان يرافق الفلم كله عزف على البيانو تؤديه عانس، يعارض صخب "الجالسين على المقاعد" هدوءها الجامد الذي يبدي ظهرها النحيل على شكل زجاجة ماء معدنية غطاؤها ياقة من

(أ)احذر غريمك.

القماش المخرَّم. كان جاك يعتبر حينئذٍ كبادرة متميزة أن تبقى الآنسة المؤثرة لابسة قفازها المفتوح الأصابع وسط الحرارة الأكثر قيظاً. لم يكن دورها بالسهولة التي تُظن. فالتعليق الموسيقي لأحداث الساعة، بشكل خاص، كان يجبرها أن تغير أنغامها وفق الحدث المعروض. وكانت تمر هكذا دون انتقال من رقصة رباعية فرحة ترافق عرض أزياء الربيع إلى لحن السير المأتمي لشوبان بمناسبة فيضان في الصين أو جنازة شخصية هامة من الحياة الوطنية أو الدولية. وعلى كل حال، مهما كانت القطعة الموسيقية، كان العزف مؤثراً وفي منتهى الجدية كما لو كانت عشر آليات صغيرة تؤدي على ملامس البيانو المصفرة عملاً تتحكم به دواليب دقيقة. كانت الصالة ذات الجدران العالية، والأرض المغطاة بقشور فستق العبيد تختلط فيها عطور مطهر كريزيل برائحة بشرية قوية. على كل حال، كانت العازفة هي التي توقف بضربة، الصخب العنيف وهي تعزف بكل قوتها ضاربة على مداوس البيانو المقدمة الموسيقية التي كان عليها أن توحي بجو صباحي. كان أزيز ضخم يعلن أن جهاز العرض قد بدأ يعمل، فيبدأ حينئذٍ عذاب جاك وآلامه.

كانت الأفلام، باعتبارها صامتة، تعرض فعلاً كثيراً من النصوص المكتوبة هدفها إيضاح سير الأحداث. وبما أن الجدة لم تكن تعرف القراءة، فلقد كان على جاك أن يقرأها لها. وبالرغم من تقدم عمر الجدة، لم تكن أبداً صماء. ولكن كان عليه السيطرة على ضجيج البيانو وكذلك على ضجيج الصالة ذات ردود الأفعال السخية. أضف إلى ذلك، بالرغم من بساطة النصوص، أنه كان كثير من كلمات الشريط غير مألوفة بالنسبة إلى الجدة كما كانت بعض الكلمات غريبة عليها. أنه جاك يرغب ألا يزعج الجيران من جهة ويحرص من جهة أخرى ألا يعلن على الصالة بأكملها أن جدته لاتعرف القراءة (كانت تقول له أحياناً، بصوت عال، في أول العرض، وقد انتابها الخجل: "ستقرأ لي، لقد نسيت نظاراتي")، لم يكن جاك يقرأ إذن النصوص بصوت عال كما كان بإمكانه أن يفعل.

وكانت النتيجة أن الجدة لم تكن تفهم إلا نصف الكلام، فتطلب أن يكرر القراءة وبصوت أعلى، كانت "صه" المنبعثة من كل جانب تخجله خجلاً فظيعاً، فيتلعثم، وتوبخه جدته ثم يأتي النص التالي، أكثر غموضاً على العجوز المسكينة التي لم تكن قد فهمت النص السابق. فيزداد الالتباس إلى أن يسترجع جاك حضور بديهته فيلخص لها بكلمتين لحظة حرجة من فلم إشارة زورو على سبيل المثال لدوغلاس فيربانك الأب.

كان جاك يلفظ بحزم مستفيداً من وقفة في البيانو أو في الصالة " إن الشرير يريد أن يخطف منه الشابة". فيتضح حينئذٍ كل شيء. كانت المشكلات تقف، عامة، عند هذا الحد. ولكن بعض الأفلام من نوع " اليتيمتين" كانت فعلاً أكثر تعقيداً، وكان جاك محرجاً بين متطلبات جدته

وتوبيخ جيرانه الذين يزداد ضيقهم، فينتهي به الأمر أن يبقى منذهلاً ساكتاً. إنه مازال يذكر أحد العروض وقد خرجت الجدة عن طورها، وغادرت الصالة وهو يتبعها باكياً، وقد هزته فكرة أنه قد أفسد إحدى المتع النادرة لهذه المسكينة، وكذلك هدر المال القليل الذي كان يجب دفعه ثمن دخول العرض[أ] .

أما أمه، فلم تذهب البتة إلى هذه العروض. لم تكن تعرف القراءة هي أيضاً، ولكن بالإضافة إلى ذلك، كانت شبه صماء. وبمجمل القول: كانت مفرداتها أكثر تقلصاً من مفردات أمها. واليوم كذلك، فإن حياتها بلا لهو ولا تسلية. خلال أربعين سنة، ذهبت مرتين أو ثلاثاً إلى السينما، لم تفهم شيئاً واقتصرت على القول كي لاتزعج الأشخاص الذين دعوها : إن ثياب النساء جميلة، أو إن الممثل صاحب الشوارب يبدو شريراً جداً. أما بالنسبة إلى الجرائد، فلقد كانت تتصفح تلك التي تحوي صوراً، وتطلب من ولديها أو من حفيداتها تفسير هذه الصور، وتقرر أن ملكة انكلترا حزينة ثم تغلق المجلة لتنظر من جديد من النافذة نفسها إلى حركة الشارع ذاته الذي كانت تتأمله طوال نصف حياتها[٢] .

(أ) إضافة إشارات فقر- بطالة- مخيم عطلة الصيف في منطقة ميليانا - دق الجرس - الطرد- لم يجرؤ على قوله.
تكلم: حسناً، سنشرب القهوة هذا المساء. هكذا من وقت لآخر، نغير النمط- نظر إليها. طالما قرأ حكايات فقر حيث تظهر شجاعة المرأة. لم تبتسم. ذهبت إلى المطبخ، شجاعة - غير خانعة.

(٢) إحضار الخال أرنست العجوز، قبل - صورته في الغرفة حيث جلس جاك ووالدته. أو التكلم عنه فيما بعد.

اتيين

كانت، بمعنى ما، أقل اهتماماً بأمور الحياة من أخيها أرنست[١] الذي كان يعيش معـــهم، وكان أصم تماماً، ويعبر بكلمات صوتية وبحركات بقدر ماتسمح له مئة كلمة كان يعبر بها. إلاّ أن أرنست الذي لم يستطع أحد أن يدفعه للدرس في صباه، نادراً ماتردد على مدرسة وتعلم أن يفك الحروف. كان يذهب أحياناً إلى السينما، ويعود بتعليقات مدهشة للذين كانوا قد شاهدوا الفيلم، لأن غنى خياله كان يعوض عن جهالاته. وفضلاً عن ذلك كان مرهفاً ماكراً، وقد امتاز بنوع من الذكاء الفطري كان يساعده أن يتوجه في عالم وعبر أشخاص كانوا بالنسبة إليه صامتين صمتـــاً مطبقاً. كان الذكاء نفسه يسمح له أن يغوص كل يوم في الجريدة التي كان يفك عناوينها الكبرى، وكان هذا يعطيه على الأقل معرفة سطحية عن شؤون العالم. كان مثلاً يقول لجاك حين بلغ الأخير سن الرجولة: " هتلر، إنه ليس صالحاً، أليس كذلك" أجل لم يكن صالحاً. ثم كان الخال يضيف: " إنهم الألمان، دائماً متماثلون". كلا، لم يكن الأمر هكذا. فكان الخال يوافق "أجل، هناك من هو منهم صالح، ولكن هتلر ليس صالحاً " ثم بعد ذلك فوراً يعاوده حب المزاح فيقهقه قـــائلاً: " إن ليفي خائف (كان ليفي تاجر الخردوات في المخزن المقابل). كان جاك يحاول أن يشرح له. فيعود الخال إلى الجد: " ولكن. لماذا يريد أن يؤذي اليهود؟ إنهم مثل الآخرين".

لقد أحب الخال جاك دائماً على طريقته. كان يعجب بتفوقه في الصف. وكان يفـــرك رأس الطفل بيده الصلبة التي غطتها أدوات العمل ومهنته الشاقة بنوع من العقد، وهو يقول: " هذا، لـه رأس جيدة. قاسية (وكان يضرب رأسه هو بقبضته الغليظة) ولكنها جيدة". وكان يضيف أحياناً: "مثل أبيه". وذات يوم، انتهز جاك هذه المناسبة ليسأله إن كان أبوه ذكياً. " أبوك، صلب الـرأس، لم يكن يفعل إلا ماكان يريده، دائماً. وأمك نعم نعم دائماً ". لم يستطع جاك أن يحصـــل علـــى معلومات أكثر. على كل حال، كان أرنست يصحب غالباً الطفل معه. وكانت قوته وحيويتـــه، اللتان لا تستطيعان التعبير بالكلام ولا بالعلاقات المعقدة للحياة الاجتماعية، كانتـــا تتفجـــران في

(١) كان يدعى أحياناً أرنست، وأحياناً أتيين. إنه الشخص نفسه: خال جاك.

حياته الجسمية وفي الإحساس. فكان حين يوقظه أحد وهو يهزه، ليخرجه من نوم البكم الكتيم، كان ينتصب واقفاً تائهاً وهو يزمجر: " هان، هان، مثل حيوان ما قبل التاريخ حين يستيقظ كل يوم في عالم مجهول وعدواني. وعلى العكس، فإذا مااستيقظ، فإن جسمه، وحسن انتظامه، كانا يثبتانه على الأرض. وبالرغم من مهنته الشاقة كصانع براميل، لقد كان يحب السباحة والصيد. كان يصحب معه جاك طفلاً " (أ) إلى شاطئ السابليت، ويجعله يتسلق ظهره ويذهب رأساً إلى عرض البحر، سباحةً على بطنه بطريقة بدائية، ولكنها قوية، وهو يطلق صرخات بجمجمة تعبر في البدء عن مفاجأته تجاه الماء البارد، ثم عن متعته لوجوده فيه، أو عن استيائه من موجة هائجة. كان يقول لجاك من وقت لآخر، " ألست خائفاً ؟ ". بلى، كان خائفاً ولكنه لم يكن يبوح به، وقد سحرته هذه الوحدة حين كانا، بين السماء والبحر، كلاهما فسيح، وحين كان يلتفت، كان الشاطئ يبدو له كخط غير واضح، فيعتريه خوف حامض يعصر معدته ويتخيل مع بداية هلع، الأعمال السحيقة المعتمة تحته حيث سيغرق كحجرة بمجرد مايتركه خاله.

حينئذٍ كان الطفل يضم بشدة رقبة السابح ذات العضلات القوية. كان الآخر يقول فوراً: " أنت خائف- كلا، ولكن ارجع". كان الخال يدور طائعاً، يستنشق الهواء في مكانه ثم ينطلق بثبات كما لو كان على أرض صلبة. وعلى الشاطئ، يكاد لا يلهث، كان يفرك جاك بقوة، مع ضحكات عالية، ثم يستدير ليبول بصخب، وهو دائم الضحك، مغتبط بعد ذلك من حسن عمل مثانته، ضارب بطنه وهو يردد: " حسن، حسن،" كانت هذه الكلمات ترافق لديه كل المشاعر المستحبة، والتي لا يميز بينها، سواء أكانت للتغيط أم للتغذية، وهو يلح بالبراءة ذاتها على المتعة التي يجنيها منها، وكان يرغب دائماً أن يشاركه أهله هذه المتعة، وهذا ما كان يثير على المائدة احتجاجات الجدة، التي كانت تقبل ولا شك الحديث عن هذه الأشياء، وكانت هي نفسها تتحدث عنها ولكن" ليس على المائدة " كما كانت تقول، كانت تقبل إلى حد ما مشهد العرض للجبسة، وهي فاكهة ذات شهرة راسخة كمدرة للبول، وكان أرنست يحب الجبس كثيراً ويبدأ أكله بضحكات، ثم بغمزات ماكرة نحو الجدة، وكذلك بأصوات متنوعة في شمه، وتجشئه ومضغه اللين، ثم بعد اللقمات الأولى المأكولة مباشرة من الشريحة، كان يقوم بحركات إيمائية تؤشر فيها اليد مرات كثيرة بالمسيرة التي ستسلكها الفاكهة الجميلة الوردية والبيضاء من الفم إلى العضو التناسلي، بينما كان وجهه يبتهج بمجة كبيرة يعبر عنها بحركات في وجهه، ووثبات في نظرته ترافقها هذه الكلمات: " حسن، حسن، إنها تغسل. حسن، حسن" التي تصبح لاتقاوم فتجعل الجميع يقهقهون ضاحكين.

(أ) تسع سنوات.

وكانت البراءة البدائية نفسها تجعله يعلق اهتماماً لا يتناسب مع مجموعة آلام عابرة كان يشكو منها، وقد قطب حاجبيه، وانطوى نظره نحو الداخل كما لو كان يتفحص ظلام أعضائه الغريب. كان يعلن أنه يشكو من "نقطة" كان تحديد موضعها يتغير كثيراً، وأن "كتلة" تجول متحركة في داخله. فيما بعد، حين كان جاك يتردد على المدرسة الثانوية، كان الخال مقتنعاً بأن العلم واحد وهو للجميع، كان يسأله، وهو يريه أسفل كليتيه قائلاً: " هنا، شيء ما يشد. هل هذا سيئ؟ " كلا، هذا لاشيء. فيمضي مرتاحاً، وينزل ثانية الدرج بخطوة صغيرة مستعجلة، للقاء رفاقه في مقاهي الحي ذات الأثاث الخشبي وطاولات الشرب، التي تعبق برائحة اليانسون ونشارة الخشب، وكان على جاك الذهاب إلى هناك لإحضاره أحياناً في ساعة العشاء. وكم كانت مفاجأة الطفل عظيمة، ألا وهي إيجاد هذا الأصم- الأبكم جالساً إلى الطاولة، وقد أحاط به رفاقه وهو يتكلم بلا توقف، وسط الضحك العام، الذي لم يكن ضحك استهزاء، لأن أرنست كان محبوباً جداً من رفاقه وذلك بسبب روحه المرحة وكرمه (أ) - (ب) - (ج) - (ء).

كان جاك يشعر بهذا جيداً حين كان خاله يصحبه معه إلى الصيد مع رفاقه الذين كانوا

(أ) إن المال الذي وفره والذي يعطيه لجاك.

(ب) كان متوسط الطول، ساقاه مقوستان، وقد انحنى ظهره انحناءة خفيفة تحت جسمه المليء بالعضلات. كان يعطي بالرغم من نحوله، انطباعاً عن رجولة طاغية. إلاّ أن وجهه قد بقي وسيبقى طويلاً وجه فتى يافع، مرهفاً، ذا تقاطيع متناسقة، قليل [ ] [1]. وله عينا أخته البنيتان، وأنفه مستقيم جداً، وحاجباه عاريتان، ذقنه منتظمة وشعره الخشن جميل، كلا، كان متموجا قليلاً. كان جماله الجسمي وحده يفسر أنه، بالرغم من عاهته، فلقد عرف بعض المغامرات النسائية، التي لم تكن لتؤدي إلى الزواج وكانت بالطبع قصيرة، وكانت هذه المغامرات تأخذ أحياناً صبغة يمكن أن تسمى بالحب، كعلاقته مع بائعة متزوجة في الحي، وكان يصحب معه احياناً جاك، يوم السبت مساء إلى الحفلة الموسيقية التي تقام في حديقة عامة صغيرة تدعى بروسون وتطل على البحر، وكانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف في ظلة الخان " أجراس كورنوفيلك" أو ألحانا من "لاكمة" بينما كان الجمهور يتجول في الليل حول[ ]، وكان أرنست وقد لبس أفضل ثيابه، ينجح في محاذاة زوجة صاحب المقهى وقد لبست ثوباً من الحرير الهندي الخشن، فكانا يتبادلان ابتسامات الود، وكان الزوج يكلم أرنست أحياناً بجمل ودية ذلك أن أرنست لم يبدُ البتة له كغريم محتمل.

(ج) غرفة الغسيل، غرفة المؤنة [كلمات وضعها المؤلف في دائرة. تعليق الناشرة] .

ء – الشاطئ قطع الخشب المبيضة، السدادات، الشقفات المتآكلة فلين قصب.

١- كلمة مشطوبة .

كلهم صانعي براميل أو عمالاً في المرفأ أو السكك الحديدية. كانا ينهضان في الفجر. كان على جاك أن يوقظ خاله الذي ينام في غرفة الطعام، و لم تكن أية ساعة منبهة قادرة أن تخرجه من النوم. كان جاك، يستجيب للمنبه، وكان أخوه يتقلب في فراشه وهو يتذمر، وأمه، في السرير الآخر، تتحرك بهدوء أن تستيقظ. كان ينهض متلمساً طريقه، ويحك عود ثقاب ويشعل مصباح بترول صغير كان على الطاولة الصغيرة المشتركة للسريرين. (آه أثاث هذه الغرفة: سريران من الحديد، واحد لشخص حيث تنام الأم، والآخر لشخصين، حيث كان الولدان ينامان، طاولة صغيرة بين السريرين، وأمام الطاولة الصغيرة، كان هناك خزانة بالمرايا. كان للغرفة نافذة تطل على الباحة، عند رجل سرير الأم. وفي أسفل هذه النافذة، كانت هناك حقيبة ضخمة من الألياف وقد غطيت بغطاء من الشبك. كان جاك، وقد بقي طويلاً قصير القامة، مضطراً أن يركع على الحقيبة ليغلق شبابيك النافذة. وأخيراً لم يكن في الغرفة كرسي). ثم كان يذهب إلى غرفة الطعام، يهز الخال الذي يزأر، ناظراً بهلع إلى المصباح فوق عينيه، ثم يسترجع وعيه أخيراً. كانا يلبسان ثيابهما. وكان جاك يسخن قهوة باقية في المطبخ على سخانة الكحول، بينما كان الخال يجهز الأكياس المليئة بالمؤن، قطعة جبن، نقانق، بندورة مع ملح وبهار ونصف رغيف من الخبز قطع قسمين وضم داخله عجة بيض ضخمة كانت الجدة قد أعدتها.

ثم كان الخال يفحص مرة أخيرة البندقية ذات الطلقتين والخرطوش والذي قامت حولهما عشية الذهاب حفلة كبيرة. فبعد العشاء، أخليت الطاولة مما عليها ونظف القماش المشمع بعناية. كان الخال يجلس في أحد أطراف الطاولة وقد وضع أمامه بجدية فائقة، تحت ضوء مصباح البترول الكبير الذي أنزل من مكانه المعلق عليه، وفكت قطع البندقية وقد شحمها بعناية كبيرة. كان جاك، وقد جلس في الطرف الآخر، ينتظر دوره. وكذلك الكلب بريان. ذلك أنه كان هناك كلب، هجين من ساطر[1] ذو طيبة لاحد لها، عاجز أن يؤذي ذبابة، والدليل على ذلك أنه حين يمسك ذبابة تطير، كان يسرع إلى قذفها وقد بدا عليه الاشمئزاز، ويدفعها بقوة لسانه مادا شفتيه. كان أرنست وكلبه لايفترقان، وكان تفاهمهما كاملاً. كان المرء لايستطيع إلاّ أن يفكر بزوجين (إن المرء الذي لايعرف الكلاب ولا يحبها يرى في ذلك سخرية منهما). كان الكلب ملزماً بالطاعة وبمحبة الرجل في حين كان هذا الرجل قد قبل ألا يكون له إلا هم واحد. كانا يعيشان معاً ولا يفترقان أبداً، كانا ينامان معاً (الرجل على ديوان غرفة الطعام، والكلب على بساط رديء مهترئ حتى خيوط نسيجه)، ويذهبان معاً إلى المعمل، ويرتادان المقاهي معاً، وكان الكلب ينتظر بصبر وهو قابع بين ساقي معلمه أن تنتهي خطاباته. كانا يتحدثان بكلمات صوتية، وينعمان بروائحهما المتبادلة. لم يكن من المستحسن القول لأرنست إن رائحة كلبه، الذي كان نادراً ما يغسل، قوية،

---

(١) كلب صيد (المترجمة).

وخاصة بعد الأمطار، كان أرنست يقول: " إن كلبه لا رائحة له" وكان يشم بشغف داخل أذني الكلب الكبيرتين والمرتجفتين. كان الصيد عيداً للاثنين. إنه سهراهما في الأندية الفخمة. وكان يكفي أن يخرج أرنست جعبة الصيد كي يشرع الكلب بالجري جرياً جنونياً داخل غرفة الطعام، وهو يؤرجح الكراسي بضربات من مؤخرته، ضارباً بذنبه جنبات صوان الطعام. كان أرنست يضحك قائلاً: " لقد فهم، لقد فهم"، ثم كان يهدئ الحيوان، الذي وضع خطمه على الطاولة، متأملاً الاستعدادات الدقيقة وهو يتثاءب بشكل خفي من وقت لآخر دون أن يترك هذا المشهد الممتع ليتم حتى النهاية[أ] - [ب] .

كانت البندقية بعد أن ركبها الخال ثانية، تعطى لجاك الذي يتلقاها باحترام، وقد تزود بقطعة قماش بالية من الصوف، فيلمع سبطانتها، وأثناء ذلك كان الخال يحضر خرطوشه. كان يصف أمامه أنابيب من الورق المقوى الزاهي اللون وهي ذات قعر نحاسي، موضوعة في جعبة الصيد، وكان يستخرج منها كذلك أنابيب معدنية على شكل قربة، تحوي البارود والرصاص وشرانق من اللباد البني. كان يملأ بعناية الأنابيب بالبارود وبالحشوة. ثم يخرج كذلك من بين الأنابيب المختلطة آلة صغيرة ذات مرفق تحرك كبسولة تدور حتى توصل إلى مستوى الحشوة قمة أنابيب الورق المقوى. وكان أرنست كلما انتهى من إعداد الخرطوش، أعطاه، الواحدة تلو الأخرى، إلى جاك، الذي كان يضعها بورع في جعبة الخرطوش التي أمامه. وفي الصباح، كانت إشارة الانطلاق عندما يلف أرنست جعبة الخرطوش الثقيلة حول بطنه الذي ازداد عرضه من لبسه لكنزتين صوفيتين. كان جاك يغلقها خلف ظهره. وبريان، منذ نهوضهما، يروح ويغدو صامتاً، وقد روض على السيطرة على فرحه كي لا يوقظ أحداً، إلا أنه كان يبث اضطرابه على كل الأغراض التي في متناوله، وينتصب أمام سيده، وقد وضع قائمتين على صدره، ويحاول وهو يمد رقبته وصلبه أن يلعق طويلاً وبقوة الوجه المحبوب.

كانا يسرعان، وقد خف ظلام الليل، حيث كانت تعوم رائحة تبن لاتزال حديثة، نحو محطة الآغا، والكلب يتقدمهما بسرعة كبيرة وهو يجري بشكل متعرج ينتهي به أحياناً بتزحلق على الأرصفة المبللة برطوبة الليل، ثم كان يعود بسرعة لاتقل عن سرعته الأولى وقد اعتراه ذعر مرده إلى خوفه من أن يضيعهما. كان أتيين يحمل بندقيته المقلوبة داخل غلافها المصنوع من الكتان الخشن، وكذلك جعبته وكيس صيده، وكان جاك قد وضع يديه في جيوب بنطاله القصير وتدلى من كتفيه جعبة كبيرة. وفي المحطة، كان الرفاق مع كلابهم التي لم تكن تترك صاحبها إلا لتقوم

(أ) الصيد؟ يمكن أن يحذف.

(ب) يجب أن يحتوي الكتاب على أشياء ولحم تزن ثقلاً كبيراً.

بتفتيش سريع تحت ذنب حيوانات من جنسها. كان هناك الأخوان، دانييل وبيير[ج] ، رفيقا أرنست في ورشة العمل. كان دانييل دائم الضحك، مليء بالتفاؤل، وكان بيير أكثر انقباضاً، وأكثر منهجية وذا وجهات نظر عن الناس وعن الأشياء ملأى بالفطنة والدراية. كان هناك جورج، الذي كان يعمل في مصنع غاز، كما كان من وقت لآخر يشترك في مباريات ملاكمة تؤمن له دخلاً إضافياً. وغالباً مايأتي اثنان أو ثلاثة آخرون كلهم شبان طيبون، على الأقل في هذه المناسبة، سعداء في أن يهربوا ليوم واحد من المصنع، أو من الشقة الضيقة المكتظة، وربما يهربون أحياناً من الزوجة، وقد غمرتهم هذه العفوية وهذا التسامح المرح الخاص بالرجال حين يلتقون فيما بينهم سعياً وراء متعة قصيرة وعنيفة. كانوا يصعدون بنشاط إحدى هذه القاطرات وتفتح كل مقصورة منها على سلم صغير، كانوا يتناقلون الجعبات، ويتركون الكلاب تتسلق ثم يجلسون، سعداء أخيراً بشعورهم أن كل واحد بالقرب من الآخر، وأنهم يتقاسمون الحرارة ذاتها.

لقد تعلم جاك في أيام الآحاد هذه أن رفقة الرجال طيبة وتستطيع أن تغذي القلب. وكان القطار يرتج، ثم ينطلق مسرعاً مع لهاث قصير. وعلى فترات، تنطلق صفارة خاملة. كان القطار يقطع طرفاً من الساحل، وما إن تطل الحقول الأولى حتى يصمت، بشكل يثير الفضول، هؤلاء الرجال الصلاب والصاخبون وينظرون إلى بزوغ النهار على الأراضي التي حرثت بعناية حيث يسحب ضباب الصباح وشاحه على سياجات القصب الكبيرة والجافة التي تفصل الحقول. من وقت لآخر، كانت حزم الأشجار تنساب على الزجاج مع المزرعة المبيضة بالكلس، وكانت هذه الأشجار تحمي المزرعة حيث الجميع راقدون. ثمة عصفور طرد إلى حفرة كانت تحاذي الردم، نهض فجأة على ارتفاعهم، ثم طار في اتجاه القطار ذاته، كما لو كان يحاول أن يتسابق معه، إلى أن يأخذ، فجأة، الاتجاه العمودي لسير القطار، وكان يبدو حينئذ كأنه ينفك فجأة عن الزجاج ويقذفه إلى مؤخرة القطار ريح الجري. كان الأفق الأخضر قد تورد، ثم تحول دفعة واحدة إلى اللون الأحمر، وكانت الشمس تظهر وترتفع جلياً في السماء. وكانت تطرد الغيوم على امتداد الحقول، وتستمر في الارتفاع، وفجأة يصبح الجو حاراً في المقصورة، فيخلع الرجال كنزاتهم الصوفية، ثم الكنزات الأخرى، ويمددون كلابهم التي كانت تضطرب هي أيضاً، ويتبادلون المزاح، ويبدأ أرنست يروي على طريقته قصص طعام، ومرضى ومشادات أيضاً حيث كان ينتصر دائماً وكان أحد الرفاق يلقي على جاك من وقت لآخر سؤالاً عن مدرسته، ثم يتكلمون عن شيء آخر أو يأخذون جاك شاهداً على حركة إيمائية يقوم بها أرنست. " خالك هذا، بطل! " .

كان المشهد يتغير، فيصبح صخرياً أكثر من قبل، وشجرة السنديان تحل محل شجرة البرتقال،

(ج) يرجى الانتباه، تغيير الأسماء.

وكان القطار الصغير يلهث لهاثاً يزداد قصراً، ويطلق دفقات كبيرة من البخار. وفجأة يبرد الطقس لأن الجبل كان يحجب الشمس عن المسافرين، حينئذ ويدركون أن الساعة لم تتجاوز السابعة. وفي النهاية، كان القطار يصفر للمرة الأخيرة، ثم يبطئ، ويأخذ متمهلاً منعطفاً لينفذ إلى محطة صغيرة وحيدة في الوادي لأنها لم تكن تخدم إلا مناجم بعيدة، وكانت مقفرة صامتة، وقد زرعت فيها أشجار صبار ضخمة كانت أوراقها على شكل منجل ترتعش في نسمة الصباح. كان النزول يتم في الضوضاء نفسها، فالكلاب تنزل بسرعة من المقصورة وقد قفزت إلى آخر درجتي القاطرة المنحدرتين، وكان الرجال يصطفون ثانية على شكل سلسلة لنقل الجعبات والبندقيات. ولكن، على باب المحطة، التي تطل مباشرة على المنحدرات الأولى، كان صمت الطبيعة الوحشية يغرق رويداً رويداً النداءات والصرخات، وتنتهي الجماعة الصغيرة بأن تصعد صامتة المرتفع والكلاب ترسم حولهم منعطفات لا تهدأ. لم يكن جاك يترك رفاقه البواسل يتجاوزونه. كان دانييل، مفضله، قد أخذ منه جعبته بالرغم من احتجاجاته، ولكن كان عليه مع ذلك أن يضاعف خطواته كي يبقى على صعيد الجماعة، وكان هواء الصباح الحاد يحرق رئتيه. أخيراً بعد ساعة من السير، كانوا يصلون إلى طرف هضبة فسيحة تظللها أشجار السنديان القزمة، والعرعر، بتموجات قليلة الوضوح، وعلى هذه الهضبة بسطت سماء فسيحة نضرة فضائها الشاسع وقد بدأت أشعة الشمس تصل إليها. كان هذا ميدان الصيد. كانت الكلاب، وكأنها قد تنبهت، عادت تتجمع حول الرجال، واتفقوا أن يلتقوا للغذاء، الساعة الثانية بعد الظهر، في غابة صنوبر صغيرة حيث كان نبع يمتاز بموقعه على طرف الهضبة ويشرف على الوادي وعلى السهل البعيد. كانت ساعات اليد تضبط. ويتجمع كل صيادين معاً، ثم ينادون كلبهم بالصفير ويذهبون في اتجاهات مختلفة. كان أرنست ودانييل يشكلان فرقة. ويتلقى جاك كيس الصيد، فيضعه بحذر على كتفه ويجعله يتدلى. كان أرنست، يعلن للآخرين عن بعد، أنه سيعود بأرانب وطيور الحجل التي يفوق عددها مااصطاده الجميع. فيضحكون، ويحييون باليد، ويختفون.

حينئذٍ يبدأ جاك يشعر بنشوة لازال يحتفظ في قلبه بالحنين المدهش إليها كان الرجلان يسيران بالارتفاع نفسه وقد ابتعد أحدهما عن الآخر مترين، والكلب يتقدمهما، أما هو فلقد كان دوماً في المؤخرة، وكان الخال بنظرته التي اصبحت فجأة وحشية ماكرة يتأكد دائماً أن جاك يحتفظ بمسافته، وتبدأ المسيرة الصامتة اللامتناهية، وسط الدغل حين كان ينطلق أحياناً صراخ حاد لعصفور مستنكر، ثم النزول في وهاد صغيرة ملأى بالروائح وكانوا ينزلونها إلى قعرها، ثم يصعدون ثانية نحو السماء، المشرقة، التي بدأت تشتد حرارتها، وكان ارتفاع الحرارة ينشف بسرعة كبيرة الأرض التي كانت لا تزال رطبة عند ذهابهم. كانت طلقات تدوي في الجهة الأخرى من الوادي، كما كان سرب من الحجل ترابي اللون يخفق خفقاناً جافاً وقد طارده الكلب، ثم تدوي طلقة

مزدوجة، تتكرر فوراً، ويهرب الكلب إلى الأمام ويعود وعيناه محمومتان من الجنون، وخطمه مخضب بالدماء وقد امتلأ بحزمة ريش، فيسرع أرنست ودانييل إلى انتزاعها منه، وفي اللحظة التالية، كان جاك يتلقى، وقد اعتراه مزيج من الهلع والإثارة، ماجلب الكلب من الضحايا الأخرى، حين رأوها تسقط، وكان نباح أرنست يختلط أحياناً بنباح بريان، ويبدأ التقدم من جديد، وقد بدأ جاك ينحني هذه المرة تحت وطأة الشمس بالرغم من قبعته الصغيرة من القش، بينما راحت الهضبة المجاورة تهتز بصمت مثل السندان تحت مطرقة الشمس، وكانت أحياناً تدوي ثانية طلقة أو طلقتان، لاأكثر، لأن صياداً واحداً فقط قد رأى أرنباً برياً أو أرنباً عادياً يهرب إلا أنه قد حكم عليه مسبقاً إذا كان في حيز هدف أرنست، الماهر دائماً كالقرد، وقد كان يركض هذه المرة بسرعة كلبه، وهو يصرخ مثله، ليأخذ الحيوان الميت من اطرافه الخلفية وليريه عن بعد لدانييل ولجاك، اللذين كانا يصلان مغتبطين ومتقطعي الأنفاس. كان جاك يفتح واسعاً كيس الصيد ليستقبل الغنيمة الجديدة قبل أن ينطلق ثانية، مترنحاً تحت الشمس، سيدته ، وهكذا طوال ساعات بلا حدود، على أرض بلا تخوم، كان جاك يشعر وقد فقد صوابه وسط النور المتواصل، وفضاء السماء الفسيح بأنه أغنى الأطفال قاطبة.

وفي طريق العودة نحو مكان موعد الغذاء، كان الصيادون لا يزالون يترقبون الفرصة، ولكن حماستهم كانت قد فترت. كانوا يجرون قدمهم، ويمسحون جبينهم، وكانوا جائعين. راحوا يصلون الواحد تلو الآخر، وكان يُري عن بعد كل واحد إلى الآخر، ما اصطاد، فيسخرون من الذين لم يصيبوا شيئاً، مؤكدين أن الأشخاص نفسهم هم الذين يرجعون دائماً بخفي حنين. والكل يروون معاً قصة صيدهم، وكان لدى كل واحد تفصيل جديد يضيفه. ولكن الشاعر المنشد الأكبر كان أرنست الذي كان ينجح بالتكلم وحده ويحاكي بحركات صائبة وقد اتخذ جاك ودانييل حاكمين على صدقه رحيل الحجل، والأرنب الهارب وقد قام بقوسين معقوفتين وتدحرج كالكرة على كتفيه مثل لاعب الركبي يسجل محاولة وراء خط الهدف. وفي أثناء ذلك، كان بيير المنهجي، يصب شراب اليانسون في الجعب المعدنية التي أخذها من كل واحد منهم وذهب يملؤها ماء عذبة من النبع الذي كان يجري ضعيفاً في سفح أشجار الصنوبر. وقد أقيم ما يشبه الطاولة مع قطع قماش، وأخرج كل واحد مؤنة. ولكن أرنست الذي كانت له مواهب طباخ (حفلات صيد السمك في الصيف كانت تبدأ دائماً بحساء السمك المتبل الذي يعده في مكان الصيد وكان يكثر من التوابل في هذا الحساء القادر أن يحرق لسان السلحفاة)، كما كان يعد عيداناً دقيقة يقلمها على شكل القرن، ويدخلها في قطع من النقانق التي أحضرها، وعلى نار خشب ضعيفة كان يشويها إلى أن تنفجر فيسيل على الجمر عصير أحمر ينكمش ثم يحترق. وكان يقدم النقانق المحترقة والمعطرة، بين قطعتي الخبز، وكان الجميع يستقبلونها بالترحيب والإعجاب ويأكلونها بنهم وهم

يشربون معها النبيذ الوردي الفاتح الذي كانوا قد وضعوه في النبع ليبرد، ثم تبـــدأ الضحكـــات، وقصص العمل، والممازحات التي كان جاك لا يكاد يسمعها لأن النعاس قد غلبه وتدبـــق فمـــه ويداه، وكان قذراً، منهكاً. ولكن، في الحقيقة، كان النعاس قد غلبهم كلهم، وخلال فترة كـــانوا يكبون، وهم ينظرون بشرود إلى السهل البعيد المغطى بضباب من الحرارة، أو، مثـــل أرنســـت، ينامون فعلاً، وقد غطوا وجههم بمنديل. ولكن، كان عليهم، في الساعة الرابعة، أن يترلوا ليـأخذوا القطار الذي يمر في الخامسة والنصف. ها قد جلسوا الآن في المقصورة، وقد تكوموا من التعـــب، وكانت الكلاب المنهكة تنام تحت المقاعد أو بين سوقهم، نوماً ثقيلاً تتخلله أحلام دمويـــة. وفي ضواحي السهل، بدأ النهار ينخفض، ثم أقبل الغسق الأفريقي السريع، وبدأ الظلام المثير للقلق فوق هذه المشاهد الواسعة، يهبط مباشرة. وفيما بعد، حين وصلوا إلى المحطة، كانوا مستعجلين ليعـودوا إلى منازلهم وليأكلوا ليناموا باكراً بسبب العمل في اليوم التالي، فكانوا يفترقون بسرعة، في الظلام، دون أن يتكلموا تقريباً ولكن مع ضربات بالكف تعبيراً عن الصداقة. كان جاك يسمعهم يتعدون، ويصغي لأصواتهم الخشنة والحارة، كان يحبهم. ثم كان يسير وراء أرنست، النشيط دائماً، بينمـــا كان هو يجر ساقه. وبالقرب من البيت، في الشارع المعتم، كان الخال يلتفت نحوه قائلاً : " هـــل أنت مسرور؟ " لم يكن جاك يجيب. كان أرنست يضحك وينادي كلبه بالتصفير. ولكن بعد عدة خطوات، كان الطفل يدس يده الصغيرة في يد خاله القاسية الخشنة، التي كانت تشد عليها بقـوة. وكانا يعودان هكذا، صامتين.

إلا أن[أ] - [ب] أرنست كان قادراً على ثورات غضب فورية ومطلقة بقدر ما كان قـــادراً على التمتع باللذات. إن استحالة رده إلى الصواب أو مجرد المناقشة معه كان يجعل غضبه يماثل تماماً ظاهرة طبيعية. فالعاصفة، يراها الناس تتشكل، وينتظرون انفجارها. لاشيء آخر يمكن عمله. كان أرنست، شانه شأن كثير من الصم، ذا حاسة شم متطورة جداً (إلاّ فيما يتعلق بكلبـــه). ولقـــد أعطته هذه الميزة كثيراً من اللذات، حين كان يشم حساء الحمص المكسر أو الأطعمة التي كـــان يحبها أكثر من أي شيء آخر، كالحبار في حبره، والعجة بالنقانق او طجين المعلاق، المعد من قلوب البقر ورئاتها، عوضاً عن طبق البرغوني[1] ، وكانت الجدة تنجح نجاحاً باهراً في طبخه. وكان هـذا الطبق نظراً لقلة كلفته، يُقدم غالباً على المائدة، أو حين كان أرنست ينضح كذلك يوم الأحـــد

(أ) تولستوي أو غوركي(١) **الأب** خرج من هذا المحيط دوستويمسكي (٢) **الابن** وقد عاد إلى الأصول أعطـــى كاتب العصر **الوالدة** .

(ب) السيد جيرمان – المدرسة الثانوية – الدين – موت الجدة – الانتهاء على يد أرنست.

(١) المعد من لحم البقر المتبل بالنبيذ والبصل (المترجمة).

بالكولونيا الرخيصة الثمن او بماء معطر يدعى [بومبرو] (كانت تستعمله والدة جاك أيضاً)، وكان عطره العذب والثابت المأخوذ من زهرة الطرنج يعبق طويلاً في غرفة الطعام وفي شعر أرنست، وكان يشم شماً عميقاً الزجاجة، ويبدو منتشياً ...

إلا أن حساسيته في هذه النقطة كانت تجلب له مشكلات أيضاً، فلقد كان لا يحتمل بعض الروائح التي لا تشمها الأنوف العادية البنية. فمثلاً، اعتاد أن يشم صحنه قبل أن يبدأ بالطعام، وكان يدخل في غضب جنوني حين يكتشف فيه ما يسميه برائحة البيض. كانت الجدة تأخذ بدورها الصحن المشكوك فيه، وتشمه، وتعلن أنها لم تشم أية رائحة فيه، ثم تعطيه لابنتها كي تشهد على ذلك. كانت كاترين كورمري تمرر أنفها المرهف على صحف الخزف، ودون أن تشم، تعلن بصوتها العذب، أن لا رائحة له. ثم كانتا تشمان الصحون الأخرى لتصدرا بشكل راسخ الحكم النهائي، ولم تكونا تشمان صحون الطفلين اللذين يأكلان في قصعات من الحديد. (وذلك لأسباب غامضة، ربما بسبب قلة الصحون أو كما ادعت ذات يوم الجدة، لتجنب التكسير، علماً بأنهما لم يكونا، هو وأخوه، أخرقي الأيد. ولكن التقاليد العائلية في غالب الأحيان ليس لها أساس متين، وإن علماء السلالات البشرية يثيرون ضحكي كثيراً ببحثهم عن سبب كثير من الطقوس الغامضة.

وإن السر الحقيقي، في كثير من الحالات، هو أنه ليس هناك سبب أبداً .) ثم كانت الجدة تلفظ الحكم: ليس له رائحة. وفي الحقيقة، لا يمكن أن تحكم أبداً خلاف ذلك، وخاصة إذا كانت هي التي قامت بجلي الصحون في العشية. ولم تكن تتساهل أبداً في مجال شرفها كربة بيت. حينئذ ينفجر غضب أرنست الحقيقي، ولا سيما أنه لم يكن يجد الكلمات ليعبر عن قناعته[أ] . كان عليهم ان يتركوا العاصفة تنفجر، وكان ينتهي به الأمر إما أن يحرد عن العشاء، أو ينقر بقرف في الصحن الذي غيرته الجدة، أو يترك المائدة وينطلق خارجاً وهو يعلن أنه ذاهب إلى المطعم، وهو نوع من منشأة، لم يضع فيها قدمه ، كذلك لأحد من الأسرة قد فعل ذلك، وإن كانت الجدة، في كل مرة يرتفع استياء على المائدة، كانت لاتتوانى أن تلفظ الجملة المشؤومة: " اذهب إلى المطعم".
كان المطعم يبدو للجميع حينئذٍ كنوع من الأماكن السيئة ذوي الإغراء الكاذب، حيث يبدو كل شيء سهلاً حين يستطيع الإنسان أن يدفع مالاً، ولكن المتع الأولى والآثمة التي يقدمها تدفع يوماً ما المعدة ثمنها غالباً.

على كل حال، لم تكن الجدة تجيب البتة على غضب ابنها الأصغر. لأنها كانت تعرف أن

(أ) مآسٍ صغيرة جداً .

هذا لايجدي نفعاً من جهة، ولأنها من جهة أخرى، كانت تشعر نحوه دائماً بضعف غريب، فسره جاك، حين بدأ يقرأ في هذا المجال، بأن أرنست كان معاقاً (في حين كان هناك أمثلة كثيرة، خلافاً لما يُعتقد، بأن الأهل يبتعدون عن الطفل المستضعف). تم فهم السبب بشكل أفضل بعد ذلك بكثير، ذات يوم، حين فاجأ جدته وهي تلقي بنظرتها المشرقة وقد رقت حناناً فجأة ولم ير قط هذا الحنان في عينيها، فالتفت ورأى خاله يلبس بزة طقمه الخاصة بيوم الأحد. لقد بدا أكثر نحافة بسبب القماش الغامق اللون، ووجهه مرهف وشاب، وقد انتهى من الحلاقة، وسرح شعره بعناية وقد لبس بشكل استثنائي ياقة جديدة، وربطة عنق، فكان مظهره كراع يوناني في ثياب جميلة. ظهر له أرنست كما كان، أي جميلاً جداً. وأدرك حينئذٍ أن الجدة تحب ابنها حباً جسدياً، وأنها كانت تعشق جاذبية أرنست وقوته، شأنها شأن كل الناس، وأن ضعفها الاستثنائي أمامه كان شعوراً عاماً مشتركاً، يضعفنا كلنا إلى حد ما، وبشكل عذب، ويساهم في جعل العالم محتملاً، إنه الضعف أمام الجمال.

كان جاك يذكر كذلك غضباً آخر للخال أرنست، كان هذا الغضب أكثر خطورة، لأنه كاد أن ينتهي بقتال مع الخال جوزيفان، الذي كان يعمل في السكك الحديدية. لم يكن جوزيفان ينام في بيت والدته (والحقيقة أين كان يمكن أن ينام؟). كانت له غرفة في الحي (غرفة لم يكن يدعو احداً من أسرته إليها فمثلاً جاك لم يرها قط) وكان يتناول طعامه عند أمه، ويدفع لها راتباً صغيراً. كان جوزيفان يختلف اختلافاً كبيراً جداً عن أخيه. كان يكبره بعشر سنوات، له شارب قصير وشعر واقف، كان أضخم من أخيه، وأكثر انطواء وبل أكثر حسباناً، وكان أرنست يتهمه عادة بالبخل. والحقيقة أنه كان يعبر عن ذلك بشكل أبسط، " هو مزابيطي"[1] . كان المزابيطيون بالنسبة إليه بقالي الحي، وقد أتوا فعلاً من مزاب وكانوا يعيشون طوال سنين كثيرة على الكفاف وبلا نساء، ينامون داخل دكاكينهم التي تنبعث منها رائحة الزيت والقرفة كي يقوموا بأود أسرتهم في مدن مزاب الخمس، وسط الصحراء، حيث قبيلة المارقين، وهم نوع من متزمتي الدين الإسلامي اضطهدتهم السنة حتى الموت، وحطوا رحالهم منذ قرون في مكان كانوا قد اختاروه لأنهم كانوا واثقين أن لاأحد ينازعهم عليه، ذلك أنه لم يكن في ذاك المكان إلا الحصى، بعيداً عن عالم الشاطئ شبه المتحضر بُعد كوكب متقشر وبلا حياة عن الأرض، وهناك أقاموا ليؤسسوا خمس مدن، حول نقاط ماء شحيحة، ولقد تخيلت هذه الجماعة المتقشفة أن ترسل إلى مدن الساحل رجالها الأصحاء ليشتغلوا في التجارة كي يحافظوا على خليقة الروح هذه والروح فقط، إلى أن يأتي آخرون ليحلوا

(١) مزابيطي: ساكن مزاب، ومزاب هي مجموعة واحات تقع في شمال الصحراء الجزائرية والمزابيطي هو مسلم يتبع طائفة منشقة متزمتة (المترجمة).

مكانهم وعندئذٍ يعودون ليتمتعوا بالعيش في مدنهم المحصنة من التراب والطين في المملكة التي حصلوا عليها أخيراً بإيمانهم. فالحياة البسيطة، وخشونة هؤلاء المزابيطيين لايمكن الحكم عليها إلا وفق أهدافهم العميقة. ولكن سكان الحي العمال، الذين كانوا يجهلون الإسلام وبدعه، لم يكونوا يرون إلا المظهر. فكان أرنست، شأنه شان كل الناس، يشبه أخاه بمزابيطي كما لو كان شبيهه بأرباغون[1] . وفي الحقيقة، فإن جوزيان كان حريصاً على ماله، على عكس أخيه الذي، كما كانت تقول الجدة، " كان قلبه على يده" (وصحيح أنها حين كانت غاضبة منه، تتهمه على العكس بأن يده "مثقوبة"). ولكن، إلى جانب اختلاف الطبائع، كان جوزيفان يربح مالاً أكثر بقليل من أرنست، وإن الإسراف أكثر سهولة في الفاقة. ويندر الأشخاص الذين يستمرون في التبذير حين يحصلون على مال وافر.

هؤلاء هم ملوك الحياة، ويجب الانحناء لهم احتراماً. لم يكن جوزيان ثرياً، ولكن، إلى جانب راتبه الذي يصرفه بتوفير ومنهجية (كان يمارس منهجاً يدعى منهج الظروف، ولكنه كان أبخل من أن يشتري ظروفاً حقة، فلقد كان يصنعها من ورق الجرائد أو من ورق البقالة)، ويحصل على عائدات اضافية بواسطة تدابير صغيرة محسنة الإعداد. ولما كان يشتغل في السكك الحديدية، فقد كان له الحق أن يسافر كل أسبوعين مجاناً. فكان يأخذ كل أحدين القطار ليذهب إلى ماكان يسمى "بالداخل" أي البلد، ويقطع المزارع العربية ليشتري بسعر منخفض، بيضاً، ودجاجاً هزيلاً أو أرانب. وكان يجلب هذه البضائع ويبيعها بربح وافر إلى جيرانه. كانت حياته منظمة على كل الأصعدة. لم تعرف له علاقات مع نساء. وعلى كل، فبين أسبوع العمل وأيام الآحاد المخصصة للتجارة، كانت تنقصه التسلية التي تقتضيها ممارسة المتعة. ولكنه كان قد أعلن أنه سيتزوج في الأربعين من امرأة لها وظيفة. وإلى ذاك الوقت، يبقى في غرفته، يجمع المال ويتابع العيش جزئياً عند أمه. وكم يبدو الأمر غريباً حين نعرف أنه لم يكن لديه سحر ولا جاذبية، ومع ذلك، فلقد نفذ مخططه كما قال وتزوج أستاذة بيانو جميلة، ومنحته خلال عدة سنوات على الأقل، أثاث البيت، والسعادة البرجوازية.

وصحيح أن جوزيفان كي يصفي الوضع، احتفظ بالأثاث وترك الزوجة. ولكن لهذا قصة أخرى، والشيء الوحيد الذي لم يتوقعه جوزيفان، هو اضطراره في الوضع الذي وجد فيه، بعد خصامه مع أتيين، ألا يتناول طعامه عند أمه وأن يلجأ إلى ملذات المطعم الباهظة الثمن. لم يكن جاك يتذكر اسباب الكارثة. كانت خصومات غامضة تقسم احياناً أسرته، و لم يكن احد قادراً أن يوضح مصادرها. وكذلك فإن الذاكرة كانت تخون الجميع، لا أحد كان يتذكر الأسباب، كانت

---

(١) أرباغون: بطل ملهاة البخيل لموليير (المترجمة).

تقتصر على الحفاظ بشكل آلي على الأثر الذي قُبل واجتُر وبقي دون مناقشة. كان يتذكر فقط من أحداث ذاك اليوم، أن أرنست قد انتصب أمام المائدة التي كانت لا تزال معدة وراح يصرخ مسبات غير مفهومة، ماعدا مسبة المزابيطي على أخيه الذي بقي جالساً مستمراً في الأكل. ثم صفع أرنست أخاه الذي نهض فدُفع إلى الوراء قبل أن يهجم عليه. ولكن الجدة تمسكت بأرنست، وكانت أم جاك، وقد شحبت من الانفعال، تجر جوزيفان من الخلف. كانت تقول: " دعه، دعه" والطفلان شاحبان وفماهما مفتوحان، ينظران دون حراك، ويسمعان سيل الشتائم الغاضبة التي كانت تتدفق باتجاه واحد، إلى أن قال جوزيفان بهيئة مقطبة: " إنه حيوان فظ. لايمكن تغييره"، وقام بالدوران حول الطاولة، بينما كانت الجدة تمسك أرنست الذي كان يريد أن يركض وراء أخيه. وبعد أن صفق الباب، بقي أرنست هائجاً. كان يقول لأمه: " دعيني، دعيني، سأؤلمك". ولكنها أمسكته من شعره وهزته: " أنت، أنت، ستضرب أمك ؟ " وسقط أرنست على كرسيه وهو يبكي: " كلا، كلا، ليس أنت، أنت كالإله بالنسبة إلي! ". كانت أم جاك قد ذهبت لتنام دون أن تنهي أكلها، وفي اليوم التالي، أصيبت بصداع في رأسها. ومنذ ذاك اليوم، لم يرجع جوزيفان البتة، إلا من وقت لآخر حين كان متأكداً أن أرنست غائب، ليزور أمه.

ثمة[1] غضب آخر لم يكن جاك يريد أن يتذكره لأنه لم يكن يرغب، هو، في معرفة السبب. طوال فترة، كان السيد أنطوان، أحد معارف أرنست البعيدين، بائع سمك في السوق، من أصل مالطي، ذا مظهر جميل، نحيل وطويل، وكان يلبس دائماً نوعاً من قبعة غريبة، على شكل بطيخة، قاتمة اللون وكذلك منديلاً ذات خطوط مربعة ملفوفة بربطة حول عنقه، داخل قميصه، يتردد بانتظام مساء، قبل العشاء، على البيت. ولقد لاحظ جاك، فيما بعد حين فكر في ذلك، ما لم يلفت نظره لأول وهلة، ذلك أن أمه كانت تلبس ثياباً أكثر أناقة، وتضع صداري فاتحة اللون كما بدا شيء من الحمرة الخفيفة على وجنتيها. في هذه الفترة بدأت النساء يقصصن شعورهن التي كانت طويلة حتى ذاك الوقت. على كل حال كان جاك يحب أن يتأمل أمه أو جدته حين تقومان بتسريح شعرهما. كانتا تضعان منشفة على كتفيهما، وقد امتلأ فماهما بالدبابيس، وكانتا تسرحان مطولاً الشعر الطويل الأبيض أو البني، ثم كانتا ترفعانه، وتسحبان ضفرات مسطحة مشدودة جداً حتى مؤخرة الرأس على الرقبة، ويثقبن هذه الضفرات بالدبابيس، التي يسحبنها الواحدة تلو الأخرى" من فمهما، وقد انفرجت شفاههما وشدت أسنانهما، ثم تغرزان الدبابيس الواحد تلو الآخر في كتلة الشعر السميكة في أسفل الرأس. كان الطراز الجديد يبدو معاً مثيراً للسخرية ومذنباً في حق الجدة التي كانت، وقد أساءت تقدير القوة الحقيقية للطراز، تؤكد دون أن تهتم بالمنطق أن النساء اللواتي "يستسلمن للملذات" حصراً يقبلن أن يصبحن مثار سخريه على هذا النحو. كانت أم جاك

---

(١) الأسرة أرنست وكاترين بعد موت الجدة.

قد صدقت هذا الكلام واحترمته، إلا أنها، بعد سنة، في فترة زيارات أنطوان، على مايدو، عادت، ذات مساء، وشعرها مقصوص، متجددة الشباب نضرة، وهي تعلن بمرح مصطنع ينفذ منه القلق أنها أرادت أن تجعل ذلك مفاجأة لهم.

وفعلاً، كان هذا مفاجأة للجدة التي اكتفت ، وهي تنظر إليها بازدراء وتتأمل الخراب الذي لا يمكن إصلاحه، بأن قالت لها، أمام ابنيها، إنها تبدو الآن كمومس. ثم عادت إلى مطبخها. توقفت كاترين كورمري عن الابتسام، وبؤس العالم كله وإعياؤه ارتسما على وجهها. ثم التقت بنظرة ابنها الثابتة، فحاولت أن تبتسم ثانية، ولكن شفتيها راحتا ترتجفان فأسرعت وهي تبكي إلى غرفتها، مستلقية على سريرها الذي بقي ملجأها الوحيد لراحتها، ولعزلتها ولأحزانها. اقترب جاك منها، وقد ذهل. كانت قد طمرت وجهها في الوسادة، وكانت خصل الشعر القصيرة التي تكشف عن الرقبة والظهر النحيل تهتز من شهقاتها. قال لها جاك وهو يلمسها بيده خجلاً " ماما، ماما، أنت جميلة جداً هكذا ". ولكنها لم تسمع، وبحركة من يدها، طلبت منه أن يتركها. تراجع جاك حتى وصل إلى عتبة الباب، وراح هو أيضاً، وقد استند على إطار الباب، يبكي عجزاً وحباً *

لم توجه الجدة الكلام إلى ابنتها، طوال أيام كثيرة متتالية، وفي الوقت ذاته، حين كان يأتي أنطوان، كان يستقبل بفتور كبير. وكان يبدو أرنست خاصة مقطب الوجه صامتاً. وكان أنطوان يشعر بذلك تماماً، بالرغم من تبجحه وحسن حديثه. ماذا حدث في ذاك الوقت؟ رأى جاك مرات كثيرة آثار دموع في عيني أمه الجميلتين. كان أرنست يلزم الصمت في أغلب الأحيان وحتى بريان لم ينجُ من سوء معاملته. وذات أمسية من أمسيات الصيف، لاحظ جاك أن أرنست قد بدا يترقب شيئاً ما في الشرفة. سأل الطفل: " هل سيأتي دانييل؟ " دمدم الآخر. وفجأة رأى جاك أنطوان مقبلاً، وكان قد انقطع عن المجيء منذ أيام كثيرة. فاندفع أرنست، وبعد ثوان، تناهت من الدرج ضجة مكتومة. خرج جاك مسرعاً فرأى الرجلين يتقاتلان في الظلام دون أن يقولا كلمة. كان أرنست، دون أن يشعر بالضربات، يضرب ويضرب بقبضتيه، القاسيتين كالحديد، وفي اللحظة التالية كان أنطوان يتدحرج إلى أسفل السلم، ثم نهض وقد امتلأ فمه بالدماء، فأخرج منديلاً ليمسح دمه، دون أن يكف عن النظر إلى أرنست الذي انطلق كالمجنون. وحين عاد جاك، وجد أمه في غرفة الطعام جالسة، بلا حراك، وقد تجمدت تقاسيمها. فجلس هو أيضاً دون أن ينبس ببنت شفة[أ] . ثم رجع أرنست وهو يدمدم شتائم ويلقي نظرة سخط على أخته. جرى العشاء كالمعتاد، إلا أن أمه لم تأكل شيئاً. قالت فقط لأمها التي كانت تلح: " لست جائعة "، وبعد انتهاء

* دموع حب عاجز.

(أ) سرد هذا النص قبل ذلك بكثير - عراك بدون لوسيان.

الطعام، ذهبت إلى غرفتها. وفي الليل استيقظ جاك، فسمعها تتقلب في سريرها. ومنذ صباح اليوم التالي، عادت إلى ثيابها السوداء أو الرمادية، وإلى مظهرها الصارم والفقير. كان جاك يجدها جميلة أيضاً، لابل أجمل من الماضي بسبب البعد والشرود اللذين قد ازدادا، وقد استقرت الآن وإلى الأبد في الفقر، والوحدة والشيخوخة القادمة[ب] .

حقد جاك طويلاً على خاله، دون أن يعرف بدقة ماكان يمكن أن يلومه عليه. ولكن، كان يعرف، في الوقت نفسه، أنه لايمكن أن يلومه وأن الفقر، والعاهة، والفاقة الأولية التي كانت تعيش فيها الأسرة كلها، كل ذلك إن كان لايبرره تماماً، فقد كان يمنع على كل حال أية إدانة للذين هم ضحايا هذا الوضع.

كان كل واحد يؤلم الآخر دون أن يرغب في ذلك ولأن كل واحد كان بالنسبة للآخر ممثلاً فقط للعوز القاسي والمدقع للذين كانوا يعيشون فيه. وعلى كل حال، لم يكن يستطيع أن يشك في تعلق خاله شبه الحيواني بالجدة أولاً ومن ثم بأم جاك وبولديها. لقد شعر به، هو، يوم الحادث في معمل البراميل[ج] . وبالفعل كان جاك يذهب، كل يوم خميس، إلى معمل البراميل. فإن كان لديه وظائف، فلقد كان ينجزها بسرعة كبيرة ويركض مسرعاً إلى الورشة، بالغبطة نفسها التي كانت تعتريه في الماضي للقائه برفاق الشارع. كانت الورشة تقع بالقرب من ساحة مناورات التشغيل. كانت عبارة عن باحة ملأئ بالنفايات، وبأطواق حديد قديمة، وبخبث الحديد، وبنيران مطفأة. وعلى أحد الجوانب، بني نوع من السقف بقرميد تحمله على مسافات منتظمة عواميد من الأحجار غير المنحوتة، كان العمال الخمسة أو الستة يشتغلون تحت هذا السقف. وكان لكل واحد مبدئياً مكانه، أي منضدة عمل على الحائط وأمامه فسحة خالية. هناك يمكن تركيب البراميل الصغيرة منها والضخمة، وكان يفصل المنضدة عن الساحة المجاورة، نوع من مقعد بلا ظهر أحدث فيه شق واسع ليدخلوا فيه قعر البرميل وليشحذوه باليد بواسطة آلة تشبه إلى حد كبير الفرامة إلا أن طرفها الحاد كان من جهة الرجل الذي يمسك بالمقبضين.

في الحقيقة لم يكن هذا التنظيم جلياً للعيان. فتوزيع العمل قد تم، طبعاً، في البدء، على هذا الشكل، ولكن تغيرت أماكن المقاعد شيئاً فشيئاً، وتكومت أطواق بين منضدات العمل، وكانت

(ب) لأن الشيخوخة مقبلة – وجد جاك في ذاك الوقت أن أمه قد شاخت و لم يكن عمرها يتجاوزه عمره الآن، ولكن الصبا هو اولاً مجموعة إمكانيات، وبالنسبة له فلقد كانت الحياة سخية [مقطع مشطوب، ملاحظة الناشرة].

(ج) وضع معمل البراميل قبل الغضب وربما حتى في مطلع وصف أرنست.

صناديق الدسر والمسامير تجرجر من مكان إلى آخر، وكان يلزم ملاحظة طويلة، أو بالمعنى ذاته أي ارتياد طويل ليلاحظ المرء ان حركات كل عامل كانت تتم دائماً في المجال نفسه. كان جاك قبل أن يصل إلى الورشة ليحضر لخاله طعاماً خفيفاً، يتعرف على ضربات المطرقة على الأزاميل التي كانت تستعمل لإدخال أطواق الحديد حول البراميل وقد جمعت أضلاعها، وكان العمال يطرقون على أحد طرفي الإزميل بينما يمررون بجهة الطرف الآخر حول الطوق أو كان يحزر عند سماعه ضجة أقوى، أكثر تباعداً أن العمال على وشك دسر الأطواق الداخلة في مِلزم منضدة العمل. حين كان يصل إلى الورشة وسط صخب المطرقات، كان يستقبل بتحية فرحة، وتُستأنف رقصة المطرقات. كان أرنست وقد لبس بنطالاً عتيقاً أزرق مرقعاً، وخفين مغطيين بالنشارة، وقميصاً قطنياً رمادي اللون بلا أكمام، كما لف رأسه بشاشية باهتة اللون تحمي شعره الجميل من النشارة والغبار، فيقبله ويعرض عليه أن يساعده.

كان جاك يمسك، احياناً، الطوق الموضوع على السندان الذي يحصره في عرضه، بينما كان الخال يطرق بالباع والذراع ليسحق الدسار. كان الطوق يهتز في يدي جاك، وكانت كل ضربة مطرقة تحفر راحتيه، وبينما كان أرنست يجلس مباعداً ما بين رجليه على أحد طرفي المقعد، كان جاك يجلس بالطريقة نفسها على الطرف الآخر، وهو يشد على قعر البرميل الذي كان يفصلهما بينما راح أرنست يشحذه. إلاّ أنه كان يفضل أن يحمل اضلاع البرميل وسط الباحة كي يجمعها أرنست بخشونة وهو يمسكها بطوق مرره في وسطها. وسط البرميل المفتوح من الجهتين. كان أرنست يجمع نشارة، وعهد إلى جاك باضرام النار فيها. كانت النار تمدد الحديد أكثر من الخشب، وكان أرنست يستفيد من ذلك كي يدخل الطوق بشكل أعمق بواسطة ضربات كبيرة من إزميله ومطرقته، وسط الدخان الذي كان يدمع أعينهما. وحين يُدخل الطوق، كان جاك يحضر الدلاء الخشبية الكبيرة التي كان قد ملأها ماءً بالمضخة في آخر الباحة، كان الجميع يتعدون ويقذف أرنست الماء بعنف على البرميل، مبرداً الطوق بذلك، ذلك الطوق الذي يضيق فيشد بقوة على الخشب الذي طراه الماء، وسط انبعاث بخار شديد" [أ] .

كانت تترك الأشياء في وضعها المثلم لأكل طعام خفيف، وكان العمال يجتمعون حول نار النشارة والخشب في الشتاء، وفي ظل السقف في الصيف. كان هناك عبدر، العامل العربي المبتدئ الذي كان يلبس بنطالاً عربياً يتدلى قعره على شكل ثنيات وتنتهي ساقاه في منتصف بطة ساقه، وسترة عتيقة فوق قميص من الصوف الرث وشاشية، وكان بلهجته الغريبة يسمي جاك "زميلي" لأنه كان يؤدي العمل نفسه الذي كان يقوم به جاك حين يساعد أرنست. كان رب العمل،

(أ) انهاء البرميل.

السيد [   ] [1] ، في الواقع عامل براميل عجوزاً كان ينفذ مع مساعديه طلبـــات لمصنـــع براميل بجهول اسمه وأكثر أهمية. كان هناك عامل إيطالي دائم الحزن ومصاب بالرشح على الدوام. ودانييل المرح، وخاصة الذي كان يأخذ جاك دائماً إلى جهته، كي يمازحه، أو يداعبه. كان جـاك يهرب، ويتسكع في الورشة، بصدريته السوداء المغطاة بالنشارة، وبقدميه الحـــافيتين في صندلـــين رديئين، عندما يكون الطقس حاراً، وقد تغطس صندلاه بالتراب وبالنشارة، وكان يستنشق ببهجة رائحة النشارة، كما كان يستنشق رائحة البراية الأكثر نضارة، ثم يعود إلى النار ليستنشق الدخـان اللذيذ الذي يفلت منه أو يجرب آلة شد القعر بحذر، على قطعة من الخشب يحصرها في الملزمـــة، وكان يتمتع بمهارة يديه التي كانت موضع ثناء كل العمال.

في إحدى الاستراحات هذه انتصب جاك بغباء على المقعد بنعليه المبللين. وفجأة انزلـــق إلى الأمام، بينما كان المقعد ينقلب إلى الوراء، سقط بكل ثقله على المقعد في حين كانت يده اليمـــنى تنضغط تحت المقعد. أحس فوراً بألم غير حاد في يده، ولكنه نهض فجأة وهو يضحك أمام العمال الذين تراكضوا كلهم نحوه. ولكن، قبل أن ينتهي من ضحكه، انقض عليه أرنست، وأخذه بـــين ذراعيه وأسرع خارج الورشة، وهو يركض متقطع الأنفاس متمتماً: " إلى طبيب، إلى طبيـــب". حينئذٍ الاصبع الوسطى في يده اليمنى قد سحقت تماماً في نهايتها كعجينة قذرة وعديمة الشـــكل، وكانت الدماء تقطر منها. فجأة خارت قواه وأغمى عليه. لم تمضِ خمس دقائق، إلا وكانا لـــدى طبيب عربي يسكن مقابل بيتهم. كان أرنست يقول وقد أصبح باهت اللون شاحباً " هذا لاشيء، أيها الطبيب، هذا لاشيء، أليس كذلك؟ " قال الطبيب: " هيا انتظرني في الغرفة المجاورة، سيكون شجاعاً ". كان الوضع يقتضي شجاعة كبرى، وإلى اليوم تشهد اصبع جاك الوسطى المرقعة علـــى ذلك. ولكن، ماأن وضعت القطب وانتهى التضميد، حتى منحه الطبيب مع دواء منشط شـــهادة شجاعة. إلاّ أن أرنست أراد حمله أيضاً لقطع الشارع، وفي سلم بيتهم، راح يقبل الطفل وهو يئن ويضمه إلى صدره إلى درجة آلمته.

قال جاك: " أماه، الباب يدق.

قالت أمه: إنه أرنست، هيا افتح له. إني أغلق الآن الباب بسبب قطاع الطرق ".

على عتبة الباب، أطلق أرنست، كما اكتشف جاك، صرخة تعجب، شيئاً ما يشبه "هـــاو" بالإنكليزية، وقبله وهو يشد قامته.. فبالرغم من شعره الذي ابيض تماماً، فلقد احتفـــظ وجهـــه

١- اسم غير مقـــروء .

بشباب مدهش، ولا زال منتظم التقاطيع متناسقاً. إلا أن الساقين المعوجتين قد ازدادتا تكوراً، وأصبح ظهره منحنياً تماماً، وكان أرنست يسير وهو يبعد ذراعه وساقيه. سأله جاك "هل الأمور على مايرام؟ ". كلا، كان يشكو من نقاط ومن آلام رثوية، كان هذا سيئاً، وجاك؟ أجل، كان كل شيء على مايرام، كان قوياً، وهي (وأشار باصبعه إلى كاترين) كانت سعيدة بلقائه. فمنذ موت الجدة ورحيل الأولاد، كان الأخ والأخت يعيشان معاً ولا يستطيع أحد منهما أن يستغني عن الآخر. هو كان يحتاج إلى أن يهتم أحد به، ومن وجهة النظر هذه كانت امرأته، تعد الطعام، وتهيئ الملابس، وتعتني به حين يمرض. لم تكن تحتاج إلى المال، لأن ابنيها كانا يقومان بأودها، بل كانت تحتاج لرفقة رجل، وكان يسهر عليها على طريقته منذ سنين عاشاها، أجل، كزوج وزوجة، ليس برابطة الجسد ولكن برابطة الدم، وهما يتعاونان على العيش نظراً لأن عاهاتهما كانت تجعل حياتهما شاقة جداً، وهما يتابعان محادثة صامتة تضيؤها من وقت لآخر نتف جمل، ولكن كان كل واحد منهما يعرف الآخر حق المعرفة أكثر من أي زوجين طبيعيين. كان أرنست يقول: "أجل، أجل، جاك، جاك، دائماً تتكلم - حسناً - هاهو ذا " قال جاك. وبالفعل، هاهو ذا الآن يجد نفسه بين الاثنين كما في الماضي، لايستطيع أن يقول لهما شيئاً ولا يكف أبداً عن محبتهما، كانا هما على الأقل، يتيحان له أن يحبهما بكل طاقته في حين أنه كم من مرات عجز أن يحب أشخاصاً يستحقون حبه.

" ودانييل ؟

- إنه بخير، إنه عجوز مثلي، بييرو أخوه في السجن.

- لماذا ؟

- بقول النقابة. أنا أظن أنه مع العرب ".

وفجأة، بدا قلقاً :

" قل، قاطعو الطرق، هذا حسن؟

- قال جاك، كلا، بقية العرب نعم، قاطعو الطرق كلا.

- حسناً، قلت لأمك: أرباب العمل قساة جداً. كان الأمر فظيعاً معهم أما مع قاطعي الطرق فهذا غير ممكن.

قال جاك: هذا مافي الأمر. ولكن يجب فعل شيء ما من أجل بييرو.

- طيب، سأقول لدانييل.

- ودونات؟ (كان موظف الغاز الملاكم .)

- لقد مات. سرطان كلنا طاعنون في السن".

- أجل، مات دونات. والخالة مرغريت، أخت أمه، ماتت أيضاً، كانت جدته تجره عندها يوم الأحد بعد الظهر وهناك كان يضجر ضجراً فظيعاً، إلاّ مع الخال ميشيل، الذي كان سائق عربة والذي كان يسأم هو أيضاً من هذه الأحاديث في غرفة الطعام المعتمة، حول كاسات القهوة السوداء على قماش الطاولة المشمع، فكان يأخذه إلى اصطبله القريب، وهناك، في شبه العتمة،

حيث كانت شمس بعد الظهر تُسخن الشوارع في الخارج بقيظها، كان يشم أولاً رائحة الوبر الطيبة، والقش والروث، ويسمع سلاسل الزمام تحتك بالمعلف الخشبي بقوة، وكانت الخيول تدير نحوهما عيونهما ذات الأهداب الطويلة، والخال ميشيل، الطويل، النحيل، بشاربيه الطويلين والذي كانت تنبعث منه هو أيضاً رائحة القش، يرفعه على إحدى الخيول، الهادئة، التي تغطس ثانية في معلفها وتمضغ من جديد خرطلها بينما كان الخال يُحضر للطفل خرنوباً يعلكه ويمصه بلذة، ويغمره شعور بالصداقة نحو هذا الخال المرتبط في ذهنه بالخيول، فلقد كان يذهب معه في غد الفصح (الاثنين) وكذلك مع العائلة بأسرها لتمضية "يوم المنى" في غابة سيدي - فروش، وكان ميشيل يستأجر إحدى هذه الحافلات العامة التي تجرها الأحصنة والتي كانت تنقل الناس من الحبي الذي يسكنون فيه إلى وسط مدينة الجزائر، كانت عبارة عن قفص كبير ذي حواجز شبكية فوش بمقاعد، يستند كل واحد إلى ظهر الآخر، تُربط مع الأحصنة، وكان ميشيل يختار من اصطبله حصان المقدمة، وكانوا يعبئون من الصباح الباكر الحافلة بسلات الغسيل الضخمة وقد امتلأت بفطائر كبيرة تدعى المنى وبحلوى خفيفة هشة تدعى " قبعة الأذن" وكان كل نساء البيت يصنعنها عند الخالة مرغريت طوال يومين قبل النزهة على القماش المشمع وقد غطي بالطحين حيث كن يبسطن العجينة بمرقاق إلى أن تغطي كل الغطاء، ثم بدولاب صغير على شكل مصقل، كانوا يقطعون الحلوى ثم يحملها الأولاد على صوانٍ للطبخ ويلقونها في دسوت ضخمة من الزيت المغلي لصفها بعد ذلك بحذر في سلات الغسيل الضخمة، حيث كانت تصعد رائحة الفانيل الشهية التي ترافقهم طوال رحلتهم حتى سيدي - فروش، وتختلط معها رائحة الرذاذ التي تصل من البحر حتى طريق الشاطئ، وقد ابتلعتها بقوة الجياد الأربعة التي كان ميشيل(١) يفرقع السوط فوقها، ويعطيه من وقت لآخر إلى جاك الجالس قربه، والذي ذهل من الأرداف الأربعة الضخمة التي كانت تتبختر تحته محدثة ضجة كبرى بجلاجلها أو كانت تتكشف حين يرتفع ذيلها، وكان يرى روثها الشهي يتقولب ثم يقع على الأرض بينما كانت الحدوات تلمع والجلاجل ترسل جلجلتها عندما كانت الجياد تهز رؤوسها في الغابة، بينما كان الآخرون يضعون بين الأشجار سلات الغسيل والبسط، كان جاك يساعد ميشيل بتجفيف عرق الجياد وبتعليق المعالف المصنوعة من قماش بني في رقبتها وكانت تأكل فيها، فاتحة عينيها الواسعة الودية ومغمضة إياها، أو طاردة ذبابة برجل جزعة. كانت الغابة مكتظة بالناس، وكان كل واحد يأكل فوق الآخر، ويرقص الناس من سلحة إلى أخرى على أنغام الأكورديون أو الغيتار، والبحر يهدر قريباً، ولكن لم تكن الحرارة تسمح أبداً بالسباحة إلا أن الطقس كان معتدلاً مما يسمح بأن نمشي حفاة في موجات الشاطئ، بينما كان الآخرون ينامون بعد الغداء، وكان النور الذي قد بدأ يخفت بشكل غير ملحوظ، يجعل حيز السماء أكثر فسحة، أجل، يجعلها فسيحة جداً حتى إن الطفل كان يشعر بالدموع تتصاعد من أعماقه يرافقها في الوقت ذاته صرخة عظيمة من الفرح والشكر للحياة الرائعة. ولكن الخالة

---

(١) استرجاع ميشيل خلال الهزة الأرضية لأورليانفيل.

مرغريت قد ماتت، هي التي كانت جميلة جداً وحسنة الهندام، لدرجة التأنق المبالغ فيه، كما كان يقال، و لم تخطئ في ذلك لأن مرض السكري قد سمرها في مقعدها، حيث راحت تنتفخ في شقتها المهجورة إلى أن أصبحت ضخمة ومتورمة حتى إنها كانت تتنفس بصعوبة بالغة أحياناً، وقد أصبحت قبيحة المنظر لدرجة مفزعة وأحاطت بها بناتها وابنها الأعرج الإسكافي، الذي كان يراقب، منقبض القلب، إن كانت ستختنق [أ-ب]، وكانت تزداد ضخامة، وقد أعطيت جرعات كبيرة من الأنسلين، دواء السكري، وفي النهاية ماتت اختناقاً [ج].

ولكن الخالة جان أخت والدته، قد ماتت هي الأخرى، التي كانت تحضر الحفلات الموسيقية يوم الأحد بعد الظهر والتي قاومت طويلاً في مزرعتها المطلية بالكلس الأبيض، وسط بناتها الثلاث، أيامي الحرب، والتي كانت تتحدث دائماً عن زوجها المتوفى منذ زمن طويل [ء]، والخال جوزيف الذي لم يكن يتكلم إلاّ لغة ماهون والذي كان يعجب به جاك بسبب شعره الأبيض الذي يعلو وجهه الجميل الوردي، وبسبب قبعته الإسبانية السوداء التي يلبسها حتى على المائدة، وكان ذا مظهر نبيل لامثيل له، ويبدو شيخاً قروياً جليلاً حقاً، وقد يحدث له أن ينهض قليلاً خلال الطعام ليرسل فظاظة مدوية يعتذر عنها بلباقة أمام ملامات مستسلمة من زوجته. أما جيران جدته، آل ماسون، فلقد ماتوا كلهم، أولاً المرأة العجوز ثم تلتها الأخت البكر، ألكسندرا الكبيرة، و [ ] [(1)] الأخ ذو الأذنين البارزتين الذي كان بهلوانا وكان يغني في حفلات سينما الكازار الصباحية. كلهم ماتوا، أجل، حتى أصغر الفتيات مارت، التي كان يغازلها أخوه هنري، بل ذهب أبعد من ذلك.

لم يعد أحد يتكلم عنهم. لم تعد أمه ولا خاله يتكلمان عن الأهل الموتى. ولا عن هذا الأب الذي كان جاك يتعقب آثاره، ولا عن الآخرين. كانا يستمران في العيش عيشة بسيطة وإن لم يكونا الآن في عوز، ولكنهما كانا قد تعودا التقشف، وكذلك كان لديهما حذر مستسلم أمام الحياة، التي كانا يحبانها بشكل فطري ولكنهما كانا يعرفان بالتجربة أنها تلد بانتظام المصيبة دون أن تعطي إشارات بأنها كانت تحملها[(أ)]. ثم، كما كانا كلاهما حوله، صامتين متجمعين على ذاتهما خاليين من الذكريات ومخلصين فقط لبعض الصور المعتمة، كانا يعيشان الآن في جوار الموت، أي دائماً في الحاضر. لن يعرف أبداً منهما من كان أبوه، وإن كانا بالرغم من ذلك، بمجرد حضورهما، يثيران فيه منابع نضرة نابعة من طفولة فقيرة وسعيدة، لم يكن واثقاً من أن هذه الذكريات الغنية جداً، والمتدفقة بقوة في داخله كانت حقاً أمينة للطفل الذي كان. على العكس، كان عليه بشكل

أ – الكتاب السادس في القسم الثاني.

ب – كما ان فرنسيس قد ماتت أيضاً (مراجعة الملاحظات الأخيرة).

ج – تركتهم دونيز وهي في السنة الثامنة عشرة لتستسلم إلى متع الحياة – عادت من الحادية والعشرين وقد اثرت، ثم باعت مجوهراتها وأعادت بناء اصطبل أبيها – قتلها وباء.

ء – والبنات ؟

(١) اسم غير واضح.

(أ) ولكن هل كانوا وحوشاً فعلاً؟ (كلا كان هو الوحش).

أكثر متانة أن يبقى على صورتين منفصلتين أو ثلاث كانت تجمعه بها، تذيبه فيها، تحذف ماكان قد حاول أن يكون طوال سنوات كثيرة وتحوله أخيراً إلى الكائن المجهول والأعمى الذي استمر في العيش سنوات كثيرة من خلال أسرته والذي كان يصنع نبلها الحقيقي.

وإحدى هذه الصور كانت صورة أمسيات القيظ حيث كانت أسرته كلها تُنزِّل الكراسي بعد العشاء على الرصيف أمام باب البيت، كان هواء معفر وحار ينزل عليهم من أشجار التين المغبرة، بينما كان أهل الحي يروحون ويغدون أمامهم، وقد أسند جاك رأسه على كتف أمه النحيل، وقد انقلب كرسيه قليلاً إلى الوراء، وهو ينظر من خلال الأغصان إلى نجوم سماء الصيف، أو مثل هذه الصورة الأخرى لليلة عيد الميلاد حين رجعوا، من دون أرنست، من عند الخالة مرغريت بعد منتصف الليل، رأوا أمام المطعم بالقرب من بابهم رجلاً مستلقياً، وقد راح يرقص حوله شخص آخر. فالرجلان الثملان، أرادا أن يستمرا في الشرب. ولكن صاحب المطعم، وهو رجل شاب، هزيل أشقر قد طردهما. ضربا بأقدامهما صاحبة المطعم التي كانت حاملاً. فأطلق صاحب المطعم الرصاص عليهما. استقرت رصاصة في صدغ الرجل الأيمن. كان الرأس يرقد الآن جريحاً. راح الآخر يرقص حوله وقد سكر من الكحول ومن الهلع، وبينما كان المطعم يغلق أبوابه، هرب الجميع قبل وصول الشرطة. وفي هذا الركن المتروي من الحي، ضم كل واحد الآخر إلى صدره، وكان الامرتان تضمان الولدين بقوة إليهما، والضوء الخافت ينير أرض الشارع وقد ملأته بالطين الأمطار التي سقطت حديثاً، كانت السيارات تنزلق طويلاً على الأرض المبللة. وكانت الحافلات المدوية والمنّورة تصل وقد تباعد مرورها، وهي مكتظة بالمسافرين المرحين غير المهتمين بهذا المشهد الذي بدا لهم كأنه آت من عالم آخر، كل ذلك كان يحفر في قلب جاك المذعور صورة مازالت حية وحدها بينما امّحت الصور الأخرى : إنها صورة الحي العذبة والملحة، هذا الحي الذي هيم على اليوم كله بما فيه من براءة وجشع، ولكن نهاية اليوم تجعله فجأة غامضاً ومقلقاً، حين تبدأ شوارعه تحفل بالخيال، أو بالأحرى حين يظهر فجأة شبح مجهول، يكشف عنه وطء أقدام مكتوم وهمهمة أصوات، وقد غمرته هالة مخضبة من النور الأحمر المنبعث من فانوس الصيدلية، فيركض الطفل فجأة وقد امتلأ قلبه بالقلق، نحو البيت الفقير ليلاقي فيه أهله.

الفصل السادس

المدرسة[1]

لم يعرف ذاك الرجل[أ] أباه، ولكنه غالباً ماكان معلمه يحدثه عنه بشكل أسطوري إلى حد ما، وفي جميع الأحوال، عرف أن يقوم مقام هذا الأب، في فترة محددة من حياته. لذا لم ينسه جاك أبداً، كما لو أنه لم يشعر فعلاً بغياب أب لم يعرفه مطلقاً، تعرف مع ذلك لاشعورياً، حين كان طفلاً أولاً، ثم طوال حياته، على البادرة الأبدية الوحيدة، الرشيدة والجازمة، التي تدخلت في حياته كطفل. لأن السيد برنار، معلمه في صف الشهادة الابتدائية، قد أثر بكل ثقله كرجل، في فترة ما، ليغير مصير هذا الطفل الذي عهد به إليه، ولقد غير مصيره فعلاً.

أصبح السيد برنار، الآن، أمام جاك في شقته الصغيرة الواقعة على منعطفات منطقة روفيغو، تكاد تكون في سفح القصبة، وهو الحي المطل على المدينة والبحر، ويسكنه تجار صغار من أجناس مختلفة ومن ديانات متعددة، وتنبعث من المنازل رائحة التوابل والفقر معاً. كان هناك، وقد تقدم في السن، وقل شعره كثيراً، وكانت بقع الشيخوخة تشف وراء نسيج الخدين واليدين، ولقد ازداد بطء حركته عنه في الماضي، وبدا سعيداً لأنه يستطيع أن يجلس من جديد في كرسيه المصنوع من الخيزران، بالقرب من النافذة المشرفة على الشارع التجاري حيث يزقزق كناري، كما رقت مشاعره بسبب تقدم عمره فترك انفعاله يظهر، وهذا ما لم يكن يفعله في الماضي، ولكنه كان منتصب القامة، وذا صوت قوي حازم، مثلما كان حين يقف أمام صفه ويقول: " اصطفوا اثنين اثنين! لم أقل كل خمسة! " ويتوقف الهرج والمرج، فيصطف التلاميذ، الذين كانوا يخشون السيد برنار ويعشقونه معاً، على طول حائط الصف الخارجي، في رواق الطابق الأول، إلى أن تصبح الصفوف منتظمة وبلا حركة والأولاد صامتين، فتحررهم جملة " ادخلوا الآن، زمرة الأشقياء"

---

[1] مراجعة الملحق، ص ٢٦٧- ٢٦٩، الوريقة الثانية التي ادخلها المؤلف بين الصفحة ٦٨ و ٦٩ من المخطوطة.

[أ] انتقال بالفصل السادس؟

/٨٦/

وتسمح لهم بالحركة، وبحيوية أكثر حذراً كان يراقبها السيد برنار برضى وصرامة، وقد كان قوياً، متأنق اللباس، ذا وجه شديد الانتظام يتوجه شعر منثور قليلاً ولكنه أملس، وتعبق منه رائحة مـــاء الكولونيا.

كانت المدرسة تقع في قسم جديد نسبياً من هذا الحي القديم، وسط منازل مـــن طـــابق أو طابقين وقد بنيت بعد فترة قصيرة من حرب السبعين، ووسط مستودعات ومخازن أحدث والـــتي انتهت إلى أن ربطت شارع الحي الرئيسي حيث يقع بيت جاك بمرفأ مدينة الجزائر الخلفي حيـــث توجد أرصفة الفحم. كان جاك يذهب إذن، مرتين في اليوم، إلى هذه المدرسة التي بدأ بارتيادها في الرابعة من عمره في قسم الروضة، والذي لايحتفظ فيها بأية ذكرى، اللهم إلا المغسلة من الحجـــر الداكن التي كانت تشغل صدر الباحة المسقوفة وحيث وقع يوماً على رأســـه، لينـــهض مغطـــى بالدماء، وقد شق حاجبه، وسط ذعر المعلمات، فتعرف حينئذٍ على القطب، التي ماإن نزعـــت، في الواقع، عن الحاجب حتى وضعت ثانية على الحاجب الآخر، ذلك أن أخاه قد تصور أن يلبســـه في البيت قبعة قديمة على شكل بطيخة قد أعمته وأن يلبسه كذلك معطفاً عتيقاً أعاق خطواته، حـــتى إنه وجد نفسه وقد شج رأسه على دبش البلاط الناتئ فتغمره الدماء ثانية. كان يذهب إلى الحضانة مع بيير الذي يكبره سنة تقريباً، والذي كان يسكن في شارع قريب مع أمه التي كانت هي أيضـــاً أيّـــم حرب، وأصبحت موظفة في البريد، كما كان يسكن مع اثنين من أخواله كانا يعمـــلان في السكك الحديدية. وكانت تربط الأسرتين صداقة واهية، أو كما الحال في هذه الأحيـــاء، أي أن كل أسرة تود الأخرى ولكن دون أن تزور إحداهما الأخرى إلا ماندر، وكانت كل أسرة على أتم الاستعداد لمساعدة الأخرى دون أن تسنح لها بذلك الظروف إلا نادراً. أصبح الطفلان وحدهمـــا صديقين فعلاً من هذا اليوم الأول حين كان جاك يلبس ثوباً وعهد به إلى بيير الذي كـــان يعـــتز ببنطاله القصير ويدرك واجبه باعتباره أكبر منه، ذهب الطفلان معاً إلى الحضانة. ثم اجتازا بعد ذلك مجموعة الصفوف حتى وصلا إلى الشهادة الابتدائية، حيث دخل جاك وهو في التاسعة من العمـــر. وطوال خمس سنوات قطعا معاً أربع مرات يومياً الطريق نفسه، كان أحدهما أشقر والآخر أسمـــر، أحدهما هادئ، والآخر مندفع، ولكنهما كانا أخوين بجذورهما ومصيرهما، كانا كلاهما تلميذيـــن مجتهدين، وكانا في الوقت نفسه لاعبين لايعرفان الكلل. كان جاك يتفوق عليه في بعض المـــواد، ولكن سلوكه، وطيشه، وكذلك حبه للظهور، كانوا يدفعونه لارتكاب آلاف الحماقات، مما يجعل بيير الأكثر رصانة والأشد تكتماً يتفوق عليه. حتى إنهما كانا يتناوبان المركز الأول في الصـــف، دون أن يخطر لهما أن يتفاخرا بذلك، على عكس أسرتيهما. كانت متعهما مختلفة. ففي الصبـــاح، كان جاك ينتظر بيير في أسفل البيت. فينطلقان قبل مرور الزبالين، أو بشكل أدق قبل مرور العربة

التي كدن عليها حصان مطوق يقوده عربي عجوز. كانت رطوبة الليل لاتزال تبلـــل الرصيـــف، وكان للهواء الآتي من البحر طعم الملح. كان شارع تيير، الذي يؤدي إلى السوق، قد امتلأ مـــن جانبيه بصناديق القمامة، التي فتحها في الفجر عرب او مغاربة يتضورون جوعاً، وأحياناً متســول اسباني، وقد وجدوا شيئاً ما يأخذونه مما ازدردته أسر فقيرة ومقتصدة فرمته. كانت أغطية هـــذه الصناديق مغلقة عامة، وفي هذه الساعة من الصباح أخذت قطط الحي النشيطة والهزيلـــة مكـــان المعدمين. كان الولدان يحرصان أن يصلا بصمت خلف الصناديق ليغلقا فجأة الغطاء على القـــط الذي كان داخل صندوق القمامة. لم يكن هذا الإنجاز سهلاً، لأن القطط التي ولدت وترعرعت في حي فقير، كانت تمتاز باليقظة والخفة شأنها شأن الحيوانات التي اعتادت أن تدافع عن حقـــها في العيش. وقد يحدث أحياناً أن يفاجأ قط، وقد جذب بلقية شهية يصعب إخراجها مـــن كومـــة القمامة. فيهوي الغطاء بضجة، ويطلق القط صراخ فزع، ويخبط بظهره وبأظافره، ويتوصـــل ان يدفع سقف سجنه من التوتياء، وأن يخرج نفسه، وقد وقف شعره هلعاً، وينطلق هارباً كما لـــو كان رهط من الكلاب في أثره، وسط قهقهات جلاديه الذيـــن كـــانوا غـــير واعـــين مـــدى وحشيتهم[أ].

والحقيقة أن هؤلاء القساة كانوا متناقضين لأنهم كانوا يطاردون بكرههم ممسك الكـــلاب، الذي لقبه أولاد الحي غالوفا[1] (الذي يعني بالاسبانية ...). كان موظف البلدية هذا يـــدور في الساعة نفسها تقريباً، ولكن قد يقوم بجولات بعد الظهر أيضاً وفق ماتقتضيه الضرورة. كان عربياً يلبس لباساً أوروبياً، ويقف عادة في مؤخرة عربة غريبة يجرها حصانان يقودهما عربي عجوز هادئ الأعصاب. كان جسم العربة مؤلفاً من مكعب خشبي، وقد أعد على طوله، من الطرفين، صـــف مزدوج من الأقفاص ذات القضبان الصلبة. كان يؤلف مجموعها ستة عشر قفصاً، على أن يحـــوي كل واحد منها كلباً، يحشر حينئذٍ بين القضبان وداخل القفص. كان ممسك الكلاب، وقد جثـــم على سلم صغير في مؤخرة العربة، يصل أنفه إلى ارتفاع سقف الأقفاص، ويمكنه بهذا الوضـــع أن يراقب حقل صيده. كانت العربة تسير ببطء عبر الشوارع المبللة التي بدأت تزخر بالأولاد الذاهبين إلى المدرسة، وربات البيوت اللواتي خرجن لجلب الخبز أو الحليب، وقد لبسن مآزرهن المصنوعـــة من قماش المناشف والمزينة بازهار صاخبة الألوان، والباعة العرب القاصدين السوق، وقد صفـــوا أطباقهم الصغيرة المثنية على أكتافهم وأمسكوا باليد الأخرى قفة ضخمة من القش المضفور كانت تحوي بضائعهم. وفجأة، إثر نداء من ممسك الكلاب، كان العربي العجوز يجر العنان إلى الخلـــف

[أ] غرابة شوربة الحمص.

[1] يأتي أصل الاسم من أول شخص قام بهذا العمل وكان يدعى فعلاً غالوفا.

فتتوقف العربة. كان ممسك الكلاب قد لمح إحدى ضحاياه، تحفر مضطربة صندوق قمامة، وهي تلقي إلى الوراء بشكل منتظم نظرات محمومة، أو وهي تقفز بسرعة من على طول جدار بهذا المظهر المستعجل والقلق الذي يطبع الكلاب الجائعة. كان غالوفا يمسك حينئذٍ من قمة العربة سوطاً ينتهي بسلسلة حديدية تنزلق عن طريق حلقة على طول المقبض. كان يتقدم بخفة، وسرعة وصمت الصياد الذي يعد فخاً للحيوان، فيحاذيه و، إذا لم يكن الكلب لابساً طوق أبناء العائلات، ركض نحوه[1] بسرعة مباغتة مدهشة، فيمرر حول رقبته سلاحه الذي يدور حينئذٍ كربق من الحديد والجلد. كان الحيوان، وقد اختنق فجأة، يتخبط بجنون وهو يطلق أنات مجمجمة. ولكن الرجل كان يجر [هـا] بسرعة حتى العربة، يفتح أحد أبواب القضبان، وقد رفع الكلب مضيقاً الخناق عليه، ليرميه في القفص وهو يحرص أن يمرر ثانية مقبض ربقه من خلال القضبان. ثم يرخي السلسلة، وقد أمسك الكلب، فيسترجع السلسلة الحديدية ويحرر رقبة الكلب وقد أصبح الآن محبوساً. كانت الأمور تحدث على هذا الشكل، على الأقل، حين لايتلقى الكلب حماية أولاد الحي. لأنهم كلهم قد تحالفوا ضد غالوفا. كانوا على علم أن الكلاب الممسكة تؤخذ إلى حظيرة البلدية، وتبقى فيها ثلاثة أيام، وبعد ذلك إذا لم يطلبها أحد، كانت الحيوانات تقتل. وإذا ماجهلوا ذلك، فإن مشهد عربة الموت المحزن وقد عادت بعد جولة مثمرة، ممتلئة بالحيوانات التعيسة من كل الألوان وكل الأحجام، المذعورة وراء قضبانها، وهي تترك وراء العربة صرخات الأنين والعواء، كل ذلك كان يكفي ليثير سخطهم. لذا، فما إن كانت تظهر في الحي العربة الزنزانة حتى ينبه كل ولد الآخرين، فينتشرون هم بأنفسهم في شوارع الحي كلها ليطاردوا الكلاب بدورهم، كي يبعدوها إلى قطاع آخر في المدينة، بعيداً عن الربق الفظيع. وإذا حدث، بالرغم من كل هذه الاحتياطات، كما حدث مراراً كثيرة لبيير وجاك، أن اكتشف ممسك الكلاب كلباً تائهاً في حضورهما، فإن الخطة كانت دائماً هي ذاتها. وقبل أن يقترب الصياد من فريسته بقدر كاف، يشرع جاك وبيير بالصراخ: " غالوفا، غالوفا " بطريقة حادة جداً ومرعبة كثيراً فيهرب الكلب بأقصى سرعة وخلال عدة ثوان يكون قد أصبح في مأمن. في هذا الوقت، كان على الطفلين أن يبرهنا هما أيضاً على مقدرتهما في الركض السريع، ذلك أن غالوفا المسكين، الذي كان يتلقى مكافأة عن كل كلب أمسكه، وقد جن غضباً، يشرع في مطاردتهما وهو يهز سوطه. كان الكبار يسهلون هربهما بشكل عام، سواء بمضايقة غالوفا، أو بإيقافه مباشرة وهم يرجونه أن يهتم بالكلاب. كان عمال الحي، وكلهم صيادون، يحبون عامة الكلاب ولا يحترمون أبداً هذه المهنة الغريبة. وكما كان يقول الخال أرنست: " هو تنبـل! " وفوق كل هذه البلبلة، كان العربي العجوز يهيمن صامتاً، هادئاً، أو، إذا

---

[1] كمـا ورد.

طالت المناقشات، يشرع بهدوء بلف سيكارة. كان الطفلان، سواءً أمسكا قططاً أو أطلقا سراح كلاب، يسرعان بعد ذلك، وهما يهويان بمعطفيهما اللذين بلا أكمام في الشتاء، وهما يفرقعان خفيهما (المسميان ميغا) في الصيف، نحو المدرسة والدرس. كانا يلقيان نظرة سريعة على المعروضات من الفواكه وهما يجتازان السوق، وحسب الفصل، كانت كوم الزعرور البستاني (الأيكي دنيا) والبرتقال واليوسفي، والمشمش، والدراق، واليوسفي[1] ، والبطيخ، والجبس تتتابع حولهما و لم يكونا يتذوقان منها، إلا كمية محدودة، أقلها ثمناً. ثم يقومان بعد ذلك بقفزتي جواد او ثلاث، دون أن يتركا محفظة كتبهما، على حوض نافورة الماء الضخم اللماع، ثم يسرعان على طول مستودعات شارع تيير العريض، ويتلقيان بوجهيهما رائحة البرتقال التي تنبعث من المصنع حيث كان البرتقال يقشر ليعد من قشرته مشروب كحولي، ثم يصعدان ثانية شارعاً صغيراً من الحدائق والدور الفخمة، ويصلان أخيراً إلى شارع عميران الذي يعج بجمهور من الأطفال ينتظر فتح الأبواب خلال أحاديثهم، بعضهم مع بعض.

ثم كان الصف المدرسي. فمع السيد برنار، كان الدرس دائماً مشوقاً لسبب بسيط هو انه كان يحب مهنته بوله. كان للشمس، خارج الصف، أن تنتشر على الجدران العارية بينما الحرارة تنتشر داخل القاعة الغارقة هي أيضاً في ظل الستائر ذات الخطوط العريضة الصفراء والبيضاء. وكان للمطر ان يهطل، كما هو مألوف في الجزائر، على شكل شلالات لاتنتهي. محولاً الشارع إلى بئر معتم رطب، كل ذلك يكاد لايسبب أي شرود للتلاميذ. كان الذباب وحده في أوقات العاصفة يحول أحياناً انتباه الأولاد. إذ كان يمسك ويستقر في المحابر، حيث تبدأ ميتته الشنيعة، وقد غرقت في الأوحال البنفسجية التي تملأ محابر الخزف الصغيرة وهي ذات جذع موشوري يدخل في ثقوب الطاولة. ولكن طريقة السيد برنار التي تقوم على عدم التساهل في السلوك، بل على العكس، على جعل تعليمه حياً ومسلياً، هذه الطريقة تنتصر حتى على الذباب. كان يعرف دائماً أن يخرج في الوقت الملائم من خزانة كنوزه بجموعة المعادن، والأعشاب، والفراشات والحشرات الميتة وذات المظهر الحي، والخرائط أو ... التي تثير توقظ اهتمام التلاميذ الذي بدأ يخف. كان المعلم الوحيد الذي استطاع أن يحصل على فانوس سحري، ومرتين في الشهر، كان يقوم بعرض شرائط في التاريخ الطبيعي والجغرافيا. وفي الحساب، أنشأ مسابقة في الحساب الذهني ترغم التلميذ على سرعة التفكير. كان يلقي على التلاميذ العطف، وعلى الجميع أن يكتفوا أيديهم، حدود قسمة، أو ضرب أو أحياناً جمع معقد نوعاً ما. كم يساوي ١٢٦٧ + ٦٩١. وكان أول من يعطي النتيجة الصحيحة يكافأ بعلامة تقدم ترتيبه في الصف. أما في بقية المواد، فكان يستعمل الكتب

---

[1] كما ورد.

الدراسية بكفاءة ودقة.. كانت هذه الكتب هي المستعملة دائماً في العاصمة. وكان هـؤلاء الأولاد الذين لايعرفون إلا ريح الخماسين، والغبار، والسيول العارمة والقصيرة، ورمال الشواطئ والبحـر الملتهب تحت الشمس، كانوا يقرؤون باجتهاد، مهتمين بالفواصل والنقاط، قصصـاً أسـطورية بالنسبة لهم حيث كان أطفال يلبسون قلنسوة ولثاماً من الصوف، وقباقيب في أرجلهم، ويعودون إلى بيوتهم في البرد الجليدي وهم يجرون حزم الحطب على طرق مغطاة بـالثلج، إلى أن يلمحـوا سطح البيت المغطى بالثلج أو المدفأة التي كانت تدخن لتعلمهم أن حساء الحمص كانَ يطبـخ في الموقد. كان جاك يعتبر هذه القصص قمة الغرابة. كان يحلم بها، وقد ملأ كتاباته بوصف عـالم لم يره قط، وكان لايكف عن سؤال جدته عن سقوط ثلج استمر ساعة منذ عشرين عاماً على منطقة مدينة الجزائر. وكانت هذه القصص تشكل بالنسبة إليه جزءاً من جمالية المدرسة الطاغية، والـتي كانت تتغذى أيضاً من رائحة طلاء المساطر والمقالم، ومن طعم شريط محفظته اللذيذ الذي كـان يعضه طويلاً وهو يدأب على عمله، ومن رائحة الحبر البنفسجي المرة والحادة والخشنة، وخاصـة حين كان يأتي دوره لملء المحابر من زجاجة ضخمة قاتمة أدخل في سدادتها أنبوب مـن الزجـاج المعقوف، وكان جاك يشم بنشوة فوهة الأنبوب، ومن الملامسة العذبة لصفحات بعض الكتـب الملساء واللماعة، حيث كانت تنبعث كذلك رائحة الطباعة والصمغ العذبة، وفي الأيام الممطرة بعد ذلك، من رائحة الصوف المبلل التي كانت تعبق من المعاطف الصوفية في آخر القاعة والتي كـانت تجسيداً مسبقاً لهذا العالم الفردوسي حيث يركض الأطفال بقباقيبهم وقلنسواتهم الصوفية عبر الثلج نحو البيت الدافئ.

كانت المدرسة وحدها تعطي لجاك ولبيير هذه المتع. وما كانا يحبان فيها بشغف، وبلا شك، كان مايفتقران إليه في بيوتهما، حيث الفقر والجهل يجعلان الحياة أكثر قسوة، وأشد كآبة، وكأنها انطوت على ذاتها؛ فالبؤس قلعة بلا جسر متحرك.

ولم يكن الأمر يقتصر على هذا وحده، ذلك أن جاك كان يشعر بأنه أشد الأولاد بؤساً، في عطلة الصيف، حين كانت جدته ترسله لتتخلص من هذا الشقي الذي لايعرف الكلل، إلى مصيف للأطفال مع خمسين طفلاً آخر وعدة مدربين إلى جبال زكار، في منطقة ميليانا، حيـث كـانوا يقيمون في مدرسة مجهزة تجهيزاً جيداً مع مهاجع، يأكلون وينامون مترفين، يلعبون أو يتـنزهون طوال النهار، تراقبهم ممرضات لطيفات، ورغم ذلك، حين كان يقبل المساء، ويتسلق الظل بسرعة كبيرة منحدرات الجبال، ويبدأ البوق من الثكنة المجاورة، في سكون عظيم لهذه المدينـة الصغـيرة الضائعة وسط الجبال، على بعد مئة كيلو متر من أي مكان مأهول فعلاً، يرسل أنغام اطفاء الأنوار

الحزينة، كان الطفل يشعر بيأس لاحدود له يتصاعد من اعماقه ويصرخ بصمت مناديـــاً بيــت الطفولة البائس والمعدم من كل شيء[أ] .

كلا، لم تكن المدرسة تؤمن لهم فقط الهرب من حياة الأسرة. كانت المدرسة، على الأقل في صف السيد برنار، تغذي فيهم جوعاً اساسياً يشعر به الطفل أكثر مــن الرجــل وهــو جــوع الاكتشاف. كانوا يعلمونهم بلا شك، في الصفوف الأخرى، أشياء كثيرة، ولكن كما يزق الــوز إلى حد ما. كانوا يقدمون لهم طعاماً جاهزاً وهم يرجونهم أن يتفضلوا بابتلاعه. أما في صف السيد جيرمان[1]، فكانوا يشعرون للمرة الأولى بأنهم موجودون وبأنهم موضع احترام كبير: اعتبروا أنهــم جديرون باكتشاف العالم. حتى إن معلمهم لم يكرس ذاته ليعلمهم فقط، فلقد كـــان يتلقــاهم ببساطة في حياته الشخصية، كان يحياها معهم، وهو يروي لهم طفولته وقصص الأطفال الذيــن عرفهم، وكان يعرض لهم وجهات نظره، ولا يعرض أفكاره أبداً، فلقد كان مثلاً ضد رجال الدين شأنه شأن كثير من زملائه المعلمين، ولم يلفظ أبداً في الصف كلمة ضد الدين، ولا ضد أي شيء قد يكون موضع اختيار، أو اقتناع، ولكنه كان يدين بقوة كبيرة، لايحتمل مناقشـــة، كالســرقة، والنميمة، وعدم الأمانة، والقذارة.

ولكنه كان يكلمهم عن الحرب الحديثة خاصة والتي خاضها خلال أربع سنوات، عــن آلام الجنود، وعن شجاعتهم، وصبرهم وسعادتهم بالهدنة. كان في نهاية كل فصل، وقبل أن يرسلهم إلى العطلة، ومن حين لآخر، حين كان الوقت يسمح له، قد اعتاد أن يقرأ لهم مقتطفات مطولة مــن رواية الصلبان الخشبية لكاتبها دور جليس. كانت هذه القراءات تفتح لجاك مرة أخرى أبـــواب الغرابة، ولكنها غرابة يطوف فيها الخوف والمصيبة، وإن لم يجرِ أبداً مقاربات، اللهم إلا النظريـــة منها، مع الأب الذي لم يعرفه قط. كان يسمع فقط بكل قلبه حكاية يقرؤها معلمه بكــل قلبــه وتحدثه من جديد عن الثلج، وعن شتائه العزيز، ولكنها كانت تحدثه أيضاً عن رجـــال غريبــين، يلبسون قماشاً ثقيلاً شده الوحل، يتكلمون لغة غريبة، ويعيشون في حفر تحـــت اســطحة مــن القذائف، والصواريخ والرصاص. كان هو وبيير ينتظران كل قراءة بفارغ صبر متزايد. هذه الحرب التي كان كل الناس لايزالون يتحدثون عنها (كان جاك يسمع بصمت وكله آذان صاغية، دانييــل يروي على طريقته معركة المارن، التي حارب فيها ولا يعرف حتى الآن كيف عاد، كان يقـــول، حين كانوا هم، الزوافييون قد وضعوا كرماة في الصفوف الأمامية، ثم نزلوا إلى واد كمهاجمين ولم

[أ] تطويل ومدح المدرسة العلمانية.

[1] هنا يعطي المؤلف للمعلم اسمه الحقيقي.

يكن أحد أمامهم، وتابعوا المسير وفجأة راح رماة الرشاش يتساقطون الواحد فـــوق الآخـــر في منتصف الانحدار وقد امتلأ أسفل الوادي بالدماء، وبعضهم كانوا يستنجدون بأمهاتهم كان الأمـــر فظيعاً)، ويستحيل على الذين نجوا أن ينسوا ذلك، كان شبح هذه المعارك يحوم على كل مـــايقرر حولهما وعلى كل مشاريع كتابة تاريخ جذاب وأكثر غرابة من قصص الجنيات التي كانت تقرأ في الصفوف الأخرى والتي قد يسمعونها بخيبة وملل لو ارتأى السيد برنار أن يغير البرنامج. إلا أنـــه كان يتابع، كانت المشاهد المسلية تتناوب مع وصوف رهيبة، وشيئاً فشيئاً تعرف الأطفال الأفارقة على ... و . لا. ي. الذين كانوا يشكلون جزءاً من مجتمعهم، وكانوا يتحدثون عنهم فيما بينـــهم كما لو كانوا أصدقاء قدامى لهم، حاضرين وممتلئين حياة، حتى أن جاك لم يكن يستطيع أن يتخيل ولو لثانية، أنهم وإن كانوا قد عاشوا الحرب، فلا خطر عليهم من ان يكونوا من ضحاياهـــا. وفي نهاية العام الدراسي، في اليوم الذي وصل فيه السيد برنار إلى نهاية الكتاب(*) . قرأ بصوت مخنوق موت د. ، وحين أغلق الكتاب ثانية في صمت، عرضة لانفعاله وذكرياته، رفع عينيه بعد ذلك إلى الصف الغارق في الذهول والصمت، رأى جاك ينظر إليه بثبات، وقد غطي وجهه بالدموع، تهـــزه شهقات مستمرة، وبدا كأنها لن تتوقف أبداً. قال السيد برنار بصوت لايكـــاد يســـمع " هيـــا ياصغيري، هيا توقف"، ثم نهض ليصف كتابه في الخزانة، وقد أدار ظهره لتلاميذه.

قال السيد برنار: " انتظر، ياصغري". نهض بصعوبة، مرر ظفر سبابته على قضبان قفـــص كناري كان يزقزق بأعلى صوته: " آه، كازيمير، أنت جائع، تطلب من أبيك" ثم [توجـــه] نحـــو مكتب صغير للتلاميذ، كان يخصه، في آخر الغرفة، قرب المدفأة. فتش في درج، أغلقه، فتح درجـــاً آخر، وأخرج منه شيئاً. قال: " خذ، هذا لك ". تلقى جاك كتاباً مغطى بورق البقالة البني وبدون كتابة على الغلاف. عرف، قبل أن يفتحه أنه رواية الصلبان الخشبية، النسخة التي كان السيد برنار يقرؤها لهم في الصف. قال: " كلا، كلا، إنها..." كان يريد أن يقول: إنها جميلة جداً. لم يكـــن يجد الكلمات. كان السيد برنار يهز رأسه المسن: " لقد بكيت في اليوم الأخير، هل تذكر؟ منـــذ ذاك اليوم، هذا الكتاب يخصك ". ثم استدار ليخبئ عينيه وقد احمرتا فجأة. ذهب ثانية نحو مكتبه، ثم عاد نحو جاك وقد وضع يده خلف ظهره، وهو يهز تحت أنفه مسطرة قصيرة غليظة حمـــراء(أ) وهو يقول ضاحكاً : " أتذكر سكر الشعير هذا؟ – قال جاك: – آه، لقد احتفظت بها إذن! أنـــت تعرف أنه من المحظر استعمالها الآن. – حسن، كان محظراً في الماضي. إلا أنك تشهد أني كنـــت أستعملها! " أجل كان جاك شاهداً، ذلك أن السيد برنار كان من أنصار العقوبات الجســـدية. في

(*) روايـــــة.

(أ) العقوبـــات.

الحقيقة، كان العقاب العادي يقتصر على نقاط سيئة، يطرحها في نهاية الشهر من النقاط التي حصل عليها التلميذ والتي تؤخره حينئذ في الترتيب العام. ولكن، في الحالات الخطرة، لم يكن السيد برنار يهتم مطلقا، كما كان يفعل زملاؤه، بارسال المخالف إلى المدير. كان هو يتصرف وفق طقس لايتغير. كان يقول بهدوء وهو يحتفظ ببشاشته " مسكين روبير، علينا أن نلجأ إلى سكر الشعير". لم يكن أحد في الصف يعارض (إلا ليضحكوا في الخفاء، وفق قاعدة القلب البشري الثابتة التي ترى في عقاب بعضهم متعة يشعر بها الآخرون)[أ] .

كان الطفل يقف، شاحباً، ويحاول في أغلب الأحيان أن يظهر رباطة جأش (كان بعضهم يخرج من وراء طاولته وقد بدأ يبلع دموعه ويتجه نحو مكتب وقف بجانبه السيد برنار، أمام اللوح الأسود). وكانت الأمور تتم دوماً وفق طقس، لايخلو هنا من قليل من السادية، حيث يأخذ روبير أو جوزيف، بنفسه من على المكتب "سكر الشعير" ليسملها إلى مقدم الذبائح.

كان سكر الشعير مسطرة من الخشب الأحمر غليظة وقصيرة، ملطخة بالحبر، تشوهها حزوز وثلمات، كان السيد برنار قد صادرها منذ عهد بعيد لتلميذ نسيها. كان التلميذ إذن يسلمها إلى السيد برنار، الذي يتلقاها عامة بهيئة ساخرة ويبعد ساقيه. كان على الولد أن يضع رأسه بين ركبتي المعلم الذي كان، وقد ضم فخذيه، يمسك الرأس بقوة. وكان يضع السيد برنار، على الردفين المقدمين هكذا، عدداً من ضربات المسطرة القوية يختلف حسب الإساءة وقد وزع بالتساوي على كل ردف. كانت ردود الأفعال على هذا العقاب تختلف وفق التلاميذ. كان بعضهم يئن قبل تلقي الضربات، وكان المعلم الجريء يبدي ملاحظته قائلاً بأنهم مبكرين، وكان بعضهم الآخر يحمي ردفيه ببساطة بيديه، فيبعدهما السيد برنار حينئذٍ بضربة متهاونة. وكان بعضهم الآخر، تحت لسع ضربات المسطرة، يخبطون بوحشية. كان هناك آخرون، وكان جاك من هذه الفئة، يتحملون الضربات دون أن ينبسوا ببنت شفة، ويعودون إلى أماكنهم مرتجفين وهم يبتلعون دموعاً كبيرة. ومع ذلك، كانت هذه العقوبة بمجملها مقبولة بلا مرارة، ذلك لأن معظم هؤلاء الأطفال كانوا يضربون في بيوتهم فيبدو الإصلاح لهم شكلاً طبيعياً للتربية، وكذلك لأن عدالة المعلم كانت مطلقة، وكان التلاميذ يعرفون مسبقاً، أنواع المخالفات، التي تسبب حفلة التكفير، فهي هي نفسها دائماً، وكان كل الذين يتجاوزون حدود الأفعال التي تقتصر على العلامة السيئة يعرفون ماذا ينتظرهم، وأن العقوبة كانت تطبق بعدالة حارة على الأوائل كما على أواخر التلاميذ. وجاك الذي كان السيد برنار يحبه كثيراً وجلياً، كان يطبق عليه العقاب كما الآخرين،

[أ] أو مايعاقب البعض يُفرح الآخرين.

ولقد طبق عليه في اليوم التالي لليوم الذي أظهر له فيه السيد برنار علنياً تفضيله له. حين كان جاك واقفاً بالقرب من اللوح الأسود، وقد أحسن الإجابة، داعبه السيد برنار بملامسة خـده، سُـمع صوت يهمس في القاعة: " إنه المدلل". ضمه السيد برنار إليه وقال بنوع من الوقار: " أجـل، إني أؤثر كورمري كما أفضل كل الذين منكم فقدوا أباهم في الحرب. لقد حاربت مع آبائـهم وإني حي. أحاول أن أقوم هنا مقام رفاقي الموتى. والآن، إذا كان أحد يريد أن يقول إن لدي "مدللين"، فليتكلم. استقبل هذا الخطاب بسكوت تام. حين انصرفوا، سأل جاك من سماه " المدلل" . إن تلقي إهانة كهذه دون الرد تعني فقدان الشرف. " أنا " قال مينوز، الصبي الطويل الأشـقر المتراخي والذي لالون له، والذي نادراً ماكان يبرز إلا أنه كان يظهر كرهه دائماً لجاك. قال جاك: " إذن، أمك عاهرة[أ] ". كان ذلك إهانة طقسية أيضاً تجر فوراً القتال، فإهانة الأم والموتى كانت منـذ الأزل أخطر الإهانات على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. إلاّ أن ميروز تردد. ولكن الطقـوس تبقى طقوساً، والآخرون يتكلمون عنه. "هيا ، إلى الحقل الأخضر". كان الحقل الأخضر، الغريب، والقريب من المدرسة، عبارة عن أرض بور كان ينمو فيها بشكل هزيل عشب ضعيف وتملأ هـذه الأرض أطواق الحديد، وعلب المعلبات وبراميل متعفنة. هناك كانت تجري "القتالات". كانت هذه القتالات مجرد مبارزة، تنوب القبضة فيها مناب السيف، ولكنها تخضع لتقاليد مماثلة، في ذهنه على الأقل. كانت تهدف فعلاً إلى حسم خصومة كان شرف المتنازعين فيها مهدداً، سـواء أهينـت اسلافه المباشرة أو أجداده، أو احتقرت جنسيته أو عرقه، أو وشيء به أو اتهم بالوشاية، سـرق أو اتهم بالسرقة، أو لأسباب أخرى أكثر غموضاً كما يحدث كل يوم في مجتمع الأطفال. فحين يقدر أحد التلاميذ، أو خاصة يُقدرون مكانه (وكان يدرك ذلك) أنه قد أهين بشكل يجب فيه غسـل الإهانة، كانت الصيغة الطقسيـة : " الساعة الرابعة، في الحقل الأخضر". ما إن تلفظ الصيغـة حتى ينتهي الحماس وتنقطع التعليقات. كان كل خصم ينسحب، يتبعه رفاقه. كان النبأ خـلال الحصص التالية، يجري من مقعد إلى مقعد مع اسم الأبطال، وكان الرفاق يرنون إليـهم بطـرف أعينهم بينما كان هؤلاء يتصنعون بالتالي الهدوء والتصميم الذي هو سمة الرجولة. أما في باطنـهم، فهذا شيء آخر، وكان أشجع الصبيان يشرد عن درسه يدفعه قلق اقتراب اللحظة التي عليه فيها أن يجابه العنف. وكان عليهم ألا يدعوا الجانب المعاكس يسخر منهم ويتهم البطل، وفـق التعبـير المخصص، بأن "يشد ردفيه خوفاً ".

كان جاك وقد أتم واجبه كرجل باستفزاز مينوز، كان يشد ردفيه بقوة كبيرة، شأنه كل مرة يضع نفسه في موقف مجابهة العنف وممارسته. ولكن قراره قد اتخذ، و لم يكن يستطيع ولا لثانية، في

[أ] وعاهـرة موتاكم.

فكره، أن يتراجع. كان ذلك لامفر منه، وكان يعرف كذلك أن فتور همته الخفيف هــذا الــذي يضيق صدره قبل العمل سيختفي وقت القتال، يدفعه عنفه هو الذي يضربه أصلاً بقدر مايخدمه... ولقد سبب له أن[أ] .

عشية القتال مع مينوز، جرت الأمور وفق الطقوس. كان المتخاصمان، يتبعهما مؤيدوهمـــا وقد تحولوا إلى معتنين بصحة المصارعين كانوا يحملون محفظة كتب البطل، ووصلوا قبله إلى الحقل الأخضر، يتبعهم كل الذين جذبتهم المشاجرة والذين في ساحة المعركة، كانوا يطوقون المتخاصمين ليجهزوا عليهم، في حين كانا يخلعان معطفيهما وسترتيهما بين أيدي المعتنين بهما. ولقد خدم هذه المرة جاك اندفاعه، فلقد تقدم هو أولاً، دون اقتناع كبير، فجعل مينوز يـــتراجع، وقـــد تراجـــع مضطرباً وهو يتجنب بشكل أرعن لطمات خصمه، أصاب خد جاك بضربة آلمته وملأته غيظـــاً، وكانت صرخات الحضور، وضحكاتهم وتشجيعهم تزيد ضرباته عشوائية. فرمى بنفســـه علـــى مينوز، وأمطر وابل ضربات قبضته عليه، وجمده، ولقد كان سعيداً أن سدد لهذا البـــائس لكمـــة حانقة على عينه اليمنى، والذي فقد توازنه، فسقط على ردفيه بشكل يثير الشفقة، وهو يبكـــي بعين واحدة بينما تورمت فوراً العين الأخرى. كانت الضربة الملكية والنادرة جداً هي التي تســـود العين وتخلد لأيام كثيرة وبشكل جلي انتصار الرابح الظافر، وتجعل الحـــاضرين جميعـــاً يطلقـــون صرخات سيـــيوكس[١] .

لم ينهض مينوز على الفور ، فتدخل بيير، صديق جاك الحميم، حالاً بسلطة ليعلن أن جـــاك هو المنتصر، وألبسه سترته وغطاه بمعطفه الذي بلا أكمام، وأخذه، محاطاً بموكب معجبيه، بينمـــا كان مينوز ينهض، وقد انخرط في البكاء، ولبس ثيابه وسط حلقة صغيرة واجمة.

لم يكن جاك، وقد أذهلته سرعة النصر الذي لم يكن يأمل بكماله التام، كاد لايسمع حولـــه التهاني وقصص القتال التي بدأت وراحوا يغالون فيه. كان يريد أن يكون مسروراً، ولقـــد ســـر غروره، ومع ذلك، حين خرج من الحقل الأخضر وقد استدار نحو مينوز، عصر قلبه فجأة حـــزن كئيب لرؤية وجه المنهزم الذي ضربه. وهكذا عرف أن الحرب ليست بصالحة، ذلـــك لأن قـــهر إنسان يعادل مرارة الإنهزام.

(أ) يتوقف المقطع هنا.

(١) سييوكس: مجموعة شعوب أميركا الشمالية، التي كانت تشكل اسرة لغوية عظيمة، والتي كـــانت تعيـــش في سهول أركنساس الملأى بسلسلة صخور وعرة (المترجمة).

وليتم تربيته، فلقد أعلموه سريعاً أن صخرة التاربيين[٢] هي بالقرب من الكابيتول [٣] وفعلاً، في اليوم التالي، وسط ضربات رفاقه الودية والمعجبة، وجد نفسه مضطراً أن يأخذ مظهر مدع وأن يتفاخر. وبما أن مينوز، في بداية الحصة، لم يجب على التفقد، فإن جيران جاك في الصف علقـــوا على هذا الغياب بضحكات ساخرة وغمزات للمنتصر، لم يستطع جاك أن يتمالك من أن يشـــير لرفاقه بعينه نصف المغمضة وهو ينفخ خده، ودون أن يشعر بأن السيد برنار كان ينظر إليه، وقـد استسلم جاك إلى إيماءة مضحكة اختفت في لمح البصر حين دوى صوت المعلم في القاعة وقد عـم الصمت فجأة. كان يقول هذا الساخر بجدية: " يامدللي المسكين، لك الحق مثل الآخرين بســكر الشعير". اضطر المنتصر أن ينهض، ويحضر أداة العقوبة، ويدخل وسط رائحة ماء الكولونيا النضرة التي كانت تحيط بالسيد برنار. وأن يأخذ وضعية العذاب المخزية.

لم تكن قضية مينوز لتنطوى على هذه الأمثلة من الفلسفة العملية. فغياب الولد دام يومـين، وكان جاك قلقاً نوعاً ما بالرغم من مظهره المدعي والمتبجح، حين دخل في اليوم الثالث تلميذ مـن الصفوف الأعلى إلى الصف وأعلم السيد برنار أن المدير يطلب التلميذ كورمري. لم يكن يستدعي أحد إلى المدير إلا في الحالات الخطرة، واكتفى المعلم وقد رفع حاجبيه الغليظين أن قال: "اسـرع، هيا أيها البعوضة. آمل أنك لم ترتكب حماقة ". كان جاك، وقد ارتخت ساقاه، يتبع التلميذ الكبير على طول الرواق فوق الباحة المطلية بالاسمنت والمزروعة بأشجار كف مريم ذات الظل الضعيــف الذي لم يكن ليحمي من الحرارة الملتهبة حتى مكتب المدير الواقع في الطرف الآخر للرواق. إن أول شيء رآه وهو يدخل، أمام مكتب المدير، كان مينوز محاطاً بأمه وبسيد ذي مظهر مقطب. بالرغم من العين المتورمة والمغلقة تماماً التي كانت تشوه رفيقه، فلقد شعر بارتياح أن وجده حياً. ولكنه لم يتسع له الوقت ليتذوق هذا الارتياح. قال المدير، وكان رجلاً قصـــيراً اصلــع ذا وجــه وردي، وصوت قوي: " هل أنت الذي ضربت رفيقك؟ ". قال جاك بصوت خائف: " نعـــم". قـالت السيدة: " لقد قلت لك ذلك ياسيدي، ليس أندريه بوغد ". قال جاك: " لقد تقاتلنا"، قال المدير: لاأريد أن أعرف ذلك. أنت تعلم أني منعت كل قتال، حتى خارج المدرسة. لقد جرحت رفيقك. وقد كان ممكناً أن تجرحه جرحاً أكثر خطورة. وعلى سبيل الانذار الأول، ستلزم الحائط طـــوال الأسبوع وقت الفرصة. وإذا أعدت الكرة، فستطرد. سأعلم أهلك بعقوبتك. بإمكانك أن تعـــود إلى صفك". بقي جاك وقد صعق، بلا حراك. قال المدير: " هيا ". حين عاد جاك إلى الصف، قال

[٢] صخرة TARPIENNE ، كان يلقى من أعلاها المجرمون في روما (المترجمة).

[٣] الكابيتول: واحدة من الهضاب السبع لروما، وبمعنى أضيق، واحدة من القمتين تحمل معبد جوبيتر. والمقصود هنا أن العقاب جاء سريعاً (المترجمة).

له السيد برنار: " حسناً، يافانتوماس ؟ " كان جاك يبكي. " هيا تكلم، إني مصغ إليك". أعلن الولد بصوت متقطع أولاً عن العقوبة، ثم أن والدي مينوز قد اشتكيا، وأخيراً كشف عن القتال. " لماذا تقاتلتما ؟ - سماني " المدلل ". - مرة ثانية ؟ - كلا، هنا، في الصف. - آه كان هو القائل وتعتقد أني لم أدافع عنك بشكل كاف ". كان جاك ينظر إلى السيد برنار بكل جوارحه. " آه بلا آه بلا إنك ... " وانفجر ببكاء صادقٍ. قال السيد برنار: " اذهب واجلس". قال الولد وهو يبكي: - ليس هذا عادلاً "، أجابه بعذوبة : " بلى " [١] .

في اليوم التالي، في الفرصة، وقف جاك في زاوية الحائط في آخر الباحة المظللة، وقد أدار ظهره للباحة، ولصراخ رفاقه الفرح. كان يغير ارتكازه على ساقيه[أ] ، وكان يموت شوقاً للركض هو أيضاً، من وقت لآخر، كان يلقي نظره إلى الوراء ويرى السيد برنار يتنزه مع زملائه في ركن من الباحة دون أن ينظر إليه. ولكن، في اليوم التالي، لم يره قد وصل من وراءه وضربه بلطف على أسفل رقبته: " لاتتخذ هذه السحنة، ياشقي، إن مينوز هو أيضاً مثلك ، واقف على الحائط معاقب. انظر، أسمح لك بالنظر". في الطرف الآخر من الباحة، كان مينوز وحيداً فعلاً وكئيباً. " لقد رفض المتواطئون معك أن يلعبوا معه طوال الأسبوع الذي أنت واقف فيه على الحائط. كان السيد برنار يضحك. " أترى، أنكما معاقبان كلاكما. وهذا عادل". ثم انحنى نحو الطفل ليقول له، بضحكة ودية جعلت موجة من الحنان تصعد إلى قلب المحكوم عليه: " قل لي، " أيتها البعوضة "، من يصدق حين يراك أن ضربة قبضة بهذه القوة ".

إن هذا الرجل، الذي كان يتحدث اليوم إلى كناريه، وكان يناديه "صغيري" وقد بلغ الأربعين، لم يكف جاك أبداً عن حبه، بالرغم من كل السنين، والبعاد، وأخيراً الحرب العالمية الثانية، التي فصلته جزئياً عنه ثم كلياً وقد بقي بلا أخبار عنه، وعلى العكس، كم كان سعيداً كما يفرح الطفل عام ١٩٤٥ حين جاء جندي إقليمي مسن يلبس معطفاً عسكرياً يقرع بابه، في باريس، وكان السيد برنار الذي تطوع من جديد، كان يقول: " لست من انصار الحرب، ولكني ضد هتلر، وأنت أيضاً ياصغيري لقد حاربت، آه كنت أعرف أنك من الجنس الطيب الأصيل، لم تنسَ أمك كذلك، كما آمل، حسن، وأمك. أيوجد في العالم أفضل منها، والآن سأعود إلى مدينة الجزائر، تعال لزيارتي"، كان جاك يذهب كل سنة لزيارته منذ خمسة عشر عاماً، كل سنة مثل اليوم حيث كان يقبل قبل رحيله الرجل العجوز المتأثر الذي كان يمسك يده على عتبة الباب،

---

[١] سيدي لقد أوقفني على ساق.

[أ] يتوقف المقطع هنا.

وكان هو الذي رمى جاك في العالم، وقد أخذ وحده على عاتقه مسؤولية اقتلاعه من جذوره كي يذهب نحو اكتشافات أعظم[أ] .

كان العام الدراسي يوشك على نهايته، ولقد أمر السيد برنار جاك وبيير وفلوري وهم نوع من الظاهرة، كانوا ينجحون لديه في كل المواد. كان المعلم يقول: " إن رأسه متعدد العلوم" وكان سانتياغو الصبي الجميل ذا مواهب قليلة ولكنه كان ينجح بفضل اجتهاده. قال السيد برنار حين انصرف التلاميذ: أنتم أفضل تلاميذي. لقد قررت أن أقدمكم للحصول على منحة دراسية للمدارس الثانوية والإعدادية. فإذا نجحتم، تحصلون على منحة ويمكنكم أن تتابعوا دراستكم في الثانوية حتى البكالوريا. إن المدرسة الابتدائية هي أفضل المدارس ولكنها لن تفضي بكم إلى شيء. أما المدرسة الثانوية فتفتح لكم كل الأبواب. وإني أفضل أن يدخل هذه الأبواب صبيان فقراء مثلكم. ولكن من اجل ذلك، تلزمني موافقة أهلكم، هيا اركضوا ".

جروا، مذهولين، وافترقوا دون أن يتشاوروا. وجد جاك جدته وحدها في البيت تنقي العدس على غطاء الطاولة المشمع، في غرفة الطعام. تردد، ثم قرر ان ينتظر مجيء أمه. وصلت متعبة بشكل واضح. فوضعت مئزر الطبخ وأتت تساعد الجدة في تنقية العدس. عرض جاك مساعدهما، فأعطياه صحناً أبيض من الخزف الخشن كانت تنقية العدس من الحجارة فيه أسهل. أعلن النبأ، وأنفه في الصحن. قالت الجدة: " ماهذه الحكاية ؟ في أية سن تقدم البكالوريا؟ قال جاك: - بعد ست سنوات". أبعدت الجدة صحنها. قالت لكاترين كورمري: " أتسمعين" ؟. لم تكن قد سمعت. فأعاد جاك الخبر عليها، ببطء. قالت: " آه لأنك ذكي. - ذكي أم لا، يجب أن يتعلم مهنة العام القادم. أنت تعرفين أنه ليس عندنا مال. سيأتي بأجرة أسبوعه. قالت كاترين: - هذا صحيح ".

كان النور والحرارة قد بدأا يمتدان في الخارج. في هذه الساعة كانت الورشات تعمل بجد، وكان الحي خالياً صامتاً. كان جاك ينظر إلى الشارع. لم يكن يعرف ماذا يريد، اللهم إلا أن يطيع السيد برنار. ولكن، وهو في التاسعة من عمره، لم يكن يستطيع ولا يعرف أن يعصي جدته. كانت مترددة مع ذلك، بشكل واضح. " ماذا ستفعل بعد ذلك؟ - لاأعرف. ربما صرت معلماً، مثل السيد برنار. - أجل، بعد ست سنوات كانت تنقي العدس ببطء أكبر. قالت: " آه ثم كلا، إننا فقراء جداً. ستقول للسيد برنار إننا لانستطيع ".

في اليوم التالي، أعلن الثلاثة الآخرون لجاك أن أسرهم قد وافقت. " وأنت؟ - قال: - لاأعرف، ولقد انقبض قلبه لمجرد شعوره فجأة أنه أكثر فقراً من أصدقائه. بعد الدرس، بقي الأربعة

[أ] المنحة الدراسية.

كلهم. أعطى بيير، وفلوري، وسانتياغو جوائهم. " وأنت، أيها البعوضة ؟ - لاأعرف. " كان السيد برنار ينظر إليه. قال للآخرين: " حسناً، ولكن عليكم ان تدرسوا معي مساء بعد الصف. سأرتب ذلك، تستطيعون الذهاب". حين خرجوا، جلس السيد برنار في كرسيه وجر جاك بالقرب منه. " إذن ؟ - تقول جدتي إننا فقراء جداً وأن علي أن أشتغل العام القادم. - وأمك؟ - إن جدتي هي التي تأمر. قال السيد برنار: " أعرف". كان يفكر، ثم أخذ جاك بين ذراعيه. " اسمع: يجب أن تفهمهما. فالحياة شاقة بالنسبة إليها. فهما وحدهما، ربياكما، أنت وأخاك، وجعلا منكما الصبين الصالحين اللذين أنتما الآن. لذا فهي تخاف، وهي مضطرة. عليها أن تستمر في مساعدتك قليلاً بالرغم من المنحة، وعلى كل حال، لن تجلب مالاً إلى البيت خلال ست سنوات. هل تفهمها؟ " هز جاك رأسه من الأسفل إلى الأعلى دون أن ينظر إلى معلمه. " حسناً. ولكن قد نستطيع أن نشرح لها. خذ محفظتك، إني آت معك قال جاك: - إلى البيت؟ - طبعاً، يسرني أن أرى أمك ثانية ".

بعد قليل، كان السيد برنار، تحت نظرات جاك المذهولة، يدق باب بيته. أتت الجدة تفتح وهي تنشف يديها بمئزرها ذي الحزام الضيق جداً والذي كان يبرز بطن المرأة العجوز. حين رأت المعلم، رفعت يديها نحو شعرها لتسرحه. قال لها السيد برنار: " إذن، أيتها الجدة، أنت غارقة في العمل، كالمعتاد؟ آه لك الفضل". أدخلت الجدة الزائر إلى غرفة النوم التي كان عليهم اجتيازها للوصول إلى غرفة الطعام، أجلسته قرب الطاولة، وأخرجت كؤوساً ومشروب اليانسون. "لاتزعجي نفسك، أتيت أتحدث معك قليلاً ". وليبدأ، راح يسألها عن أولادها، ثم عن حياتها في المزرعة، وعن زوجها، ثم تحدث عن تلاميذه هو. في هذا الوقت، دخلت كاترين كورمري، فارتاعت وسمت السيد برنار " سيدي المعلم" عادت إلى غرفتها وسرحت شعرها ثم وضعت مئزراً جديداً، وأتت تجلس على طرف كرسي بعيد قليلاً عن الطاولة. قال السيد برنار لجاك: " اذهب أنت إلى الشارع وانتظرني هناك. سآتي حالاً. قال للجدة : أنت تقدرين، سأتكلم بالحسنى عنه وهو قادر أن يصدق أن هذه هي الحقيقة ... " خرج جاك، وهو يقفز الدرج ووقف على عتبة باب المدخل. بقي واقفاً أكثر من ساعة، وبدأ الشارع يزخر حيوية، وكانت السماء تميل من خلال أشجار التين إلى اللون الأخضر، حين نزل السيد برنار الدرج وبرز خلف ظهره. كان يحك له رأسه. قال: " حسناً، اتفقنا. إن جدتك امرأة شجاعة. أما أمك... قال: آه، لاتنسها أبداً ". قالت الجدة فجأة وقد ظهرت من الممر. كانت تمسك مئزرها بيد وتمسح عينيها: " نسيت... قلت لي إنك ستعطي دروساً اضافية لجاك. قال السيد برنار: طبعاً، ولن يتسلى، صدقيني. - ولكننا لن نستطيع أن ندفع لك ". كان السيد برنار ينظر إليها بانتباه. أمسك جاك من كتفيه. " لاتهتمي

بذلك"، وكان يهز جاك، " لقد دفع لي وانتهى الأمر". كان قد ذهب، فأخذت الجدة جاك من يده لتصعد السلم ثانية، وللمرة الأولى كانت تشد يده بقوة، بنوع من الحنان اليائس وهي تقول: " ياصغيري، ياصغيري".

كان السيد برنار طوال شهر، يحتفظ كل يوم بعد انتهاء الدروس بالأولاد الأربعة مدة ساعتين ويدرسهم. كان جاك يعود مساءً متعباً ومتيقظاً ليكتب وظائفه أيضاً. كانت الجدة تنظر إليه بمزيج من الحزن والاعتزاز. كان أرنست يقول باقتناع: " رأسه صالح " وهو يضرب أعلى رأسه بقبضته. كانت الجدة تقول: " أجل، ولكن ماذا سنصير؟ " وذات مساء، انتفضت الجدة وهي تقول: " ومناولته الأولى ؟ " في الحقيقة، لم يكن للدين أي مكان في الأسرة[1] . لم يكن أحد يذهب إلى القداس، لأحد يبتهل، أو يعلم الوصايا الإلهية، كما لم يكن احد يلمح بالثواب وبالعقاب في العالم الآخر. حين كانوا يقولون عن أحد أمام الجدة إنه قد مات، كانت تجيب: " حسناً، لم يعد يضرط". وإن كان الميت شخصاً تربطها به مودة، كانت تقول: " المسكين، كان لايزال شاباً "، وإن كان المتوفى، منذ زمن طويل، في سن الموت. لم يكن هذا عن عدم إحساس لديها. لأنها كانت قد رأت كثيرين يموتون حولها. طفليها، زوجها، صهرها وأولاد اخوتها وأخواتها في الحرب. لذلك كان الموت مألوفاً جداً عندها مثل العمل أو الفقر، لم تكن تفكر فيه ولكنها كانت تعيشه نوعاً ما، كما أن فاقة الحاضر كانت بالنسبة إليها أقوى بكثير مما كانت لدى الجزائريين بشكل عام، وقد حرموا بسبب مشاغلهم وبسبب مصيرهم الجماعي من هذا التدين المأتمي الذي يزهر في ذروة الحضارات[أ] . كان ذلك بالنسبة إليهم، محنة عليهم مجابهتها، كما جابه المحن من سبقوهم، والذين لايتحدثون عنهم أبداً، أو قد يحاولون أن يبرهنوا على هذه الشجاعة التي جعلوا منها فضيلة الإنسان الرئيسية، ولكن بانتظار ذلك وجب محاولة نسيانها أو ابعادها. (من هنا يأتي المظهر المضحك الذي كان يأخذه كل مأتم. الخال موريس؟) وإذا اضيف إلى هذا الاستعداد العام ضراوة الصراعات والعمل اليومي، إذا لم يكن في الحسبان ماحل بأسرة جاك نفسها من فقر منهك فظيع، يصبح من العسير إيجاد مكان للدين. بالنسبة للخال أرنست الذي كان يعيش على صعيد الإحساس، كان الدين، ما يراه: أي الخوري والأبهة أبهته. وقد سخر مواهبه الهزلية، كان لايقصر في أية مناسبة ليحاكي حفلات القداس، وهو يزينها بحركات صوتية [ينسجها] كانت تمثل اللغة اللاتينية، وفي النهاية كان يمثل في آن واحد دور المؤمنين الذين يحنون رؤوسهم على صوت الجرس والكاهن، وقد استفاد من هذه الوضعية، يشرب خلسة نبيذ القداس. أما بالنسبة

---

[1] على الهامش: ثلاثة أسطر غير مقروءة.

[أ] الموت في الجزائر.

لكاترين كورمري، فلقد كانت الوحيدة التي قد تبعث عذوبتها على التفكير في الإيمـان، ولكـن كانت العذوبة على وجه التحديد كل إيمانها. لم تكن تفكر، ولا تؤيد، ضاحكة قليلاً من مزاحات أخيها، ولكنها كانت تقول " السيد الخوري" للكهنة الذين كانت تصادفهم. لم تكن تتكلم أبـداً عن الله. لم يسمع جاك، والحق يقال، هذه الكلمة تلفظ أبداً طوال طفولته، وهو نفسه لم يكـن يهتم بذلك. كانت الحياة، العجيبة والمتفجرة، كافية لأن تغمره تماماً.

وبالرغم من كل ذلك، فإذا كان الموضوع يدور في اسرته عن مأتم مدني، لم يكن من النادر، أن تروح جدته أو خاله وبشكل متناقض بالتأسف على غياب الكاهن. كانا يقـولان: " مثـل الكلب". ذلك أن الدين كان يُعد بالنسبة إليهما، كما لمعظم الجزائريـين، جـزءاً مـن الحيـاة الاجتماعية ومنها فقط. كانوا كاثوليكيين كما هم فرنسيون، وهذا مايقتضي عدداً من الطقـوس. والحقيقة، كان عدد الطقوس أربعة تماماً: العماد، والمناولة الأولى، وسر الزواج (إن كـان هنـاك زواج) والأسرار الأخيرة. وبين هذه المراسم المتباعدة جداً حتماً، كانوا يهتمون بأشياء أخـرى، وأولها أن يبقوا أحياء.

كان من البدهي إذن أن يتقدم جاك لمناولته الأولى كما كان قد فعل هنري، الـذي كـان يحتفظ بأسوأ ذكرى ليس عن الحفلة بحد ذاتها ولكن عن نتائجها الاجتماعية وخاصة الزيارات التي كان ملزماً بالتالي أن يقوم بها خلال ايام كثيرة، وقد وضع شريطاً على ساعده، تلك الزيـارات للأصدقاء والأهل الذين كان عليهم أن يقدموا له هدية صغيرة من المال، كان الولد يتلقاها بحـرج وكانت الجدة تسترد منه المبلغ وترد له قسماً ضئيلاً جداً منه، محتفظة بالباقي لأن المناولة " كـانت تكلف". ولكن هذه الحفلة كانت تحدث في حوالي الثانية عشر من عمر الولد، والذي كان عليـه طوال سنتين أن يتبع دروساً في التعليم المسيحي. إذن لم يكن جاك ليتقدم إلى مناولته الأولى قبـل السنة الثانية أو الثالثة للمدرسة الثانوية. لذا فلقد انتفضت الجدة كل الانتفاضة لهذه الفكرة. كانت قد كونت عن المدرسة الثانوية فكرة غامضة ومرعبة قليلاً، وأيضاً عن مكان كان يجب العمل فيـه عشرة أضعاف أكثر من المدرسة الابتدائية لأن هذه الدروس تؤدي إلى مراكز افضل، وكانت تفكر أن لايمكن الحصول على تحسين مادي بدون زيادة العمل. وكانت تتمنى من جهة أخـرى بكـل قواها نجاح جاك نظراً للتضحيات التي قبلتها مسبقاً، وكانت تتصور أن وقت التعليـم المسـيحي سيكون على حساب الدرس. قالت: " كلا، لايمكن أن تكون في آن واحد في الثانوية وفي التعليـم المسيحي. - حسناً. لن أتقدم إلى مناولتي الأولى"، أجاب جاك الذي كان يفكر خاصة بـالتخلص من مشقة الزيارات ومن الإذلال الذي لايطاق بتلقيه المال. نظرت إليه الجدة قائلة: " ولماذا؟ يمكـن تدبير الأمر. البس ثيابك. سنذهب لرؤية الخوري". نهضت وعبرت إلى غرفتها بهيئة حازمة. حـين

عادت، كانت قد نزعت قميصها الفضفاض وتنورة العمل، ولبست ثوبها الوحيد للخروج [ ][1] المزرور حتى العنق، وربطت حول رأسها منديلاً من الحرير الأسود. كانت ضفائر الشعر الأبيض تحيط بالمنديل، كما كانت عيناها المشرقتان وفمها الحازم تعطيها مظهر التصميم الصرف.

في موهف كنيسة القديس شارل، وهي عبارة عن بناء قبيح لطراز غوطي حديث، كانت جالسة، ممسكة بيد جاك الواقف بالقرب منها، أمام الخوري، وهو رجل ضخم في الستين من العمر، ذو وجه مستدير، مترهل قليلاً، وأنف ضخم، كان فمه الغليظ ذا ابتسامة طيبة تحت تاج من الشعر الفضي، وكان يضم يديه على ثوبه المنبسط بركبتيه المنفرجتين. قالت الجدة: " أريد أن يتقدم الصغير لمناولته الأولى. – حسناً جداً، ياسيدتي، سنجعل منه مسيحياً صالحاً. كم عمره؟ - تسع سنوات. - أنت على حق أن تضعيه في دروس التعليم المسيحي مبكراً. ففي ثلاث سنوات، سيكون مهيأ على أكمل وجه لهذا اليوم العظيم. قالت الجدة باقتضاب : – كلا عليه أن يتقدم فوراً - فوراً ؟ ولكن المناولات ستتم بعد شهر، ولا يستطيع أن يتقدم إلى الهيكل إلا بعد سنتين على الأقل من التعليم المسيحي". شرحت الجدة الأمر. ولكن الخوري لم يقتنع البتة من استحالة التوفيق بين دروس المدرسة الثانوية والتعليم الديني. وبكثير من الصبر والطيبة، راح يستشهد من تجربته ويعطيها الأمثلة... نهضت الجدة قائلة: " في هذه الحال، لن يتقدم إلى المناولة الأولى. هيا، تعالَ ياجاك"، وجرت الولد نحو الباب. ولكن الخوري ركض وراءها قائلاً: " انتظري، سيدتي، انتظري". وأعادها بلطف إلى مكانها، وحاول ان يعقلها. إلا أن الجدة كانت تهز رأسها كبغلة عنيدة. " إما حالاً وإما أن يستغني عنها ". في النهاية، وافق الخوري. فاتفقا أن يتقدم جاك إلى المناولة الأولى في شهر، بعد أن يكون قد تلقى تعليماً دينياً مكثفاً. رافقها الخوري إلى الباب، وهو يهز رأسه ويداعب خد الطفل قائلاً: " اسمع جيداً ماسيقال لك" وكان ينظر إليه بنوع من الحزن.

جمع جاك إذن الدروس الإضافية مع السيد جيرمان ودروس التعليم المسيحي ليومي الخميس والسبت مساءً. كانت امتحانات المنحة الدراسية والمناولة الأولى تقترب في آن واحد، وكانت أيامه مليئة جداً، بشكل لم يعد هناك مكان للعب، حتى يوم الأحد خاصة، حين كان يترك دفاتره، كانت جدته تطلب منه خدمات مترلية وكذلك الذهاب لشراء بعض الحاجات وهي تذكره بتضحيات المستقبل التي قبلتها الأسرة لتعليمه وكذلك سلسلة تلك السنوات الطويلة التي لن يقدم شيئاً للمترل. كان جاك يقول: " ولكن، ربما سأرسب، فالامتحان صعب عسير". وبنوع ما، كان يتمنى ذلك، وقد وجد عبء هذه التضحيات التي كانوا يحدثونه عنها على الدوام ثقيلاً جداً على

---

[1] كلمة غير مقروءة .

كبريائه الفتية. كانت الجدة تنظر إليه منذهلة. لم تكن قد فكرت بهذا الاحتمال. ثم رفعت كتفيها قائلة: " أنصحك بذلك، فستحرق ردفيك". كان يعطي دروس التعليم المسيحي الخوري الثاني للرعية، كان ضخماً بلباسه الأسود الطويل، جافاً، ذا أنف كالصقر وخدين غائرين، كان قاسياً بقدر ماكان الخوري العجوز لطيفاً وطيباً. كانت طريقته في التعليم التسميع غيباً، وبالرغم من أنها بدائية، فلربما كانت الوحيدة الملائمة فعلاً للشعب الصغير الجلف والمحدود الذي عهد إليه لتكوينه روحياً. كان عليهم تعلم الأسئلة والأجوبة: " ماهو الله ؟ ... "[أ] لم تكن هذه الكلمات تعني شيئاً للمبتدئين في تعلم الدين، وكان جاك ذا ذاكرة ممتازة، يسمع هذه التعاليم برباطة جأش دون أن يفهمها إطلاقاً. وحين كان ولد آخر يُسمع، كان هو يحلم، يفغر فاه ببلاهة أو يصعر خده مع رفاقه. وفي إحدى حركاته الساخرة فاجأه الخوري ذات يوم، وقد ظن أن هذه الحركة قد وجهت إليه، ورأى أنه من الواجب فرض الاحترام على الطابع المقدس الذي يمثله، نادى جاك أمام جماعة الأولاد، وهناك، بيده العظيمة الطويلة، وبدون أي تعليل آخر، صفعه بقوة كبيرة. كاد جاك يقع من قوة الضربة. قال الخوري: " عد إلى مكانك، الآن"، نظر إليه الطفل، وبلا دمعة (وكان الحب والطيبة يجعلانه يبكي، طوال حياته، ولم يبكه قط الشر أو الاضطهاد والتعذيب التي كانت على العكس تقوي قلبه وتثبت عزيمته)، ورجع إلى مقعده. كان الطرف الأيسر يحترق، وشعر بطعم الدم في فمه. ومن طرف لسانه، اكتشف أن داخل خده قد انشق من الضربة وأن الدماء تخرج منه، فبلع دمه.

كان طوال بقية دروس التعليم غائباً، وهو ينظر بهدوء، وبلا ملامة وأيضاً بلا ود، إلى الكاهن حين كان يكلمه، وهو يسمع بلا خطيئة واحدة، الأسئلة والأجوبة التي تمس الذات الإلهية وتضحية المسيح، وهو بعيد جداً عن الموضع الذي يسمع منه، يحلم بهذا الامتحان المزدوج الذي يصبح في النهاية واحداً. غارقاً في العمل كما في الحلم نفسه الذي كان يستمر، وقد تأثر فقط ولكن بشكل غامض من قداسات المساء التي راحت تتزايد في الكنيسة القبيحة الباردة، ولكن كان الأرغن يسمعه موسيقى يسمعها للمرة الأولى، ذلك أنه لم يسمع حتى ذاك الوقت إلا أنغاماً تافهة، فيحلم حينئذٍ بقوة أكبر وبعمق أشد حلماً يزخر بتألق الذهب في شبه عتمة الأغراض الدينية والملابس الكنسية، سعياً للقاء السر، ولكنه سر بلا اسم حيث الذات الإلهية التي سميت وعرفت بشكل دقيق بالتعليم المسيحي، لاعمل لها هنا ولا صلة لها بذلك، والتي تطيل ببساطة العالم العاري الذي يعيش فيه. إنه السر الحار، الداخلي وغير الواضح، حيث كان يسبح حينئذٍ، هو امتداد فقط للسر اليومي لابتسامة أمه الخفية أو لصمتها حين كان يدخل غرفة الطعام، وقد أقبل المساء، وكانت وحدها في

[أ] مراجعة تعليم مسيحي.

البيت، فلم تشعل مصباح البترول، تاركة الظلام يغمر الغرفة رويداً رويداً، كانت هـــي نفســـها شكلاً أكثر عتمة وأشد كثافة أيضاً، كانت تنظر بتأمل عبر النافذة، إلى حركات الشارع النشيطة، والصامتة بالنسبة إليها، وكان الطفل يتوقف على عتبة الباب، وقد انقبض قلبه، وامتلأ بحب يـلئس نحو امه، وهو لاينتمي أو لم يعد يمت بصلة إلى العالم ولا إلى خشونة الأيام. ثم كانت المناولة الأولى التي لايحفظ منها إلا ذكرى صغيرة ألا وهي اعتراف عشية المناولة حيث اعترف بالأفعال الوحيـدة التي قالوا له عنها إنها خاطئة، أي قليل من الأشياء، و "ألم تخطر لك أفكار آثمة ؟ - بلى، يـــأبي"، قال الطفل ذلك على سبيل الاحتياط علماً بأنه كان يجهل كيف يمكن لفكرة أن تكون مذنبـــة، وحتى اليوم التالي، عاش في خشية أن يتركها تفلت دون أن يدري فكرة آثمة أو، ماكان أوضح له، واحدة من الكلمات غير اللائقة التي كانت تزخر بها مفرداته المدرسية، ولقد حاول جهده ألا يتفوه بكلمات حتى صباح الحفلة، حيث ألبس طقماً كحلياً، وربطة ذراع. وقد حمل كتاب صلاة صغيراً وسبحة بحبات صغيرة بيضاء، كان كل هذا يقدمه الأقرباء الأقل فقراً (الخالة مرغريت، إلخ.) وكان يهز شمعة في الممر الرئيسي وسط صف أولاد آخرين يحملون الشموع تحت أنظار الأهل المنذهلـة وقد وقفوا في صفوف المقاعد، وجلجلة الموسيقى التي دوت حينئذٍ قد جمدته، وملأته هلعاً وحماسة فائقة حيث شعر للمرة الأولى بقوته، بمقدرته اللامحدودة على الانتصار وعلى الحياة، ولقد ســكنته هذه الحماسة طوال الحفلة، وجعلته ذاهلاً عن كل مايحدث، حتى وقت المناولة، وكذلـــك أثنـــاء العودة والطعام حيث دعي الأهل إلى مائدة كانت أكثر [غنى] منها عادة وقد أثارت شيئاً فشيئاً المدعوين الذين اعتادوا أن يأكلوا قليلاً ويشربوا قليلاً أيضاً، إلى أن ملأ الغرفة شيئاً فشـيئاً مـــرح عظيم، قضى على حماسة جاك حتى إنه وقت التحلية بعد الغداء، في قمة الهيجان العام، انفجـــر في البكاء. قالت الجدة: " ماذا دهاك؟ - لاأدري، لا أدري" فصفعته الجدة وقد اغتاظت. قـــالت: " هكذا، ستعرف لماذا تبكي". في الحقيقة، كان يعرف السبب، ذلك أنه نظر إلى أمه التي كـــــانت تبتسم له من فوق الطاولة ابتسامة صغيرة حزينة.

قال السيد برنار: " سارت الأمور على مايرام، حسناً، والآن هيا إلى العمل". بقي عدة أيـــام لعمل شاق، ولقد أعطيت الدروس الأخيرة في منزل السيد برنار ذاته (وصف الشـــقة ؟)، وذات صباح، على موقف الترام، بالقرب من منزل جاك، كان التلاميذ الأربعة وقد تزودوا بدفتر يوضـع تحت أيديهم، وبمسطرة ومقلمة قد وقفوا حول السيد جيرمان، بينما كان جاك يرى في شرفة بيتـه أمه وجدته منحنيتين إلى الأمام وتلوحان لهم باشارات كبيرة.

كانت المدرسة الثانوية التي تجري فيها الامتحانات تقع في الطرف الآخر على وجه الدقة، في الطرف الآخر من قوس الدائرة الذي تشكله المدينة حول الخليج، في حي كان في المـــاضي ثريـــاً

وكئيباً، وقد أصبح بفضل الهجرة الاسبانية أحد الشوارع الأكثر شعبية وحيوية في مدينة الجزائر. كانت الثانوية نفسها بناء ضخماً مربعاً يشرف على الشارع. وكان سلمان جانبيان وواحد في الواجهة، عريض وضخم، تؤدي إلى الداخل، وقد التصق بها من كل طرف حدائق هزيلة زرعت بأشجار الموز و[1] تحميها شبكات من تخريب الطلاب الهمجي. كان السلم الرئيسي يؤدي إلى رواق يجمع السلمين الجانبيين ويفتح منه الباب الضخم الذي يستعمل في المناسبات الكبيرة، وبالقرب منه باب أصغر بكثير يؤدي إلى حجرة البواب الزجاجية وكان يستخدم غالباً.

ففي هذا الرواق، وسط أوائل الطلاب القادمين الذين كان معظمهم يخفي تهيبه بمشية متحررة، ماعدا بعضهم الذي كان شحوب وجوههم وصمتهم يكشفان عن قلقهم في هذا الرواق، كان السيد برنار وتلاميذه ينتظرون، أمام الباب المغلق، في الصباح الباكر الذي لازال ندياً وأمام الشارع الذي بقي رطباً والذي ستغطيه الشمس قريباً بالغبار. وصلوا مبكرين بأكثر من نصف ساعة، وكانوا صامتين، وقد أحاطوا معلمهم، الذي لم يكن لديه شيء يقوله لهم والذي تركهم فجأة قائلاً إنه سيعود. رأوه يعود فعلاً بعد قليل، متأنقاً دائماً بقبعته ذات الحرف المبروم والبنطال الضيق الذي لبسه ذاك اليوم، حاملاً بكل يد حزمتين من ورق الحرير الملفح في طرفه على شكل ضفرة كي يمسك، وحين اقترب، رأوا الورق مبقعاً بالدسم. قال السيد برنار: " هذه فطائر، كلوا واحدة الآن، واحتفظوا بالأخرى للساعة العاشرة ". شكروه ثم أكلوا، ولكن العجينة المعلوكة والعسيرة الهضم مرت بصعوبة من حلقهم. كرر المعلم: " لاترتاعوا. تمعنوا في قراءة نص المسالة، وفي قراءة موضوع الإنشاء. اقرؤوهما مرات كثيرة. فلديكم الوقت الكافي". أجل، سيقرؤون مرات كثيرة، سيطيعونه، هو الذي كان يعرف كل شيء وبالقرب منه كانت الحياة بلا صعوبات، كان يكفي ان يستسلموا لقيادته. في هذه اللحظة، حدثت جلبة بالقرب من الباب الصغير. اتجه الستون طالباً مجتمعين في تلك الوجهة. كان حاجب قد فتح الباب وراح يقرأ القائمة. كان اسم جاك بين المسمين الأوائل. كان يمسك حينئذٍ يد معلمه، فتردد. قال السيد برنار: " اذهب، يابني". اتجه جاك، وهو يرتجف، نحو الباب، وفي لحظة اجتيازه، استدار نحو معلمه. كان هناك، طويلاً، متيناً، يبتسم بهدوء لجاك ويهز رأسه بالإيجاب.

كان السيد برنار ينتظرهم، ظهراً عند الخروج. اطلعوه على مسوداتهم. كان سانتياغو وحده الذي أخطأ في حل المسالة. قال لجاك باقتضاب: " إن موضوعك الإنشائي جيد جداً ". في الساعة الواحدة رافقهم ثانية. في الساعة الرابعة، كان لايزال هناك وفحص عملهم. قال: " فلنذهب، علينا

---

[1] لايوجد أية كلمة بالتالي في المخطوطة.

أن ننتظر". بعد يومين، كان الخمسة كلهم أمام الباب الصغير في الساعة العاشرة صباحاً. فتح الباب وقرأ الحاجب من جديد قائمة كانت أقصر بكثير كانت هذه المرة بأسماء الذين اختيروا. لم يسمع جاك، وسط الجلبة، اسمه. ولكنه تلقى ضربة فرحة على رقبته وسمع السيد برنار يقول له: " أحسنت، ايها البعوضة. لقد نجحت". كان سانتياغو اللطيف وحده الراسب وكانوا ينظرون إليه بنوع من الحزن الشارد. كان يقول: " لايهم، لايهم" لم يعد جاك يعرف أين هو، ولا ماذا حدث، كان الأربعة عائدين بالترام. قال السيد برنار: " سأذهب لأرى أهلكم، سأمر اولاً ببيت آل كورمري لأنه الأقرب". وفي غرفة الطعام الفقيرة وقد امتلأت الآن بالنساء حيث جلست الجدة، وأمه، التي أخذت يوم إجازة بهذه المناسبة [أ] ، ونساء آل ماسون جاراتهم، كان واقفاً بالقرب من خاصرة معلمه، يستنشق للمرة الأخيرة رائحة ماء الكولونيا وقد التصق بدفء هذا الجسم المتين المحب، وكانت الجدة تشع فرحاً أمام الجارات وتردد : " شكراً سيد برنار، شكراً " في حين راح السيد برنار يداعب رأس الولد. قال له: " لم تعد تحتاج إلي، سيدرسك أساتذة اكثر علماً. ولكنك تعرف أين أنا، تعال لزيارتي إذا احتجت أن أساعدك ". ثم ذهب وبقي جاك وحيداً، ضائعاً وسط هؤلاء النساء، ثم أسرع إلى النافذة، وهو ينظر إلى معلمه الذي كان يحييه للمرة الأخيرة والذي تركه منذ الآن وحده، وبدلاً من فرح النجاح، كان الحزن العظيم الذي شعر به الطفل يعصر قلبه، كما لو كان يعرف مسبقاً أنه بهذا النجاح قد اقتُلع من عالم الفقراء البريء والمحب، عالم مغلق على ذاته كجزيرة في المجتمع ولكن يحل فيه البؤس محل الأسرة والتعاضد، ليلقى في عالم مجهول، لم يعد عالمه، حيث لايستطيع أن يصدق أن المعلمين أكثر معرفة من معلمه الذي كان قلبه يعرف كل شيء. وكان عليه منذ الآن أن يتعلم، وأن يفهم بدون مساعدة، كان عليه أخيراً أن يصبح رجلاً، دون مساعدة الرجل الوحيد الذي ساعده، أن يكبر ويترعرع وحده في النهاية، بأغلى الأثمان.

[أ] التأكد من برنامج المنحة الدراسية.

٧- موندوفي
الاستعمار والأب

الآن [أ]، أصبح كبيراً... على الطريق من بون إلى موندوفي، كانت العربة التي فيها ج. كورمري تتقاطع مع سيارات جيب انتصبت فيها البندقيات وكانت تسير ببطء...

" السيد فيَّار ؟

– نعم "

كان الرجل الذي ينظر إلى جاك كورمري، وقد وقف وسط باب مزرعة صغيرة، قصيراً ولكنه سمين بكتفين مستديرتين. كان يدفع بيده اليسرى باب بيته المفتوح، بينما كان يضم بقوة بيده اليمنى إطار الباب، حتى إنه وهو يفتح طريق بيته، كان يسده. كان يبدو في الأربعين من عمره، حسب شعره النادر الفضي الذي يجعل رأسه يبدو كأنه روماني. إلا أن بشرة وجهه المدبوغة وقد انتظمت تقاطيعه، ومعها عينان صافيتان، وجسم ثقيل نوعاً ما ولكنه خال من الشحم ومن الكرش في بنطاله الكاكي، وكذلك خفاه وقميصه الأزرق ذو الجيوب، كل ذلك يجعله يبدو أكثر شباباً. كان يصغي، جامداً، إلى تفسيرات جاك. قال له: " ادخل " ثم اختفى. بينما كان جاك يتقدم في الممر الصغير ذي الجدران المبيضة وقد أثث بصندوق بني، وبحامل مظلات خشبي مثني، سمع المزارع يضحك منه خلسة. " يبدو أنه حجاً حسناً، بصراحة، هذا هو الوقت الملائم. سأل جاك: – لماذا؟ أجاب المزارع: – ادخل إلى غرفة الطعام. إنها الغرفة الأكثر برودة ". كان نصف غرفة الطعام نوعاً من ظلة مغلقة أنزلت جميع ستائرها القشية اللينة ماعدا واحدة. فإلى جانب طاولة وصوان الخشب الفاتح اللون، كان أثاث الغرفة عبارة عن كرسي من القصب وكرسي طويل. حين استدار جاك، أدرك أنه وحده في الغرفة. اقترب من الظلة، ومن خلال الفراغ بين الستائر، رأى باحة زرعت بأشجار كف مريم كان يلمع من بينها جرارتان بلون أحمر فاقع. وأبعد من

أ عربة بحصان قطار باخرة طائرة.

ذلك، تحت شمس الساعة الحادية عشرة ذات أشعة لاتزال تحتمل، امتدت صفوف الكـــروم. وفي اللحظة التالية، دخل المزارع ومعه صينية صف عليها زجاجة يانسون، وأقداح وزجاجة ماء مبرّد.

رفع المزارع كأسه وقد امتلأت بالسائل الأبيض كالحليب. " لو كنت تأخرت، لما وجـدت شيئاً هنا. وعلى كل حال لما وجدت فرنسياً يفيدك بمعلومات. - إنه الطبيب العجوز الذي أعلمني أن مزرعتك قد ولدت فيها. - أجل، كانت جزءاً من دائرة سان- أبو تر، ولكـن والـدي قـد اشترياها بعد الحرب". كان جاك يجيل النظر حوله. " إنك لم تولد هنا حتماً. لقد أعاد والداي بناء كل شيء. - هل عرفا والدي قبل الحرب؟ - لاأعتقد ذلك. كانا يقيمان بالقرب مـن الحـدود التونسية، ثم أرادا أن يقتربا من الحضارة. كانت سولفرينو تعني بالنسبة إليـهما الحضـارة. - ألم يسمعا أحداً يتحدث عن المدير القديم؟ - كلا. وبما أنك من هذا البلد، فأنت تعرف عاداته. هنـا، لاأحد يحتفظ بشيء. يهدمون ويبنون ثانية. يفكرون في المستقبل وينسون الباقي- قـال جـاك: حسناً، لقد أزعجتك عبثاً. أجاب الآخر: - كلا، هذا يسرني". وابتسم له. أنهى جاك كأسه. "هل بقي والداك بالقرب من الحدود؟ - كلا، إنها المنطقة المحظرة. بالقرب من السـد. ويبـدو أنـك لاتعرف والدي". وبلع كذلك مابقي في قدحه، وكما لو أنه وجد فيه حماساً إضافيـاً، انفجـر ضاحكاً: " إنه مستعمر عجوز. على الطراز القديم جداً. من أولئك الذين يشتمونهم في بـاريس، كما تعرف. وفي الحق، كان دائماً قاسياً، طوال ستين سنة. إلاّ أنه كان طويلاً يابس العود مثـل البروتستانت المتزمتين برأسه [كالحصان]. كان أبوياً بجلاله، كما ترى. كان يعاني منـه كثـيرا عماله العرب، وكذلك، وبكل إنصاف، أبناؤه أيضاً. وحين ألزم العام الماضي بتخلية الأمـاكن، حدث اضطراب وبلبلة. أصبحت المنطقة لايطاق العيش فيها. كان علينا أن ننام مع البندقية. وحين هوجمت مزرعة راسكيل، ألا تذكر ذلك؟ قال جاك: - كلا - بلى، ذُبح الأب وولداه، واغتصبت الأم وابنتها مطولاً إلى أن ماتتا... والخلاصة... لقد أخطأ مدير الناحية حين قـال للمزارعـين مجتمعين: إنه يجب إعادة النظر في المشكلات [الاستعمارية]، وكذلك في طريقة معاملة العـرب، وإن صفحة قد انطوت الآن. سمع العجوز يقول له: إنه لاأحد في العالم يأمر في أرضه. ولكن، منذ ذاك الوقت، امتنع عن الكلام. وقد كان ينهض أحياناً في الليل ويخرج. كانت أمي تراقبه من خلال الستائر وتراه يمشي عبر أراضيه. وحين وصل أمر الإخلاء، لم يقل شيئاً. كان قطاف العنـب في كرومـه قـد انتـهى، وصـار النبيـذ في الدنـان. فتـح الدنـان، ثم ذهـب إلى نبـع ماء أجاج، (مالح) كان قد حول مجراه في الماضي فأعاده إلى الطريق المستقيم على أراضيه، وجـهز جرارة بمنقب. وطوال ثلاثة أيام، على مقود الجرارة، عاري الرأس، ودون أن ينبس ببنت شـفة، اقتلع أشجار العنب الواقعة على امتداد أراضيه. تصور هذا المشهد، العجوز اليابس العود ينتفـض

على جرارته، ويدفع رافعة المعجل حين لاتسحق سكة المحراث كرمة أضخم من البقية، لم يكن يتوقف لحظة ولا حتى ليأكل، كانت أمي تحضر له الخبز، والجبن و [النقانق] التي كان يبلعها بتمهل، شانه في كل عمل كان يقوم به، وقد رمى آخر قطعة خبز كبيرة ليعجل أكثر، كل ذلك كان يتم من شروق الشمس إلى غروبها، ودون أن يلقي نظرة واحدة على الأفق، ولا على العرب الذين أعلموا بذلك بسرعة، وقد وقفوا بعيدين ينظرون إلى مايفعل، صامتين هم أيضاً. وحين وصل نقيب شاب، لاأحد يعلم من خبره، وطلب تفسيرات، أجابه الآخر قائلاً: " أيها الشاب، لما كان ماصنعناه هنا جريمة، فيجب أن نمحيها". حين انتهى من كل شيء، عاد إلى المزرعة واجتاز الباحة المغمورة بالخمر التي هربت من الدن، ابتدأ بحزم أمتعته. كان العمال العرب ينتظرونه في الباحة (وكان هناك أيضاً دورية شرطة قد أرسلها النقيب، ولم يكن أحد يعرف لماذا، مع ملازم لطيف كان ينتظر الأوامر). " أيها الرئيس، ماذا علينا أن نفعل؟ قال العجوز: لو كنت مكانكم، لالتحقت بأدغال المقاومة. سينتصرون. لم يعد من رجال في فرنسا ".

كان المزارع يضحك: " ألا ترى، كان صريحاً !

– هل والداك معك ؟

– كلا، لم يعد والدي يريد أن يسمع بالجزائر. إنه في مرسيليا، في شقة حديثة... تكتب لي والدتي أنه يدور في غرفته ضجراً.

– وأنت ؟

– آه، أنا، سأبقى، وحتى النهاية. مهما حدث، سأبقى.

لقد أرسلت أسرتي إلى مدينة الجزائر وسأموت هنا. لاأحد يفهم ذلك في باريس. وإذا استثنينا أنفسنا، هل تعرف من يستطيع أن يفهم ذلك؟

– العرب

– تماماً. لقد وجدنا لنتفاهم معهم. إنهم أغبياء وأفظاظ مثلنا، ولكن فيهم دماء الرجال ذاتها. سوف نتقاتل قليلاً أيضاً. وسنؤذي بعضنا ونعذب بعضنا قليلاً. ثم سنعود للعيش ثانية مع بعضنا. أنه البلد الذي يقتضي ذلك. أتريد مشروب يانسون؟

قال جاك: أريده خفيفاً.

وبعد قليل، خرجا. سأل جاك إن كان قد بقي أحد في البلد عرف والديه. كلا، حسب ماقال فيَّار، ماعدا الطبيب العجوز الذي أشرف على ولادته والذي تقاعد في سولفرينو ذاتها، لايوجد أحد. إن مزرعة سان - أبو تر قد تغير مالكوها مرتين، كثير من العمال العرب قد ماتوا في الحربين، وكثيرون غيرهم ولدوا. كان فيَّار يردد قائلاً: " كل شيء يتغير هنا، الأمور تجري بسرعة، بسرعة كبرى، والناس ينسون". ومع ذلك، ربما العجوز تمزال... كان هذا الرجل حارس مزرعة من مزارع سان - أبو تر. في ١٩١٣، كان في العشرين من عمره. على كل حال، قد يرى جاك البلد الذي ولد فيه.

كان البلد محاطاً عن بعد، ماعدا الشمال، بالجبال وقد جعلت حرارة الظهيرة محيطها غير محدد، كما لو كانت مكونة من كتل حجرية ضخمة ومن غيوم مضيئة، كان ينبسط بينهما سهل نهر سيبوز، الذي كان في الماضي مليء بالمستنقعات، حتى بحر الشمال، تحت سماء ابيضت من القيظ، وكانت كروم العنب تصطفّ منتظمة، بأوراقها المزرقة من الزاج، وقد اسودت عناقيدها، تقطعها من بعيد خطوط أشجار السرو وباقات الكاليبتوس التي تتفيأ بظلها بيوت كثيرة. كانا يتبعان طريق إحدى المزارع حيث كانت كل خطوة من خطواتهما تثير غباراً أحمر. وأمامهما، كان الفضاء يهتز حتى الجبال والشمس تطن. حين وصلا إلى منزل صغير يقع خلف حزمة أشجار الدلب، كانا يتصببان عرقاً. حتى الجبال، استقبلهما كلب متخفٍ بنباح غاضب.

كان للبيت الصغير، الخرب، باب من خشب التوت قد أغلق بعناية. دق فيَّار الباب. فتضاعف النباح. كان يبدو آتياً من باحة صغيرة مغلقة، في الطرف الآخر للمنزل. إلاَّ أن أحداً لم يحرك ساكناً. قال المزارع: " الثقة تعم. إنهم هنا. ولكنهم ينتظرون.

صرخ قائلاً : " ياتمزال! أنا فيَّار ".

" منذ ستة أشهر، أتوا يطلبون زوج ابنته، كانوا يريدون أن يعرفوا إن كان يزود ثوار الأدغال بالمؤن. لم يعد يسمع أحد شيئاً عنه. منذ شهر، قيل لتمزال: من المرجح أن زوج ابنته قد أراد الهرب فقتل.

قال جاك: آه، وهل كان يزود الأدغال بالمؤن؟

- ربما نعم، وربما لا. ماالعمل؟ إنها الحرب. ولكن هذا يفسر لماذا تستغرق الأبواب وقتاً، في بلد الضيافة، لتُفتح ".

في هذا الوقت فتح الباب. ظهر تمزال، قصير القامة، شعره [ ] [1] ، وقد وضع على رأسه قبعة قشية ذات أطراف عريضة، ولبس قميصاً أزرق مرقعاً، كان يبتسم لفيَّار وينظر إلى جاك. " إنه صديق. لقد ولد هنا. قال تمزال: أدخل، سنشرب شاياً ".

لم يكن تمزال يتذكر شيئاً. أجل، ربما. كان قد سمع من أحد أعمامه عن مدير للمزرعة مكث عدة أشهر، حدث هذا بعد الحرب. قال جاك: " قبل". أو قبل، هذا ممكن، كان هو شاباً صغيراً في ذاك الوقت، وماذا حدث لأبيه بعد ذلك؟ لقد قتل في الحرب. قال تمزال: " مكتوب" [أ][2] . أما الحرب، فهذا أمر سيء. - قال فيَّار: - كان دائماً هناك حرب. ولكن الإنسان يعتاد سريعاً على السلام. فيظن حينئذٍ أن هذا طبيعي. كلا، فالطبيعي هو الحرب [ب] -. قال تمزال وهو ذاهب لاحضار الشاي من امرأة، كانت في الغرفة الأخرى، تدير وجهها وقد مدت يديها بالصينية: " الرجال هنا مجانين". شربوا الشاي الحار جداً وشكراه ورجعا في الطريق الشديد القيظ الذي كان يقطع الكروم. قال جاك: سأعود إلى سولفرينو بسيارة الأجرة التي أخذتها. لقد دعاني الطبيب للغداء. - إني أدعو نفسي أيضاً. انتظر. سآخذ مؤناً ".

كان جاك، فيما بعد، في الطائرة التي تنقله إلى مدينة الجزائر، يحاول أن يرتب المعلومات التي جمعها. في الحقيقة، لم يكن هناك إلاَّ حفنة من المعلومات، ولا شيء يخص أباه مباشرة. كان الظلام يبدو، وبشكل غريب، كأنه يصعد بسرعة كبيرة جداً ليتلقف الطائرة أخيراً، تلك التي كانت تحلق مستقيمة، بدون حركة، شأنها شأن لولب يغوص مباشرة في كثافة الليل. كان الظلام يزيد كذلك ضيق جاك وقلقه، وقد شعر بأنه أسير سجنين، الطائرة والظلمات، فكان يتنفس بصعوبة. راح يسترجع بذاكرته دفتر السجل المدني اسمي الشاهدين، اسمين فرنسيين خالصين، كما يرى [المرء] على اللافتات الباريسية، كما أن الطبيب العجوز، بعد أن روى له وصول أبيه وولادته هو، قال له: هناك التاجران من سولفرينو، وقد التقياهما مصادفة، إنهما قبلا أن يقدما خدمة لأبيه، وكانا يحملان اسمين لسكان ضواحي باريس، أجل، وما الغريب في ذلك بما أن مؤسسي سولفرينو كانوا من ثوار عام ١٨٤٨. قال فيَّار: " آه، نعم، كان أجدادي البعيدون منهم. لهذا السبب فإن العجوز

---

(١) كلمتان غير مقروءتين.

أ- وردت هذه الكلمة حرفياً باللغة العربية (المترجمة).

(٢) باللغة العربية: " هذا مكتوب" (في القدر).

ب- للتوسع .

هو بذرة ثوار". ثم شرح قائلاً: إن الجدين الأولين كان أولهما، هو نجاراً من ضاحية سلن - دوني، وكانت الثانية غسالة من طراز ممتاز. كانت البطالة تعم باريس، وبوادر الثورة تلوح في الأفق، ولقد صوت المجلس التأسيسي على مبلغ ٥٠ مليون لإرسال حملة استعمارية [أ]. وعدوا كل واحد بمسكن وبهكتارين إلى عشرة. " تصوروا عدد المرشحين. أكثر من الف. وكان الجميع يحلمون بالأرض الموعودة. وخاصة الرجال منهم. بينما كانت النساء يخفن من المجهول. أما هم! فلم يقوموا بالثورة بلا هدف. كانوا من النوع الساذج أي يؤمنون بالأب نويل، وكان هذا الأب نويل بالنسبة إليهم عربياً يلبس برنساً. حسناً، لقد حصلوا على الصغير نويل. رحلوا عام ٤٩، و لم يبنَ أول بيت قبل عام ٥٤. هذا ماحدث في غضون ذلك..."

أصبح جاك يتنفس بشكل أفضل. انجلت أول عتمة وانحسرت كمد تاركة خلفها غيمة من النجوم، وامتلأت السماء الآن بالنجوم. كان صوت المحركات المصم وحده تحته لايزال يدوخه. حاول أن يتخيل بائع الخرنوب والعلف العجوز الذي، هو، قد عرف أباه وتذكره بشكل غير واضح وراح يردد بلا توقف: " لم يكن يتكلم، لم يكن يتكلم". ولكن الضجة كانت تخبله، وتغرقه في نوع من الخمود المزعج حيث كان يحاول عبثاً أن يرى، أن يتخيل أباه الذي كان يختفي وراء هذا البلد الضخم والعدائي، ويذوب في التاريخ المتستر لهذه القرية ولهذا السهل. كانت بعض التفاصيل التي برزت من أحاديثهم عند الطبيب تعود إليه بالحركة ذاتها التي حملت بها تلك القوارب، كما ذكر الطبيب، المهاجرين الباريزيين إلى سولفرينو. وبالحركة نفسها، لم يكن هناك قطار في ذاك العصر، كلا، كلا، بلى ولكنه لم يكن يصل إلا إلى مدينة ليون. حينئذٍ، كان هناك ستة قوارب تجرها خيول بالحبال يرافقها النشيد الوطني الفرنسي وأنشودة الرحيل، تعزفها طبعاً فرقة البلدية الموسيقية، ويبارك هذه القوارب رجال الدين وقد وقفوا على ضفاف نهر السين مع العلم وقد طُرز عليه اسم القرية التي لم توجد بعد والتي كان سيخلقها الركاب بقوة السحر. ما إن ينحرف القارب، وتبتعد باريس وقد أصبحت ضبابية، وتوشك على الاختفاء حتى تحل البركة الإلهية على مشروعك، كانت النفوس القوية، ثوار الحواجز يصمتون، وقد انقبضت قلوبهم، وكانت زوجاتهم يرتجفن خوفاً بالرغم من قوة رجالهن، وفي قعر القارب، كان عليهم أن يناموا على حصيرات من القش مع الضجيج الناعم والماء المالح بعلو رؤوسهم، وكانت النساء يخلعن ملابسهن أولاً خلف شراشف تمسك بها الواحدة تلو الأخرى. أين كان أبوه في كل ذلك؟ ولا في أي مكان، ومع ذلك، فإن هذه القوارب المربوطة بالحبال، منذ مئة عام، على قنوات في الخريف

أ - ٤٨ [رقم طوقه المؤلف. ملاحظة الناشرة].

الذي كان على وشك الانتهاء، والتي كانت تسير طوال شهر في السواقي والأنهار وقد غطتها الأوراق اليابسة الأخيرة، ترافقها أشجار البندق والصفصاف العاري تحت السماء الرمادية، هذه القوارب كانت تستقبلها في المدن الفرق الموسيقية الرسمية وترهق بحمل من الغجر الجدد قاصدين بلداً مجهولاً، كل ذلك كان يمده بمعلومات كثيرة عن الميت الشاب في سان بريوك تفوق الذكريات [الهرمة] والمبعثرة التي ذهب للبحث عنها. كانت الآلات تغير الآن نظامها. كانت هذه الكتل القاتمة، هذه القطع من الظلام المتفرقة والحادة في الأسفل، كانت منطقة "القبيلة"، إنه القسم الوحشي والدامي لهذا البلد والذي بقي طويلاً وحشياً ودامياً، والذي ازدحم فيه منذ مئة عام عمال ثورة ٤٨ في حراقة، بدواليب " اللبرادور، كما قال الطبيب العجوز، كان هذا هو اسمها، تصوروا ذلك، اللبرادور للذهاب نحو البعوض والشمس"، كانت سفينة اللبرادور تعمل على كل حال بألواح مجاذيفها كافة، ضاربة الماء المتجمد الذي كانت الرياح الشمالية الباردة تثيره على شكل عاصفة، كان سطح السفينة قد عصفت عليه طوال خمسة أيام وخمس ليال ريح قطبية قارسة، وكان الغزاة في قعر السفينة، وقد أنهكهم المرض، يتقيئون بعضهم على بعض ويتمنون الموت، إلى أن وصلوا إلى مرفأ بون، وقد وقف على الرصيف جميع السكان تصحبهم الموسيقى ليستقبلوا المغامرين المخضري الوجوه، الآتين من بعيد، تاركين عاصمة أوروبا، مع زوجاتهم وأولادهم وأثاثهم ليحطوا على اليابسة وهم يترنحون، بعد خمسة أسابيع من الترحال، على هذه الأرض ذات أبعاد ضاربة إلى الزرقة، حيث أقلقتهم رائحة غريبة مؤلفة من السماد، والتوابل و[ ] [1].

استدار جاك في مقعده؛ كان شبه نائم. كان يرى أباه الذي لم يكن قد رآه قط، وكان يجهل حتى طوله، كان يراه على رصيف بون وسط المهاجرين، بينما كانت الرافعات تنزل الأثاث الفقير الذي نجا بالرغم من ظروف الرحلة. وحيث كانت الشجارات تنشب بخصوص قطع الأثاث التي ضاعت. كان هناك، حازماً، حزيناً، صامتاً، وعلى كل حال، ألم تكن الطريق عينها التي سلكها من بون إلى سولفرينو، قبل أربعين سنة تقريباً، على ظهر عربة رديئة، تحت سماء الخريف ذاتها؟ ولكن لم تكن الطريق موجودة زمن المهاجرين، فلقد تجمعت النساء والأطفال على ظهر شاحنات عسكرية مسطحة، وكان الرجال يسيرون مشياً على الأقدام، ويقطعون بصعوبة السهل المستنقعي أو الدغل الشائك، تحت أنظار العرب العدائية، هؤلاء الذين تجمعوا عن بعد، ووقفوا على مسافة، يرافقهم في معظم الأحيان رهط كلاب، من أصل قبلي، تنبح، إلى أن يصلوا في نهاية اليوم إلى البلد

(١) كلمة غير مقروءة .

نفسه الذي وصل إليه أبوه، منذ أربعين سنة، هذا البلد المسطح، والمحاط بالمرتفعات البعيدة، الخـالي من البيوت، ومن الأراضي المزروعة، وقد غطته عدة خيام عسكرية ترابية اللون، لاشيء إلاّ فسحة عارية مقفرة، كان هذا بالنسبة إليهم نهاية العالم، بين السماء المقفرة والأرض الخطرة*، وكـانت النساء حينئذٍ يبكين في الليل تعباً وخوفاً وخيبة.

كان الوصول ذاته يتم في الليل في مكان بائس فقير وعدائي، الرجال ذاتهم، وبعـد ذلـك، وبعد ذلك... كان جاك يجهل مايخص أباه، ولكن مايخص الآخرين، كانت الأمور تتكرر، كـان عليهم أن يستجمعوا قواهم أمام الجنود الذين كانوا يضحكون، وأن يقيموا في الخيـام. وسـتعد المنازل فيما بعد، سوف يباشرون في بنائها، ثم سيوزعون الأراضي. فالعمل، العمل المقدس سـينقذ كل شيء. قال فيّار: " لم يكن ثمة عمل في الوقت الحاضر..."، راح المطر، المطر الجزائري، الغزير، العنيف، والذي لاينضب، ينهمر طوال ثمانية أيام، فاض نهر السيبوز. وصلت المستنقعات حتى حافة الخيام، ولم يكن باستطاعتهم أن يخرجوا، الأخوة الأعداء، في قذارة الجماعة المختلطة، المؤلفة مـن الخيام الضخمة التي كانت ترن تحت وابل الأمطار التي لاتتوقف، ولكي ينجوا من الروائح النتنـة، اقتطعوا قصباً أجوف كي يتمكنوا من أن يبولوا من الداخل إلى الخارج، وما إن توقف المطر، حتى بدؤوا فعلاً بالعمل تحت إدارة نجار ليبنوا مخيمات خفيفة.

كان فيّار يردد ضاحكاً: " آه! يالشجاعة هؤلاء الناس. لقد أنهوا بناء أكواخهم الصغـيرة في الربيع، ثم أصابهم وباء الكوليرا. وإذا صح قول العجوز، فإن الجد النجار قد فقد في هذا الوباء ابنته وزوجته اللتين كانتا محقتين في ترددهما في القيام بالرحلة ".

قال الطبيب العجوز وهو يمشي طولاً وعرضاً، منتصب القامة دائماً، فخوراً، في طماقيه[1]، والذي لم يكن يستطيع أن يبقى جالساً : "أجل، كان يموت كل يوم من الوباء عشرة. كان القيظ قد حل سابقاً لأوانه، وكان الناس يحترقون في الأكواخ الخشبية. أما عن المعالجة الصحية فمجمـل القول إنه كان يموت من هذا الوضع عشرة في اليوم". كان زملاؤه الأطباء العسكريون عـاجزين. يالهم من زملاء. لقد استنفدوا أدويتهم بأكملها. حينئذٍ، خطرت لهم فكرة. يجـب أن يرقصـوا لتسخن دماؤهم. وكل ليلة، بعد العمل، كان المهاجرون يرقصون بين مأتمين، على أنغام الكمـان، لقد أحسنوا التقدير حقاً. فمع الحرارة، كان هؤلاء الناس الشجعان يعرقون إلى أقصـى درجـة،

* المجهولة.

[1] الطماق: كساء الساق من جلد أو قماش (المترجمة).

وتوقف الوباء. " هذه الفكرة يجب التعمق فيها ". أجل، كانت فكرة. في الليل الحار والرطب، بين المخيمات، حيث كان المرضى يرقدون، كان عازف الكمان قد جلس على صندوق، بجانبه مصباح يئز حوله البعوض والحشرات، كان الغزاة بأثوابهم الطويلة وبزاهم الكتانية يرقصون، ويتعرقون بشكل خطر حول نار قوية من العليق، بينما كان الحرس في أرجاء المخيم كافة ساهرين ليحموا المحاصرين من الأسود ذات اللبدة السوداء، ومن سارقي القطيع، ومن عصابات العرب وأحياناً من غزوات جاليات فرنسية أخرى كانت تبحث عن التسلية أو عن المؤن. وفيما بعد، أعطوا أخيراً أراض، كانت قطعاً صغيرة مبعثرة، بعيداً عن قرية الأكواخ. وبعد حين بنوا أخيراً القرية وشيدوا أسواراً من الحجر. ولكن ثلثي المهاجرين كانوا قد ماتوا، هناك كما في كل الجزائر، قبل أن يحرثوا وأن يحصدوا. أما الآخرون، فلقد لبثوا باريزيين في الحقول، وكانوا يحرثون الأرض، وقد لبسوا قبعاتهم، ووضعوا البنادق على أكتافهم، والغلايين بين أسنانهم. وكان الغليون ذو الغطاء مسموحاً به وحده، أما السكائر فممنوعة خوفاً من الحرائق، كما كانوا يحملون في جيوبهم دواء الكينين الذي كان يباع في مقاهي بون ومطاعم مندوفي كمشروب عادي، يشربه كل واحد في صحة الآخرين، ترافقهم زوجاتهم بأثوابهن الحريرية، إلا أنهم كانوا دائماً يحملون البندقية ويحيط بهم الجنود. كانت النساء يحتجن إلى مرافقة حتى لغسل الغسيل في نهر سيبوز، هؤلاء النسوة اللواتي كن يذهبن في الماضي إلى مغاسل شارع (Archives) في باريس، ويتسامرن ويتسلين بأحاديث هادئة وهن يقمن بالغسيل. كانت القرية نفسها تُهاجم غالباً في الليل، كما حدث عام ٥١ أثناء ثورة من الثورات، حيث قام مئات من الفرسان اللابسين البرنس من أهل البلد بالدوران حول الأسوار، وانتهى بهم الأمر إلى الهرب حين رأوا أنابيب المداخن وقد سلطها المحاصرون ليوهموهم بأنها مدافع، كانوا يبنون ويعملون في بلد عدو، كان يرفض الاحتلال ويثأر من كل مايجد أمامه، ولماذا كان جاك يفكر في أمه حين أصبحت الطائرة تصعد وتهبط من جديد الآن؟ وهو يرى ثانية هذه العربة الغائصة في الوحل على طريق بون، حيث كان المهاجرون قد تركوا امرأة حاملاً وذهبوا بحثاً عن أحد يساعدهم، وحين رجعوا وجدوا المرأة وقد فُتح بطنها وقطع ثدياها. كان فيَّار يقول: " إنها الحرب". أضاف الطبيب العجوز: – فلنكن منصفين، لقد حبس المهاجرون سكان البلد في كهوف مع عشيرتهم كلها، أجل، أجل، وقطعوا خصيات البربر الأوائل، الذين هم أنفسهم... إذن سنرجع إلى المجرم الأول، وكما تعلمون، كان يدعى قايين، ومنذ ذاك الوقت، ابتدأت الحرب، إن الرجال فظيعون، وخاصة تحت الشمس الضارية ".

وبعد الغداء، اجتازوا القرية، التي تشبه مئات القرى الأخرى الممتدة على طول البلد، والمؤلفة من عدة مئات من البيوت الصغيرة ذات الطراز البرجوازي لنهاية القرن التاسع عشر، وقد وزعت

هذه البيوت على شوارع كثيرة تتقاطع وفق زوايا قائمة، مع الأبنية الضخمة كالمؤسسة التعاونية، والصندوق الزراعي، وصالة الحفلات، كل هذا كان يؤدي إلى كشك موسيقي ذي هيكل معدني يشبه حلبة لعب أو مدخل مترو، وحيث قدمت طوال سنوات كثيرة الفرقة البلدية للموسيقى، أو الفرقة العسكرية حفلات موسيقية أيام الأعياد، حين كان الأزواج بلباسهم الزاهي لأيام الآحاد، يدورون حول الكشك، وسط الحرارة والغبار، وهم يقشرون فستق العبيد. والآن، يوم الأحد كذلك، إلاّ أن الخدمات النفسية في الجيش قد وضعت مكبرات صوت في الكشك، وكان أغلب الجمهور عربياً، ولكن الناس لم يعودوا يدورون حول الكشك، كانوا يسمعون بلا حراك الموسيقى العربية التي تتناوب مع الخطابات، وكان الفرنسيون وقد ضاعوا وسط الجمهور، متشابهين كلهم، كان لهم المظهر القاتم نفسه والمتجه نحو المستقبل، شأنهم شأن الذين كانوا قد أتوا في الماضي بمركب لابرادور، أو مثل الذين حطوا الرحال في أماكن أخرى في الظروف ذاتها، وفي العذاب نفسه، وقد هربوا من البؤس أو الاضطهاد ليلاقوا الألم والحجارة. كان ذلك شأن الاسبانيين القادمين من ماهون، حيث تحدرت والدة جاك، أو تحدر هؤلاء الألزاسيون الذين رفضوا عام ٧١ السيطرة الألمانية واختاروا فرنسا، فأعطيت لهم أراضي ثوار ٧١ الذين قتلوا أو سجنوا، كانوا متمردين حلوا فوراً محل الثوار، مضطهدين- مضطهدون، حيث ولد أبوه، الذي وصل، بعد أربعين عاماً، إلى هذه الأماكن، بالمظهر ذاته القاتم والعنيد. وكله آمال في المستقبل، مثل الذين لايحبون ماضيهم ويتنكرون له، كان مهاجراً هو أيضاً، شأنه شأن كل الذين كانوا يعيشون وكانوا قد عاشوا على هذه الأرض دون أن يتركوا أثراً، إلاّ على البلاط المهترئ والمخضر للمقابر الصغيرة الاستعمارية، والتي زارها جاك أخيراً مع الطبيب العجوز، بعد رحيل فيَّار. كانت تقع من جهة الأبنية الجديدة والقبيحة، على أحدث طراز مأتمي، تزينها أشياء رخيصة أخذت من الأسواق الشعبية ومن أسواق اللآلئ حيث بدأ يفقد الورع المعاصر، وكانت من الجهة الأخرى، بين أشجار السرو العتيقة، وسط الممرات المغطاة برؤوس الصنوبر وأكواز السرو، أو بالقرب من الجدران الرطبة حيث نبت في أسفلها الحميض بأزهاره الصفراء، كانت شواهد القبور القديمة قد امتزجت إلى حد كبير بالتراب فأصبحت غير مقروءة.

كانت قد أتت إلى هنا، منذ أكثر من قرن، جماعات بأكملها، وحرثت الأراضي، وحفرت أخاديد، كانت تزداد عمقاً في بعض الأماكن، بينما كانت في مواضع أخرى مهتزة قليلة العمق إلى أن غطتها طبقة خفيفة من التراب، وتحولت المنطقة إلى نباتات برية، وأنجبوا ثم ماتوا. حدث الأمر نفسه بالنسبة إلى أبنائهم. وجد أبناء هؤلاء وأحفادهم على هذه الأرض كما وجد هو، بلا ماض، بلا أخلاق، بلا تعليم، بلا دين، لكنه سعيد بوجوده وبوجوده في النور، وكانوا كلهم قلقين أمام

الظلام وأمام الموت. وكل هذه الأجيال، وكل هؤلاء الرجال الذين أتوا من بلاد مختلفة كثيرة، تحت هذه السماء الرائعة حيث بدأت تظهر تباشير الغسق، كلهم ماتوا دون أن يتركوا آثاراً، منطوين على ذواتهم. كان قد خيّم عليهم النسيان، وفي الحقيقة، هذا ماكانت تقدمه هذه الأرض، هذا الذي كان ينحدر من السماء مع الظلام فوق الرجال الثلاثة الذين سلكوا ثانية طريق القرية وقد انقبضت قلوبهم من اقتراب الليل،كان يغمرهم هذا القلق الذي يسيطر على رجال أفريقية حين يهبط المساء السريع على البحر، وعلى جبالهم المتعرجة، وعلى الهضاب العالية، إنه القلق المقدس ذاته الذي يهبط على منحدرات جبل (Delphes) حيث يُحدث المساء الأثر نفسه، فتنبثق معابد* وهياكل. أما على أرض أفريقية، فلقد هُدمت المعابد، و لم يبقَ إلا هذا الثقل الذي لايحتمل والعذب على القلب. أجل، كم من أناس قد ماتوا! وكم سيموتون أيضاً! كانوا صامتين ومشيحين بوجوههم عن كل شيء، كما مات أبوه في مأساة لايمكن فهمها، بعيداً عن وطنه الجسمي، بعد حياة، كل شيء فيها لاإرادي، منذ الميتم حتى المشفى، مروراً بالزواج الذي لايمكن تجنبه، حياة بنيت حوله رغماً عنه، إلى أن قضت عليه الحرب، ودفنته، إلى الأبد مجهولاً من الآن فصاعداً، من أهله، ومن ابنه، وقد أعيد هو أيضاً إلى النسيان العظيم الذي كان الوطن النهائي للرجال الذين من جنسه، مكان نهاية حياة ابتدأت بلا جذور، وكم من مذكرات ودراسات في مكتبات ذاك العصر أظهرت كيف كان الأطفال اللقطاء يستخدمون لاستعمار هذا البلد، أجل، الجميع هنا أطفال لقطاء وضائعون كانوا يبنون مدناً عابرة تموت بعد ذلك إلى الأبد في أعماقهم وفي أعماق الآخرين. كما لو كان تاريخ الرجال، هذا التاريخ الذي لم يتوقف البتة عن السير قدماً على أرض من أقدم أراضيه، تاركاً آثاراً خفيفة جداً، يتبخر هذا التاريخ تحت الشمس المستمرة حاملاً معه ذكرى الذين قد صنعوه فعلاً، وحولوه إلى أزمات عنف وقتال، وإلى نيران حقد مستعرة، وإلى سيول دماء تضخمت بسرعة، ويبست بسرعة مثل أودية البلد. أصبح الظلام يتصاعد من الأرض ذاتها، وبدأ يغرق كل شيء، الموتى والأحياء، تحت سماء رائعة الجمال حاضرة أبداً. كلا، لن يعرف مطلقاً أباه، ذاك الذي يستمر في الرقاد هناك، وقد اختفى وجهه إلى الأبد في الرماد. كان ثمة سر لدى هذا الرجل، سر أراد اختراقه، ولكن لم يكن في النهاية إلا سر الفقر الذي يجعل الأشخاص بلا اسم وبلا ماض، يدخلهم إلى جمهرة الموتى العظيمة التي هي بلا اسم والتي شيدت العالم وهي تنحل إلى الأبد. لأن هذا ماكان مشتركاً بين أبيه وبين رجال مركب لابرادور. وبين القادمين من ماهون من الساحل، وبين الألزاسيين وسكان الهضاب العالية، بين هذه الجزيرة الشاسعة الممتدة بين الرمل

* الانقباض.

والبحر، وقد بدأ سكون عظيم يغطيها الآن، وهذا يعني التستر، على صعيد الدماء، والشجاعة، والعمل، والغريزة، الذي هو قاسٍ ورحيم معاً. وهو الذي أراد أن يهرب من البلد الذي هو بلا اسم، من الجمهور ومن أسرة بلاً اسم، ولكن كان فيه شخص لم يتوقف البتة عن الطلب بإلحاح العتمة والتستر، كان هو أيضاً ينتمي كذلك إلى القبيلة، سائراً مستسلماً في الليل بالقرب من الطبيب العجوز الذي كان على يمينه يتنفس بصعوبة، ويسمع نغمات الموسيقى الآتية من السلحة، وهو يسترجع وجوه العرب القاسية والكتيمة حول الأكشاك، وكذلك وجه فيَّار الحازم وضحكه، ويتذكر كذلك بعذوبة وحزن يعصران قلبه وجه أمه المنهارة إثر الانفجار، وهو يسير في ظلام السنين على أرض النسيان حيث كان كل واحد الرجل الأول، حيث كان عليه أن يرتقي وحده، بلا أب، هو الذي لم يعرف البتة هذه اللحظات التي يدعو فيها الأب ابنه وقد انتظر أن يبلغ سن الاصغاء، ليفضي إليه بسر الأسرة، أو بشجن قديم، أو بتجربة حياته، في تلك الأوقات حيث يصبح بولونيوس الوقح والتافه عظيماً فجأة حين يتحدث إلى لاورته[1] ، لقد بلغ هو السادسة عشرة ثم العشرين ولم يكلمه أحد، كان عليه أن يتعلم وحده، وأن يكبر وحده، قوة وقدرة، وأن يجد وحده أخلاقه وحقيقته، أن يولد أخيراً كرجل كي يولد بعد ذلك أيضاً ولادة أكثر قسوة، ألا وهي التي تعني أن يتفتح على الآخرين، على النساء، شأنه شأن كل الرجال الذين ولدوا في هذا البلد والذين كانوا فرداً فرداً، يحاولون أن يتعلموا العيش بلا جذور وبلا إيمان، والذين كلهم الآن مجتمعين مهددون بالتستر النهائي بفقدان آثار مرورهم الوحيد المقدس على هذه الأرض، فالشاهدات غير المقروءة والتي غطاها الظلام الآن في المقبرة، عليها أن تتعلم الانفتاح على الآخرين، على جمهرة عظيمة من الغزاة أبعدوا الآن والذين سبقوه على هذه الأرض والذين عليهم أن يتعرفوا الآن على أخوّة الأصل والمصير.

بدأت الطائرة تهبط الآن نحو مدينة الجزائر. راح جاك يفكر في مقبرة سان- بريوك الصغيرة حيث كانت قبور الجنود أفضل حالاً من مقبرة موندوفي*. كان البحر الأبيض المتوسط يفصل في داخلي عالمين، أحدهما كانت الأماكن منتظمة فيه وكانت الذكريات والأسماء فيها مصونة، والآخر حيث الرياح الرملية تمحي آثار الناس فوق الأماكن الفسيحة. لقد حاول هو ان ينجو من التستر، ومن الحياة الفقيرة الجاهلة والعنيدة، لم يستطع أن يعيش على مستوى هذا الصبر الأعمى، بلا جمل

---

[1] LAERETE : في الميثولوجية الاغريقية، أبو أوديسيوس بطل الأوديسة. (المترجمة).

* مدينة الجزائر.

وبلا أي مشروع إلاّ ماهو آني. لقد طاف العالم، وبنى وخلق وألهب الأشخاص، كانت أيامه حافلة جداً. ومع ذلك، فلقد عرف الآن في أعماق قلبه أن سان- بريوك وما يمثله لم يكن هذا يعني شيئاً بالنسبة إليه، وفكر في القبور البالية والمخضرة التي غادرها للتو، وهو يقبل بنوع من الفرح الغريب أن يعيده الموت إلى وطنه الحقيقي، ويغطي بدوره، بنسيانه العظيم، ذكرى الرجل الفظيع و[العادي] الذي ترعرع، وبنى مابنى بلا عون وبدون مساعدة، في الفقر، على شاطئ سعيد وتحت نور صباحات العالم الأولى، كي يواجه بعد ذلك، وحده، بلا ذاكرة ولا إيمان، عالم الناس في عصره وفي تاريخه الدميم المجيد.

الجزء الثاني

الابن أو الرجل الأول

١- مدرسة ثانوية

في[أ] مطلع تشرين الأول لتلك السنة، حين كان جاك كورمري[ب] ، وقد احتفظ بصعوبة بتوازنه، منتعلاً حذاءً ضخماً جديداً، وبدت رقبته غائصة بين كتفي قميصه الذي كان ولا يزال يحتفظ بصقلته، وتدرع بمحفظة كتب يفوح منها الطلاء والجلد، حين رأى سائق الحافلة الكهربائية، وقد وقف هو وبيير بالقرب منه، في مقدمة الحافلة، يعيد رافعة المقود إلى السرعة الأولى، وإن العربة الثقيلة تركت موقف بيلكور، التفت محاولاً أن يرى، على بعد عدة أمتار من هناك، أمه وجدته، لاتزالان منحنيتين على النافذة، لترافقاه قليلاً في هذا الرحيل الأول نحو المدرسة الثانوية الغامضة، ولكنه لم يستطع أن يراهما لأن جاره كان يقرأ الصفحات الداخلية لجريدة "الرسالة الجزائرية". فاستدار حينئذٍ إلى الأمام، ناظراً إلى سكة الحافلة الفولاذية التي كانت القاطرة تبلعها بانتظام، وكانت فوقهم الأسلاك الكهربائية تهتز في الصباح النضر، أدار ظهره، وقد انقبض قلبه قليلاً، إلى البيت، إلى الحي القديم الذي لم يغادره فعلاً مطلقاً إلا لرحلات استكشافية نادرة (كانوا يقولون "الذهاب إلى مدينة الجزائر" حين كانوا يذهبون إلى وسط المدينة)، كانت سرعة القاطرة تتزايد، وبالرغم من كتف بيير الأخوية وقد التصقت بكتفه تقريباً، كانت تحمله وهو يشعر بوحدة قلقة، نحو عالم مجهول كان لايعرف كيف يجب أن يسلك فيه.

في الحقيقة، لاأحد كان يمكن أن يرشدهما. أدرك هو وبيير بسرعة أنهما كانا وحيدين. كان السيد برنار ذاته، ولم يكونا يجرؤان على إزعاجه، لايستطيع أن يقول شيئاً عن هذه الثانوية التي كان يجهلها. وفي بيوتهما، كان الجهل أشد اطباقاً أيضاً. كانت اللغة اللاتينية مثلاً بالنسبة إلى أسرة

[أ] البدء سواء بالذهاب إلى المدرسة الثانوية وتأتي البقية في الترتيب، أو بوصف اليافع المخيف والعودة بعد ذلك إلى مرحلة الذهاب إلى الثانوية من مرضه.

[ب] وصف الولد الجسمي.

جاك، كلمة لامعنى لها مطلقاً. لم يكن باستطاعة أسرته أن تتخيل (خارج الأزمنة البدائية الوحشية التي كانوا يستطيعون على العكس أن يتصوروها) أزمنة لم يتكلم فيها أحد اللغة الفرنسية، وأن حضارات (كانت هذه الكلمة لاتعني شيئاً بالنسبة إليهم) قد تعاقبت، وكانت عاداتها ولغتها مختلفة كثيراً، لم تكن هذه الحقائق لتصل إليهم. فلا الصورة، ولا الشيء المكتوب، ولا المعلومة المنطوق بها، ولا الثقافة السطحية التي تلد من المحادثة العادية قد مستهم.

في هذا البيت الخالي من الصحف، إلى أن يأتي بها جاك، والكتب، والمذياع أيضاً، لم يكن إلاّ الأدوات ذات الاستعمال الآني، ولم يكونوا يستقبلون إلاّ الأسرة، ونادراً ماكانوا يغادرونه اللهم إلاّ ليلتقوا أفراد الأسرة الجهلة ذاتهم، فما كان يأتي به جاك من الثانوية لايمكن استيعابه، وكان الصمت يكبر بينه وبين أسرته. لم يكن يستطيع، حتى في ثانويته، أن يتكلم عن أسرته التي كان يشعر بتفردها دون أن يتمكن من أن يعبر عن ذلك، إذا حدث وانتصر على خجله الذي لايقهر، هذا الخجل الذي كان يغلق فمه على هذا الموضوع.

لم يكن اختلاف الطبقات الاجتماعية هو الذي يعزلهما. ففي بلد الهجرة هذا، والاثراء السريع، والإفلاسات المذهلة، كانت الحدود بين الطبقات أقل ظهوراً منها بين الأجناس. فلو كان الولدان عربيين لكان شعورهما أعظم ألماً وأشد مرارة. فضلاً عن ذلك، بينما كان لهما رفاق عرب في المدرسة الابتدائية، كان الطلاب العرب في الثانوية يشكلون الاستثناء بندرتهم، وكانوا دائماً أبناء أعيان أثرياء. كلا، إن ماكان يفصلهما، وكانت المسافة عند جاك أكبر منها عند بيير، لأن هذا التفرد كان أكثر وضوحاً في بيته عنه في أسرة بيير، هو أنه كان يستحيل عليه أن يربط تفرد أسرته بقيم أو بتعابير تقليدية. لقد استطاع أن يجيب طبعاً، على استفسارات مطلع العام، بقوله إن أباه قد مات في الحرب، وهذا ماكان يشكل بحمله وضعاً اجتماعياً، وإنه كان ربيب الدولة، وهذا ماكان يفهمه الجميع. أما لما تبقى من الأمور، فهنا ابتدأت الصعوبات. ففي الأوراق المطبوعة التي وزعت عليهم، لم يكن يعرف ماذا يكتب في المكان المحدد " مهنة الوالدين". كان قد كتب أولاً " مدبرة منزل" في حين كتب بيير "موظفة في البريد والبرق والهاتف"، ولكن بيير شرح له أن مدبرة منزل ليست مهنة، ولكن اللفظة تطلق على المرأة التي تعتني ببيتها وتنظفه.

قال جاك: " كلا، إنها تنظف بيوت الآخرين، وخاصة بيت بائع الخردوات المقابل لبيتنا. قال بيير بتردد: " حسناً، أظن أنه يجب كتابة " خادمة ". لم تخطر هذه الفكرة مطلقاً على ذهن جاك لسبب بسيط هو أن هذه الكلمة الفريدة جداً، لم تلفظ قط في بيته - ولسبب آخر هو أنه لم يكن

أحد في بيتهم يشعر بأن أمه تشتغل للآخرين، كانت تشتغل أولاً لولديها. شرع جاك في كتابة الكلمة، ثم توقف، وفجأة عرف فجأة [1] الخجل، والخجل من أنه قد خجل.

لايمثل الولد شيئاً بذاته، فوالداه هما اللذان يمثلانه. إنه يحدد ذاته من خلالهما، ويُعرف في أعين الناس. يشعر من خلالهما أنه يحكم عليه فعلاً، أي محاكم دون أن يستطيع الاستئناف، وهذا هو حكم الناس الذي أتى جاك على اكتشافه، ومعه، حكمه هو على القلب الشرير الذي كان قلبه. لم يكن يستطيع أن يعرف أن قيمة الإنسان تقل، وقد أصبح رجلاً، حين لايعرف هذه المشاعر الشريرة، لأن الإنسان يُقدَّر تقديراً حسناً أو يُساء الحكم عليه، على ماهو، وأقل بكثير على أسرته، ذلك لأنه قد يحدث أن تقدر الأسرة بدورها من خلال الولد وقد أصبح رجلاً. ولكن كان يحتاج جاك إلى قلب نقي بشكل بطولي واستثنائي كي لايتألم من الاكتشاف الذي أتى على القيام به، وكذلك كان يلزمه تواضع يستحيل وجوده، كي لايتلقى بغضب وخجل هذا العذاب الناتج عما كشفته له طبيعته. لم يكن لديه أي شيء من هذا النقاء ولا من هذا التواضع، ولكنه كان ذا كبرياء قاسية شريرة، إلاّ أنها ساعدته في هذا الظرف، فجعلته يكتب بريشة ثابتة كلمة "خادمة" على الورقة المطبوعة، حملها بوجه ثابت إلى الناظر الذي لم ينتبه البتة إلى ماكتب. ومع كل ذلك، فإن جاك لم يكن يتمنى مطلقاً أن يغير وضعه ولا أسرته، وإن أمه كما كانت، تبقى بالنسبة إليه مايحب أكثر من أي أحد في العالم، وإن كان يحبها بشكل يائس. كيف يُفسَّر أن طفلاً فقيراً يستطيع أحياناً أن يخجل دون أن يحسد مطلقاً أحداً على شيء ؟

وفي مناسبة أخرى، حين سئل عن دينه، أجاب "كاثوليكياً". فسألوه إن كان يرغب في أن يُسجل في دروس التعليم المسيحي، فأجاب بالنفي وقد تذكر مخاوف جدته. أجاب الناظر الذي كان يتكلم بين الجد والهزل: " بمجمل القول إنك كاثوليكي لايمارس الشعائر الدينية " لم يكن جاك يستطيع أن يشرح شيئاً مما كان يحدث في بيته، ولا أن يتحدث عن الطريقة الفريدة التي يتناول فيها أهله الدين. فأجاب إذن بثبات: "نعم" مما أضحك الجميع وأعطاه ذلك سمعة بأن رأسه صلب، في الوقت الذي كان يشعر فيه بضياع عظيم.

وحدث في يوم آخر، أن وزع أستاذ الأدب على الطلاب ورقة مطبوعة تتعلق بموضوع التنظيم الداخلي، وطلب منهم أن يعيدوها موقعة من أهلهم. كانت الورقة المطبوعة تعدد كل ماهو محظر على الطلاب ادخاله إلى الثانوية، ابتداء من الأسلحة حتى المجلات المصورة مروراً بألعاب

---

[1] كما ورد.

الورق، كان كل ذلك قد كتب بطريقة منمقة مما اضطر جاك إلى أن يلخصه بتعابير بسيطة لأمه وجدته. كانت أمه الوحيدة التي تستطيع أن تضع في أسفل الصفحة توقيعها غير المتقن[أ] . ذلك أنه بعد موت زوجها، كان يدفع لها * كل فصل معاشها باعتبارها أيمة حرب، وأن الإدارة التي كانت نوعاً من خزينة الدولة - ولكن كاترين كورمري كانت تقول ببساطة إنها ذاهبة إلى الكنز(١)، وكانت هذه الكلمة بالنسبة إليها جوفاء، خالية من المعنى، ولكنها توحي إلى الولدين بمكان أسطوري ذي موارد لاتنضب، وقد سُمح لأمهما أن تأخذ منه، من وقت لآخر، كميات هزيلة من المال-، كانت هذه الإدارة تطلب منها كل مرة توقيعاً، وبعد المشكلات الأولى، علمها جار(؟) أن تنقل نموذجاً من توقيع الأرملة كامو[٢] ، نجحت إلى حد ما في كتابته، وقد قُبل هذا التوقيع. إلاّ أن جاك، صباح اليوم التالي، لاحظ أن أمه التي خرجت أبكر منه بكثير، لتنظف مخزناً كان يفتتح باكراً، قد نسيت أن توقع على الورقة المطبوعة. لم تكن جدته تعرف أن توقع. كانت تعمل حساباتها وفق نظام دوائر، مخططة إما بخط أو بخطين، وكانت هذه الخطوط تمثل الآحاد والعشرات أو المئات. اضطر جاك أن يعيد الورقة المطبوعة دون توقيع، قائلاً إن أمه قد نسيت. سُئل إن كان ثمة أحد في بيته يستطيع أن يوقع، فأجاب بالنفي، واكتشف من مظهر أستاذه المنذهل أن هذه الحالة لم تكن مألوفة كما كان يظنها جاك حتى ذاك الحين.

وكان يحيره أكثر من ذلك الشبان القادمون من العاصمة، وقد أتت بهم إلى مدينة الجزائر ظروف مناصب والديهم. إن من أثار تفكيره كثيراً كان يدعى جورج ديديه[أ] وقد قربه إلى جاك حبهما المشترك لحصص الفرنسي والقراءة حتى إنه قد نشأت بينهما صداقة رقيقة عذبة، كان يغلو منها بيير. كان ديديه ابن ضابط كاثوليكي، يمارس شعائر الدين بحماس. كانت أمه "تعزف الموسيقى"، أما أخته (التي لم يرها جاك البتة، ولكنه كان يحلم بها بعذوبة) فتطرز، وكان ديديه قد تهيأ، كما كان يقول، للكهنوت. كان مفرط الذكاء، متشدداً في قضايا الإيمان والأخلاق، حيث كان يقينه قاطعاً. لم يكن أحد يسمعه يتلفظ بكلمة نابية، أو يوحي، كما كان يفعل بقية الأولاد بمحاباة لاتعرف الكلل، إلى وظائف الجسم الطبيعية أو التي تتعلق بالإنجاب، والتي لم تكن واضحة

[أ] التذكير.

* تقبض.

(١) كلمة خزينة تعني أيضاً بالفرنسية الكنز (المترجمة).

(٢) كما ورد.

(أ) سنجده ثانية فيما بعد حين وفاته.

أصلاً في ذهنهم على عكس ماكانوا يريدون أن يعبروا عنه. كان أول شيء حاول الحصول عليه من جاك حين نشأت صداقتهما، هي أن يقلع جاك عن الكلمات الفظة.

لم يكن هذا صعباً على جاك معه. أما مع الآخرين، فلقد كان يعود بسهولة إلى الكلمات الفظة في الحديث. (كانت طبيعته المتعددة الوجوه قد بدأت ترتسم منذ ذاك الحين، وقد سهلت هذه المرونة كثيراً من الأمور عليه وجعلته قادراً على تكلم كل اللغات، وعلى التلاؤم مع كل الأوساط، وأن يمثل كافة الأدوار، ماعدا.........) فبصداقته مع ديديه فهم جاك ماهي الأسرة الفرنسية المتوسطة. كان لصديقه في فرنسا بيت عائلة يعود إليه في العطل، وكان دائماً يحدث جاك عنه، أو يكتب إليه منه، كان لهذا البيت تسقيفة ملأى بالصناديق العتيقة التي تحفظ فيها رسائل الأسرة، الذكريات، والصور. كان يعرف تاريخ جديه، وتاريخ والدي جديه، وتاريخ جد آخر بعيد، كان بحاراً في ترافلكار، وكان هذا التاريخ الطويل، الحي في مخيلته، يمده كذلك بأمثلة وبمبادئ يتخذها في سلوكه اليومي. " كان جدي يقول إن... أبي يريد أن..."، وكان يبرر هكذا صرامته، ونقاءه الناصع. حين كان يتحدث عن فرنسا، كان يقول: " وطننا"، وكان يقبل مسبقاً التضحيات التي قد يطلبها هذا الوطن (كان يقول لجاك: " إن أباك قد مات من أجل الوطن"...)، في حين كان مفهوم الوطن هذا خالياً من المعنى بالنسبة إلى جاك الذي كان يعرف أنه فرنسي، وأن ذلك يستلزم عدداً محدداً من الواجبات، ولكن فرنسا التي ينتمون إليها، كانت غائبة، وقد تطلبكم أحياناً، شأنها إلى حد ما شأن هذا الإله الذي سمع عنه، خارج بيته، والذي كان، على مايبدو، الواهب المطلق للخيرات وللمصائب، ولا يمكن التأثير عليه، ولأنه يسيطر بشكل تام، على العكس، على مصير الناس - وكان شعوره هذا أكثر حدة لدى النساء اللواتي يعشن معه. سأل أمه ذات يوم قائلاً: " أماه، مامعنى الوطن[1] ؟ ". بدت مرتاعة شأنها كل مرة لاتفهم شيئاً. أجابته " لاأعرف. كلا. - إنه فرنسا. - آه! نعم" وظهر عليها الارتياح. بينما كان ديديه يعرف ماذا يعني الوطن، وكانت العائلة عبر الأجيال موجودة لديه بشكل قوي، والبلد الذي ولد فيه موجوداً من خلال تاريخه، كان يسمي جان دارك باسمها الأول، وكذلك كان الخير والشر محددين بالنسبة إليه مثل مصيره الحاضر والمستقبل. كان جاك يشعر في أعماقه، وكذلك بيير، وإن كان بدرجة أقل، بأنه من جنس آخر، بلا ماض، وبلا بيت أسرة، وبلا تسقيفة ملأى بالرسائل والصور، كانا مواطنين نظريين لأمة غير محددة حيث كان الثلج يغطي السطوح بينما كانا هما يترعرعان تحت شمس ثابتة وعنيفة، وقد تزودا بأخلاق بدائية جداً كانت تحظر عليهما السرقة على سبيل المثال، وتوصيهما

---

[1] اكتشاف الوطن عام ١٩٤٠.

بالدفاع عن الأم وعن المرأة، ولكن هذه الأخلاق تبقى خرساء أمام كثير من المشكلات التي تمس النساء وكذلك العلاقة مع الرؤساء... (إلخ)، كانا ولدين قد جهلهما الله كما كانا يجهلانه في آخر الأمر، كانا عاجزين عن إدراك الحياة المستقبلية ذلك أن الحياة الحاضرة كانت تبدو لهما لاتنفد كل يوم تحت حماية آلهة لاتختلف عن الشمس، ولا عن البحر، أو عن البؤس. والحق أن جاك، إن كان قد تعلق بديديه تعلقاً عميقاً، فذلك بلا شك بسبب قلب هذا الولد الذي فتن بالمطلق، والصادق في مشاعره الأمينة (كان جاك يسمع كلمة أمانة لأول مرة (بعد أن قرأها مئة مرة)، من فم ديديه وكان يزخر بحنان رائع، ولقد جذبه كذلك تفرده، في نظره، فأصبحت جاذبيته بالنسبة إلى جاك غريبة بحتة تزداد شدة، شأنها، حين أصبح كبيراً، شان الجاذبية التي ستشده فيما بعد، بشكل لايقاوم نحو النساء الأجنبيات. كان لابن الأسرة، والتقليد، والدين بالنسبة إلى جاك إغراءات المغامرين المسمري البشرة، العائدين من المناطق الاستوائية وسحرهم، ولقد كتموا سراً غريباً لايفهمه أحد.

ولكن الراعي القبلي، من أعلى جبله الأجرد الذي حرقته الشمس، ينظر مرور اللقالق وهو يحلم بالشمال من حيث وصلت بعد رحلة طويلة يمكنه أن يحلم طوال اليوم، ولكنه يعود مساءً إلى سهله المزروع بأشجار المصطكى، إلى الأسرة بالأثواب الطويلة، وإلى كوخ البؤس حيث نبتت جذوره. كان بإمكان جاك أن يسكر بأشربة المحبة الغريبة الخاصة بالتقليد البرجوازي(؟)، إلاّ أنه كان يبقى في الواقع متعلقاً بمن يشبهه كثيراً أي بيير. كل صباح، الساعة السادسة والربع (ماعدا الأحد والخميس)، كان جاك ينزل سلم بيته أربع درجات فأربعاً، وهو يركض في رطوبة الفصل الحار أو في مطر الشتاء العنيف الذي كان ينفخ معطفه بلا أكمام مثل قطعة الاسفنج، كان يدور عند النبع في شارع بيير، ويستمر في الركض ليتسلق الطابقين، ثم يدق بلطف على الباب. كانت والدة بيير، وهي امرأة جميلة دمثة الطباع، تفتح له الباب المؤدي مباشرة إلى غرفة الطعام، الفقيرة الأثاث. كان في نهاية غرفة الطعام، من كل جهة، باب يفتح ليؤدي إلى غرفة نوم. كانت إحدى هاتين الغرفتين لبيير الذي يشارك بها أمه، بينما كانت الغرفة الأخرى غرفة خاليّه العاملَين في السكك الحديدية، القاسيين، الصامتين والمبتسمين. كان في مدخل غرفة الطعام، على اليمين، غرفة صغيرة ضيقة بلا هواء ولا ضوء تستعمل كمطبخ وكمرحاض. كان بيير متأخراً دائماً أمام الطاولة المغطاة بالقماش المشمع، وقد أضيء مصباح الغاز إن كان الفصل شتاء، وبيديه قدح كبير من الفخار البني واللماع الطلاء، يحاول أن يبلع دون أن يحرق فمه القهوة بالحليب الحارقة التي صبتها له أمه تواً. كانت تقول له: " انفخ عليها ". كان ينفخ، ويمتص بتلمظ، وكان جاك يغير استناد

قدمه وهو ينظر إليه[أ] . وعندما ينتهي بيير، عليه أن يمر أيضاً إلى المطبخ الذي تضيئه شمعة، حيث كان ينتظره أمام المجلى من التوتياء قدح ماء يحمل فرشاة أسنان مزينة بشريط سميك من معجون أسنان خاص لأنه كان يشكو من صديد في أسنانه. فيلبس معطفه الذي بلا أكمام، ويحمل محفظة كتبه، وقبعته، وقد تطقم بكل هذا، يفرشي أسنانه بقوة ومطولاً، قبل أن يبصق بضجة في المجلى الذي من التوتياء. كانت رائحة المعجون الطبية تمتزج برائحة القهوة بالحليب. كان جاك وقد تقزز قليلاً يفرغ صبره، وفي الوقت ذاته، يشعره بذلك، ولم يكن من النادر أن ينتج عن ذلك حرد من الحردات التي هي وثاق الصداقة. كانا يترلان حينئذٍ بصمت إلى الشارع ويسيران حتى موقف الترام بلا ابتسامة. كانا، في أحيان أخرى، على العكس، يطارد أحدهما الآخر وهما يضحكان أو يركضان، ويرمي كل واحد إلى الآخر، كطابة روكبي، إحدى محفظتي كتبهما. كانا ينتظران، في الموقف، وهما يراقبان وصول الترام الأحمر ليعرفا مع أي سائق من السائقين الاثنين أو الثلاثة سيقومان برحلتهما.

كانا دائماً يزدريان عربتي الترام ويتسلقان مركبة القيادة ليحتلا بصعوبة المقدمة، ذلك لأن الترام كان مكتظاً بالعمال القاصدين مركز المدينة، وكانت محفظتاهما تعيقان سيرهما. في المقدمة، كانا يستفيدان من نزول كل راكب ليتراصا بين الحاجز الحديدي والزجاجي وبين علبة السرعة، العالية والضيقة. وكان على رأسها كتلة ذات مقبض يدور أفقياً على طول حلقة حيث كانت فرضة بارزة من الفولاذ تشير إلى نقطة العطالة، كان هناك فرض ثلاث أخرى تشير إلى تدرج السرعة، وفرضة خاصة تشير إلى السير إلى الوراء. كان للسائقين، وحدهم، الحق في تحريك العتلة، ولقد وضع فوق رؤوسهم لافتة بمنع التكلم، وكان لهم على الولدين سحر أنصاف الآلهة، كانوا يلبسون لباساً موحداً أقرب إلى اللباس العسكري، مع قبعة ذات حرف من الجلد القاسي، ماعدا السائقين العرب الذين كانوا يلبسون على رؤوسهم الشاشية، كان الولدان يميزانهم من خلال مظهرهم. كان هناك "الشاب الصغير الودود"، ذو رأس يشبه ممثل دور العاشق البطل في السينما، وذو كتفين نحيلتين؛ كان هناك الدب الأسمر، وهو عربي طويل القامة، قوي، ذو تقاطيع غليظة، وكانت نظرته ثابتة دائماً أمامه؛ كان هناك صديق الحيوانات، إيطالي عجوز ذو وجه ممتقع وعينين مشرقتين، ينحني تماماً فوق مقبضه، ويأتي لقبه من أنه كاد يوماً يوقف ترامه ليتجنب مرة كلباً شارداً، ومرة أخرى، كلباً كان يتبرز بكل حرية بين قضبان السكة؛ وكان هناك زورو، المغفل الكبير، بوجهه وشاربه الصغير الذي يشبه دوغلاس فيربنك. كان صديق الحيوانات صديق الولدين

[أ] قبعة طالب ثانوية.

المفضل أيضاً. إلاّ أن إعجابهما الواله كان نحو الدب الأسمر، وقد وقف منتصباً، رابط الجأش، ثابتاً على قدميه الصلبتين، كان يقود آلته الصاخبة بأقصى سرعة، وقد أمسكت يده اليسرى، الضخمة، بحزم قبضة العتلة الخشبية ليدفعها ماإن تسمح له حركة السير بالسرعة الثالثة، بينما كانت يده اليمنى يقظة على عجلة المكبح الضخمة، التي على يمين علبة السرعة، مستعداً ليدير بقوة العجلة عدة دورات بينما كان يرجع عتلته إلى نقطة التوقف، فتنزلق القاطرة حينئذٍ بثقل على السكة. وكان يحدث مع الدب الأسمر، في المنعطفات وفي التحويلات، أن تترك السيخ الكبيرة غالباً، المثبتة بنابض حلزوني ضخم في رأس القاطرة، السلك الكهربائي، حيث كانت مربوطة بعجلة صغيرة إطارها أجوف، فتنتصب حينئذٍ بضجة كبيرة تحدثها اهتزازات السلك وخشخشة الشرر المتطاير. كان الجابي يقفز حينئذٍ من الترام، يصل إلى السلك الطويل المثبت في نهاية السيخ والذي كان يلتف آلياً في العلبة الحديدية خلف القاطرة، ثم يجره بكل قوته ليقهر مقاومة النابض الحلزوني الفولاذي، ويعيد السيخ إلى الخلف، وقد تركه يصعد ببطء ، ويحاول أن يعيد من جديد السلك إلى عجلة الإطار الأجوف، وسط شهب الشرر[أ] . كان الولدان، وقد انحنيا خارج القاطرة أو، إذا كان الفصل شتاءً، التصق أنفاهما بالزجاج، وهما يتابعان العملية، وحين كانت تكلل بالنجاح، كانا يعلنانها على الملأ كي يُطلع السائق دون أن يرتكبا مخالفة التحدث إليه مباشرة. ولكن الدب الأسمر كان يلبث ثابت الجنان، ينتظر،حسب القانون، أن يعطيه الجابي إشارة الانطلاق بجره الحبل الصغير المتدلي من خلف القاطرة، ويحرك حينئذٍ جرساً موضوعاً في المقدمة. فيطلق القطار حينئذٍ بلا احتياطات اضافية. كان الولدان وقد تجمعا في المقدمة، ينظران آنذاك إلى الطريق المعدني ينساب تحتهما وفوقهما، في الصباح الماطر أو المشرق، يبتهجان حين يتجاوز الترام بسرعة كبيرة عربة تجرها أحصنة أو على العكس، يجاري سرعة لفترة ما سيارة بطيئة. كان الترام، في كل موقف، يفرغ قسماً من حمولته التي كانت عمالاً عرباً وفرنسيين، ويمتلئ بزبائن، يصبح لباسهم أفضل كلما اقترب من وسط المدينة، كان ينطلق ثانية وفق الجرس، ويقطع هكذا من طرف إلى آخر قوس الدائرة الذي تمتد حوله المدينة، إلى أن يخرج فجأة إلى المرفأ وإلى فسحة الخليج الشاسعة التي كانت تنبسط حتى الجبال الشاهقة المزرقة في أعماق الأفق. وبعد ثلاثة مواقف، كانت نهاية الخط، ساحة الحكومة، حيث كان الولدان ينزلان. كانت الساحة، وقد أحيطت بالأشجار وبالبيوت، ذات قناطر على جهات ثلاث، تطل على الجامع الأبيض ثم على فسحة المرفأ. كان ينتصف، في الوسط، تمثال دوق أورليان الواثب وقد غُطي بالصدأ تحت سماء براقة، وقد أصبح برونز التمثال أسود تماماً،

[أ] الحبل والجرس.

وكان يقطر بالمطر في الطقس الرديء (ويروي الناس بالضرورة أن النحات، وقد نسي شكيمة، قد انتحر) بينما كانت المياه، تجري من ذنب الحصان بلا انقطاع إلى الحديقة الصغيرة الضيقة، المحمية بالشبك والتي تحيط النصب. كان باقي الساحة مغطى ببلاط لامع، يقفز الولدان من الترام فوقه، وهما ينطلقان بتزلجات طويلة نحو شارع باب - عزون الذي يؤدي بهما بخمس دقائق إلى الثانوية.

كان باب - عزون شارعاً ضيقاً، تزيده ضيقاً القناطر التي اصطفت على جانبيه، وقد أقيمت على أعمدة مربعة ضخمة، مما يجعله يترك مكاناً فقط لخط الترام، الذي تخدمه شركة أخرى، والذي يصل هذا الحي بأحياء المدينة الأكثر ارتفاعاً. كانت السماء الكثيفة الزرقة، أيام القيظ، تثقل كغطاء محرق على الشارع، وكان الظل بارداً تحت القناطر. أما في الأيام الماطرة، فلم يكن الشارع بكامله إلا خندقاً عميقاً من الحجر الرطب واللماع. وعلى طول القناطر، كانت حوانيت الباعة تتتابع، بائعي أقمشة بالجملة طُليت واجهات مخازنهم بألوان قاتمة، وكانت تلمع بعذوبة أكداس القماش الفاتح اللون في الظل، كانت حوانيت العطارين تعبق بالقرنفل والبن، كما كان هناك دكاكين صغيرة يبيع فيها الباعة العرب الحلويات التي تقطر زيتاً وعسلاً، وكان هناك مقاه مظلمة وعميقة تحترق فيها مرشحات القوة في تلك الساعة (أما في المساء، وقد أضيئت بالمصابيح الساطعة، فلقد كانت ملأى بالضجيج وبالأصوات، وجمهور من الرجال يدوسون على النشارة التي تغطي الأرض، ويتزاحمون أمام منضدة المشرب المزودة بالأقداح المليئة بالسائل الأغبش وبأطباق صغيرة ملأى بالترمس، وبسمك البلم، وبالكرفس المقطع، وبالزيتون، وبالبطاطا المقلية، وبفستق العبيد) ومجمل القول، كانت المخازن سوقاً للسائحين حيث تباع عقود وأساور زجاجية شرقية قبيحة في واجهات مسطحة تحيط بها مصارع ملأى بالبطاقات البريدية وبالمناديل المغربية ذات الألوان الصاخبة.

كان يدير أحد هذه المتاجر، وسط القناطر، رجل سمين، يجلس دائماً وراء واجهاته، في الظل أو تحت النور الكهربائي. كان ضخماً، مبيض الرأس، جاحظ العينين، يشبه الحيوانات التي تظهر ما أن ترفع الأحجار أو تقطع جذور الأشجار العتيقة، وخاصة كان أصلع تماماً ولذلك أطلق عليه طلاب الثانوية لقب " مزلج الذباب" و "حلبة سباق البعوض"، وكانوا يزعمون أن هذه الحشرات، حين تقطع سطح الرأس العاري، تخطئ في انعطافها فتتزحلق ولا تستطيع أن تحتفظ بتوازنها. كان الأولاد يمرون غالباً في المساء، مثل سرب من الزرازير، ليرونه وهم يركضون أمام المخزن، يصرخون بألقاب المسكين، ويقلدون بأصوات " زز - زز - زز " الذباب الوهمي. كان البائع الضخم يشتمهم؛ ولقد حاول مرة أو مرتين باعتداد أن يطاردهم، ولكنه اضطر أن يعدل عن ذلك.

كان يقف فجأة منذهلاً أمام وابل الصرخات والاستهزاءات، ولأمسيات كثـــيرة، تـــرك الأولاد يتجرأون فيأتون ليصرخوا في وجهه. وذات مساء، فجأة، برز شبان عرب، سخرهم البائع، مـــن وراء الأعمدة حيث كانوا مختبئين، وانطلقوا يطاردون الأولاد. في ذاك المساء، لم يستطع جاك وبيير أن ينجوا من العقاب إلاّ بفضل سرعتهما الاستثنائية. إلاّ أن جاك تلقى صفعة أولى فقط خلـــف رأسه ثم، وقد استيقظ من مفاجأته، تجاوز غريمه. ولكن اثنين من رفاقهما أو ثلاثة، تلقوا صفعـات قوية على رؤوسهم. تآمر الطلاب بعد ذلك على نهب المخزون وقتل المالك، ولكن في الواقـــع، لم يتابعوا مشاريعهم الاجرامية، وتوقفوا عن اضطهاد ضحيتهم، واعتادوا أن يمـــروا بلطـــف علـــى الرصيف المقابل. كان جاك يقول بمرارة: " لقد خانتنا الشجاعة، فيجيبه بيير: – على كل حـــال، نحن مخطئون– كنا مخطئين، ونخاف الضربات". ولقد تذكر،فيما بعد، هذه القصة، وأدرك (حقـــاً) أن النـــاس يدعـــون احـــترام القـــانون وأنهـــم لا يخضعـــون مطلقـــاً إلاّ للقوة [أ] .

كان شارع باب – عزون يَعرض، في وسطه، وذلك باختفاء القناطر من جهة واحدة لصـالح كنيسة سانت– فيكتوار. كانت هذه الكنيسة الصغيرة تحتل مكان مسجد قديم. كان قد حفـــر، على واجهتها المبيضة بالكلس، كتابة صلاة التقدمة (؟) كانت دائماً مزهرة. على الرصيف الخالي، كانت دكاكين الزهور قد فتحت أبوابها وبسطت زهورها في الوقت الذي كان يمر الولدان فيـــه، والتي كانت تعرض باقات ضخمة من السوسن والقرنفل، والورود، أو شقائق النعمان، حســـب الفصول، وقد غطست في علب مرتفعة من المعلبات، كانت حافتها العليا قد صدئت من المياه التي كانت ترش بها هذه الزهور باستمرار. كان هنالك أيضاً، على الرصيف عينه، حانوت صغير تبـاع فيه الفطائر العربية، وكان في الواقع، عبارة عن كشك صغير يكاد لايتسع لثلاثة رجال. على أحد أطراف الدكان حفر موقد، كان محيطه مطلياً بالخزف الأزرق والأبيض وكان يغني فوقه دســـت ضخم من الزيت المغلي. وأمام الموقد، تربع شخص غريب كأنه بطل رواية، بســـرواله العـــربي، وصدره شبه العاري في الأيام الحارة، وفي ساعات القيظ، وكان يلبس في الأيام الأخـــرى بـــزة أوروبية أغلقت ياقتها بدبوس أمان، وكان هذا الشخص برأسه المحلوق، ووجهه الشاحب وفمـــه الخالي من الأسنان، يشبه غاندي وقد حُرم من نظارتيه، وكان، وقد أمسك بيده مرغاة من المينـــا الحمراء، يراقب خبز الفطائر المستديرة التي كانت تحمر في الزيت. حين كانت تنضج الفطـيرة، أي حين يصبح المحيط ذهبي اللون، بينما تكون العجينة التي في منتهى الرقة في الوسط قـــد أصبحـــت

[أ] هو مثل الآخرين.

شفافة تطقطق (مثل قطعة بطاطا مقلية شفافة)، كان يمرر مغرفته بحذر تحت الفطيرة ويسحبها بخفة من الزيت، ثم يصفيها فوق الدست وهو يهز مغرفته ثلاث مرات أو أربع، ثم يضعها أمامه على منضدة يحميها الزجاج، وكانت هذه المنضدة عبارة عن رفوف مثقوبة تصف عليها، من جهة فطائر قد أعدت بالعسل على شكل أصابع، ومن جهة أخرى فطائر بالزيت مرقوقة ومستدير[أ].

كان بيير وجاك يعشقان هذه الحلوى، وحين يحصل الواحد أو الآخر، وهذا ما يحدث بشكل استثنائي، على قليل من المال، يتمهلان ويقفان أمام الدكان، ويأخذان الفطيرة بالزيت في ورقة، جعلها الزيت شفافة، أو الإصبع، التي غطها البائع، قبل أن يعطيها إياهما، في جرة بالقرب منه، بجانب الفرن، وملأى بالعسل القاتم حيث تبرق نتف الفطائر الصغيرة. كان الولدان يتلقيان هذه الروائع ويأكلانها، وهما يركضان نحو الثانوية، وقد انحنى جذعهما ورأسهما إلى الأمام كي لايلوثا ملابسهما.

أمام كنيسة سانت - فيكتوار، كل سنة، بعد قليل من بدء العام الدراسي، كان يتم رحيل السنونوات. وفعلاً، فإن أعلى الشارع، وقد اتسع في هذه المنطقة، كانت أعداد كبيرة من الأسلاك الكهربائية، معلقة وكذلك أكبال ذات توتر عال كانت تستخدم في الماضي لتسيير الترام والتي، وقد أبطلت، لم تنزع. فما أن تبدأ تباشير البرد، برد نسبي لأنه لايصل مطلقاً إلى درجة الجليد، إلاّ أن هذا البرد كان جلياً بعد حرارة الصيف الثقيلة التي جسمت خلال أشهر، كانت السنونوات[ب] التي تطير عامة فوق الشوارع العريضة للبحر، وعلى الساحة أمام الثانوية أو في سماء الأحياء الفقيرة، تنقض أحياناً بصرخات حادة، على فاكهة شجرة التين، أو على قذارة في البحر، أو على روث غض، كانت هذه السنونوات تظهر أولاً منفردة في ممر شارع باب- عزون، تطير بشكل منخفض قليلاً للقاء الترام إلى أن تحلق فجأة لتختفي في السماء فوق المنازل. وبغتة، ذات صباح، كانت تقف ألوفاً على كل أسلاك ساحة سانت - فيكتوار الصغيرة، على أعالي المنازل، متراصة بعضها قرب بعض، رافعة الرأس فوق عنقها الصغير الأسود الشبه حزين، تحرك بخفة قوائمها، ضاربة ذنبها لتفسح مكاناً لقدوم جديد، وقد غطت الرصيف ببرازها الرمادي، وكانت تطلق مجتمعة زقزقة مكتومة، تقطعها ثرثرات قصيرة، كأنها مشاورات مستمرة امتدت منذ الصباح فوق الشارع، وراحت تتضخم رويداً رويداً ثم تكاد تصبح مصمة حين يحل المساء ويركض

(أ) زلابية، مقروض (كما وردت في ملاحظة المؤلف. المترجمة).

(ب) مراجعة " عصافير الدوري الموجودة في الجزائر " التي ألقاها غرونيه.

الولدان نحو ترام العودة، ثم تتوقف فجأة إثر أمر خفي، مئات الرؤوس الصغيرة والأذناب السوداء والبيضاء لتنحني آنذاك على العصافير النائمة. كانت العصافير تصل جماعات صغيرة رشيقة، طوال يومين أو ثلاثة أيام، وقد أتت من أكل أطراف الساحل، ومن أبعد من ذلك أحياناً، وكانت تحاول أن تستقر بين المحتلين الأوائل، وشيئاً فشيئاً، تقيم على الأفاريز، على طول الشارع، من جانبي التجمع الرئيسي، وهي تضاعف رويداً رويداً، فوق رؤوس المارة، تصفيق أجنحتها وزقزقتها العامة التي تصبح في النهاية مصمة. ثم ذات صباح، وكذلك فجأة، يصبح الشارع خالياً. ففي الليل، قبل الفجر تماماً، رحلت العصافير معاً نحو الجنوب. كان الشتاء يبدأ حينئذٍ بالنسبة إلى الولدين، قبل وقته المحدد، ذلك لأنه لم يكن بالنسبة إليهما فصل صيف البتة دون صراخ السنونوات الحاد في سماء المساء التي لاتزال حارة.

كان شارع باب - عزون يفضي في نهايته إلى ساحة كبيرة حيث، على اليسار وعلى اليمين، ترتفع بشكل مواجه المدرسة الثانوية والثكنة. كانت الثانوية تدير ظهرها إلى المدينة العربية، التي كانت شوارعها الوعرة الرطبة تبدأ بالارتفاع على طول الهضبة. وكانت الثكنة تدير ظهرها إلى البحر. وبعد الثانوية، تبدأ حديقة مارنغو؛ وبعد الثكنة، كان يقع باب العويد الفقير ونصف الاسباني. كان بيير وجاك، قبل السابعة والربع بعدة دقائق، بعد أن تسلقا السلالم بأقصى سرعة، دخلا وسط خضم الأولاد من مدخل البواب الصغير، جانب بوابة الشرف. ثم كانا ينتهيان إلى سلم الشرف الفسيح، الذي علق على جانبيه لوحات الشرف، وكانا يتابعان تسلقهما بسرعة ليصلا إلى قرص الدرج، حيث يبدأ على اليسار سلم الطوابق والذي كان يفصله عن الباحة الكبيرة رواق زجاجي. هناك، خلف إحدى أعمدة صحن الدرج، كانا يريان "وحيد القرن" الذي كان يتربص بالمتأخرين (كان وحيد القرن ناظراً عاماً، كورسيكي الأصل، قصير القامة، عصبي المزاج، ويعود لقبه إلى شاربيه المعقوفين). فتبدأ حينئذٍ حياة جديدة.

كان بيير وجاك قد حصلا، بسبب "وضعهما العائلي"، على منحة نصف داخلية. كانا إذن يمضيان يومهما كاملاً في الثانوية، ويأكلان في قاعة الطعام. كانت الدروس تبدأ الساعة الثامنة أو التاسعة حسب الأيام، إلاّ أن وجبة الفطور كانت تقدم إلى الطلاب الداخليين الساعة السابعة والربع، وكان للطلاب نصف الداخليين الحق في الفطور. لم تكن أسرتا الولدين تستطيعان أن تتصورا التخلي عن حق ما، في حين كانت حقوقهما قليلة جداً. كان جاك وبيير إذن من الطلبة النادرين الذين يصلون الساعة السابعة والربع إلى قاعة الطعام البيضاء والمستديرة، حيث كان الطلاب الداخليون، والنوم في عيونهم، قد جلسوا أمام طاولات طويلة تغطيها التوتياء، أمام أقداح

كبيرة وسلات ضخمة تكدست فيها شرائح سميكة من الخبز اليابس، بينما كان الصبيان، معظمهم عرباً، مقمطين بصداري عالية من القماش الخشن، يمرون بين الصفوف حاملين أباريق قهوة كبيرة، كانت في الماضي لماعة، وذات رؤوس معقوفة، ليصبوا في الأقداح سائلاً محرقاً كانت كمية الهندباء فيه أكثر من القهوة بكثير. وبعد أن مارس الولدان حقهما، كان بامكانهما، بعد ربع ساعة الدراسة حيث، تحت رقابة ناظر، هو نفسه يعيش في الثانوية، كان الطلاب يستطيعون أن يذاكروا دروسهم قبل أن تبدأ الحصة.

إن الفرق الكبير عن المدرسة الابتدائية كان تعدد المعلمين. كان السيد برنار يعرف كل شيء ويُعلم كل مايعرف بالطريقة ذاتها. أما في الثانوية، فلقد كان المعلمون يتغيرون مع المواد، والمناهج تتغير مع الرجال[أ] . وتصبح المقارنة ممكنة، أي كان يجب الاختيار بين من يحبونهم ومن لايحبونهم مطلقاً. إن معلم المدرسة الابتدائية، من وجهة النظر هذه، كان أقرب منه إلى الأب، ويحتل المكان كله تقريباً، لايمكن تجنبه مثل الأب، ويشكل جزءاً من الحاجة. فليس الموضوع إذن أن يحبه الطفل فعلاً أم لا. إنه محبوب في معظم الأحيان لأن الأولاد تابعون له تبعية مطلقة. ولكن إذا حدث و لم يحبه الولد، أو يحبه قليلاً، تبقى التبعية والحاجة قائمتين، ويشبهان إلى حد كبير الحب. أما في الثانوية، فعلى العكس، كان الأساتذة، شأنهم شأن هؤلاء الأعمام أو الأخوال الذين يمكن الاختيار بينهم. كان من الممكن خاصة، أن لايحبوهم، وكان هذا شأن أستاذ الفيزياء المتأنق اللباس إلى أقصى التأنق، المتسلط الفظ في كلامه؛ لم يستطع جاك ولا بيير البتة " أن يتحملاه " وإن كانا قد اضطرا خلال سنوات أن يكون أستاذهما، مرتين أو ثلاث مرات، أما الأستاذ الذي كان له أكبر الحظ ليكون محبوباً، فلقد كان أستاذ الأدب، وكان الولدان يريانه أكثر من بقية الأساتذة، وبالفعل، فلقد كان جاك وبيير متعلقين به[ب] في معظم الصفوف، دون أن يتمكنا من الاعتماد عليه، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عنهما، وكان ماإن تنتهي الحصة حتى يذهب نحو حياة مجهولة، وكانا هما أيضاً يرحلان نحو هذا الحي النائي الذي لم يكن لأي أستاذ من أساتذة الثانوية الفرصة في الإقامة فيه، حتى إنهما لم يكونا يلتقيان أحداً، سواء من الأساتذة أو من الطلاب في خط الترام الذي يسلكانه. كانت الحافلات الحمراء هي التي تنقل إلى الأحياء المنخفضة وتدعى (الشركة الفرنسية للسكك الجزائرية)، أما أحياء المناطق المرتفعة المشهورة بأناقتها، فعلى العكس، كان هناك

[أ] كان السيد برنار محبوباً والكل معجب به. أما في الثانوية، ففي أحسن الأحوال، كانوا يعجبون بالمعلم فقط، ولا أحد يجرؤ أن يحبه.

[ب] ذكر من بين الأساتذة؟ وتوسع ؟

خط آخر ذو عربات خضراء تدعى (النقل الجزائري) وكانت تصل هذه العربات حتى الثانوية، أما ترامات (الشركة الفرنسية للسكك الجزائرية) فلقد كانت تقف في ساحة الحكومة، وكانت [ ] [1] إلى الثانوية من الأسفل. كان الولدان يشعران، ما إن ينتهي يومهما، بافتراقهما بدءاً من باب الثانوية أو، أبعد بقليل، في ساحة الحكومة، حين كانا يتركان مجموعة رفاقهما الفرحة، ويتجهان نحو العربات الحمراء الذاهبة إلى الأحياء المعدمة. كان الافتراق هو ما يشعران به، وليس نقصهما أو دونيتهما. كانا من مكانٍ آخر، هذا كل مافي الأمر.

وعلى العكس، فخلال اليوم الدراسي، كان الافتراق لاغياً. كانت الصداري متشابهة، وإن زادت أو قلت أناقتها. كان التنافس الوحيد هو تنافس الذكاء خلال الحصص الدرسية، والرشاقة البدنية أثناء اللعب. ففي هذين النوعين من السباق، لم يكن الولدان الأخيرين. فالإعداد الراسخ الذي تلقاه الولدان في الابتدائية قد منحهما تفوقاً وضعهما، منذ الصف السادس، في ركب الأوائل. كانت إملاؤهما بلا خطيئة، وحساباتهما قوية، وذاكرتهما حسنة التدريب، وخاصة الاحترام [ ] [2] الذي رسخوه لديهما لكل أنواع المعرفة، كل هذه الأمور كانت، على الأقل في بدء دراستهما، مؤهلات أساسية للنجاح. لو لم يكن جاك كثير الحركة، مما كان يعرقل باستمرار تسجيل اسمه في لوحة الشرف، ولو كان بيير مولعاً أكثر باللغة اللاتينية، لكان انتصارهما كاملاً. ففي كل الأحوال، كان أساتذتهما يشجعونهما، وكان الجميع يحترمونهما. أما بالنسبة إلى اللعب، فكانت كرة القدم هي المعنية خاصة. ولقد اكتشف جاك منذ الاستراحات الأولى، ماسيكون شغفه لسنوات كثيرة. كانت المباريات تجري في الاستراحة التي تلي الفطور في قاعة الطعام، وفي استراحة الساعة الواحدة التي تفصل، الطلبة الداخليين والطلبة نصف الداخليين، عن الطلبة الخارجيين المراقبين، ثم الحصة الأخيرة الساعة الرابعة. في ذاك الوقت، كانت استراحة مدة ساعة تسمح للأولاد أن يتناولوا وجبة خفيفة وأن يروحوا عن أنفسهم قبل دراسة المساء حيث، طوال ساعتين، يستطيعون أن يعملوا وظائفهم لليوم التالي[1] . بالنسبة إلى جاك، لم يكن يتناول قط هذه الوجبة الخفيفة. فمع عشاق كرة القدم، كان يركض إلى الباحة المبطنة بالاسمنت، المحاطة من الجهات الأربع بقناطر ذات أعمدة ضخمة (كان يتنزه تحتها الأقوياء في الترجمة والطلاب الهادئون العقلاء وهم يتحادثون)، كان يمتد في الباحة نفسها أربعة مقاعد أو خمسة خضراء،

---

(١) كلمة غير مقروءة .

(٢) كلمة غير مقروءة.

(١)كانت الباحة أقل ازدحاماً بسبب ذهاب الطلاب الخارجيين.

وكانت الباحة قد زرعت بأشجار تين ضخمة تحميها شبكات حديدية. كان فريقـــان يتقاسمـــان الباحة، ويقف حارسو المرمى في كل طرف بين الأعمدة، وكانت كرة ضخمـــة مـــن المطـــاط الاسفنجي توضع في الوسط. لم يكن هناك حكم، ومن أول ضربة قدم، كان الصراخ والســـباق يبدأان. ففي هذا الميدان، كان جاك، الذي كان يتحدث من ند إلى ند مع أفضل طلاب الصـــف، يفرض احترامه وحبه كذلك على كل الطلاب، الذين كانوا غالباً، قد منحتهم السماء، ســـاقين صلبتين ونفساً طويلاً، هم الذين حرموا من رأس متين. في هذا المجال، كان يفترق للمرة الأولى عن بيير الذي لم يكن يلعب وإن كان ماهراً بشكل طبيعي: لقد أصبح أكثر وهناً وقد نما بسرعة أكبر من جاك، كما أصبح أكثر شقرة أيضاً، كأن الاقتلاع لم لاءم بقدر مالائم جاك[1] . أما جـــاك، هو، فلقد تأخر في النمو، وهذا مامنحه الألقاب مثل : " سفيفا" و "أسفل المؤخرة"، ولكنه لم يكن يهتم بذلك، وهو يركض بقوة مدحرجاً الكرة ليتجنب بالتتالي، إما شجرة أو غريماً، كان يشـــعر بأنه ملك الباحة والحياة. وحين كان يقرع الطبل معلناً نهاية الاستراحة وبداية الدرس، كان فعـــلاً يفاجأ، وقد توقف فجأة على الاسمنت؛ وهو يلهث متعرقاً مغتاظاً من قصر الساعات، ثم يســـتعيد شيئاً فشيئاً وعيه للزمن الذي فيه، فيثب حينئذٍ من جديد نحو الصفوف مع الرفاق، وهو يمسح عرق وجهه بكميه، وقد ارتاع فجأة من فكرة تآكل مسامير نعل حذائيه اللذين كان يتفحصهما بقلق في أول دراسة المساء، محاولاً تقدير الفرق عن اليوم السابق، ومعايناً بريق النقاط وقد اطمأن لصعوبـــة تقدير درجة التآكل إلاّ حين يصل التلف إلى درجة لايمكن اصلاحها، مثل انفتاح النعل، أو قطـــع وجه الحذاء أو التواء الكعب، فإن هذا لم يكن يترك مجالاً للشك في كيفية استقباله حين يعـــود إلى البيت، وكان يبلع لعابه وقد انقبضت أحشاؤه، طوال ساعتي الدراسة، محاولا أن يكفر عن خطـــأه بدراسة أكثر تركيزاً وبالرغم من كل جهوده، كان خوف الضربات يسبب له شروداً لامفر لـــه. كانت دراسة المساء الأخيرة هذه تبدو له الأكثر طولاً. كانت تستمر ساعتين، وتتـــم في الظـــلام حيث بدأ المساء يعم. كانت النوافذ العالية تشرف على حديقة مارنغو. والطلاب، حول جـــاك وبيير الجالسين جنباً إلى جنب، يبدون أكثر صمتاً منهم عادة، وقد تعبوا من الدراسة ومن اللعـــب، منهمكين في مهامهم الأخيرة. وفي آخر السنة بشكل خاص، كان المساء يهبط علـــى الأشـــجار الكبيرة، وعلى الحدائق وعلى حزم أشجار موز البستان. كانت السماء تمتد إلى البعيد وقد ازدادت خضرتها أكثر فأكثر، بينما كان صخب المدينة يخفت ويصبح مكتوماً. وحين كان الطقس حـــاراً جداً وقد بقيت إحدى النوافذ نصف مفتوحة، كان يسمع صراخ آخر السنونوات فوق الحديقـــة

---

[1] التوسع.

تصبح وكانت رائحة الفل والمغنولية الكبيرة تأتي لتغرق عطور الحبر والمسطرة الأكثر حموضة والأشد مرارة. كان جاك يحلم، وقد انقبض قلبه بشكل غريب، إلى أن يعيده إلى الواقع صوت الناظر الشاب، الذي كان هو نفسه يحضر دروسه الجامعية. كان على جاك أن ينتظر الطبل الأخير.

في الساعة السابعة[أ] ، كان الركض خارج الثانوية، السباق بجماعات صاخبة، على طول شارع باب - عزون، وقد أضيئت مخازنه، كانت الأرصفة تزخر بالناس تحت القناطر حتى إنه كان على الأولاد أن يركضوا أحياناً وسط الشارع نفسه، بين سكك الترام إلى أن يظهر ترام عن بعد، فيضطرون أن يرموا بأنفسهم تحت القناطر، إلى أن تنبسط أمامهم ساحة الحكومة ذات المحيط الذي أضاءته الأكشاك وأطباق الباعة العرب التي أنارتها مصابيح الأسيتلين التي كان الأولاد يشمون رائحتها بمتعة كبيرة. كانت عربات الترام الحمراء تنتظر، وقد غصت بالركاب، بينما كانت صباحاً أقل ازدحاماً، وكان الولدان مضطرين أحياناً إلى الوقوف على مرقاة الترام الصغيرة، وهذا ما كان ممنوعاً ومقبولاً معاً، إلى أن يترل ركاب في موقف ما، فيغوص الولدان حينئذٍ في الكتلة البشرية، وقد افترقا عن بعضهما، مما لايساعدهما على كل حال على التحادث، وقد اقتصرا على تحريك مرفقيهما وجسميهما ببطء حتى يتوصلا إلى أحد المساند الحديدية حيث كان يرى منه المرفأ المظلم، وحيث كانت السفن الكبيرة المنقطة بالنور تبدو، في ظلام البحر والسماء، كأنها هياكل أبنية محترقة حيث ترك الاشتعال كل جمراته. كانت الترامات المضيئة تمر حينئذٍ محدثة ضجة كبيرة فوق البحر، ثم تغوص قليلاً نحو الداخل وتتتابع حينئذٍ بين البيوت التي تزداد فقراً إلى أن تصل إلى حي بيلكور، هناك، كان على الولدين أن يفترقا، وعلى جاك أن يصعد السلالم التي لم تضأ قط، نحو النور الداخلي لمصباح الغاز الذي كان يضيء القماش المشمع وكذلك الكراسي حول الطاولة، تاركاً في الظل بقية الغرفة حيث انشغلت كاترين كورمري أمام صوان الطعام في إعداد المائدة، في حين كانت الجدة في المطبخ تسخن طحين الظهيرة، والأخ الأكبر يقرأ في زاوية الطاولة رواية مغامرات. كان على جاك أن يذهب أحياناً إلى البقال المزابيطي ليجلب ملحاً أو أوقية من الزبدة كانت تعوزهم في اللحظة الأخيرة، أو أن يذهب لاحضار الخال أرنست الذي كان يخطب بإطناب في المقهى عند كابي. كانوا يتناولون عشاءهم الساعة الثامنة في صمت أو كان الخال أرنست يروي مغامرة غامضة تجعله يقهقه ضاحكاً، ولكن على كل حال، لم يكن الحديث يدور مطلقاً عن الثانوية، اللهم إلاّ حين كانت الجدة تسأل جاك إن كان قد حصل على علامات جيدة، فكان يقول: نعم، ولا أحد يعلق على ذلك، و لم تكن أمه تسأله عن شيء، وهي تهز رأسها وتنظر إليه

[أ] هجوم اللوطي.

بعينيها الوديعتين حين يقر أنه حصل على علامات جيدة، ولكنها كانت دائماً صامتـــة ، وقــد استدارت قليلاً عنه. كانت تقول لأمها: " لاتتحركي، سأحضر الجبن"، ثم لاشيء حـــتى نهايـــة العشاء، حين كانت تنهض لاخلاء المائدة. كانت الجدة تقول له وقد رأته قد أخذ أحــد أجــزاء Pardaillan ليقرأ بنهم: " ساعد أمك". كان يساعدها ثم يعود تحت المصباح، وقد وضع الكتـــاب الضخم الذي كان يتحدث عن المبارزات وعن الشجاعة، على القماش المشمع الأملس والعـــاري، بينما كانت أمه، وقد جرَّت كرسياً خارج نور المصباح، وجلست أمام النافذة في الشتاء، وعلـــى الشرفة في الصيف، لتنظر إلى حركة سير الترامات والسيارات والمارين، التي كانت تقـــل رويـــداً رويداً [١] . كانت الجدة هي التي تقول لجاك كذلك إن عليه أن ينام لأنه سينهض الساعة الخامسة والنصف صباح اليوم التالي، فكان يقبلها أولاً، ثم يقبل خاله، وفي النهاية أمه، التي كانت تعطيـــه قبلة حنونة شاردة، وقد عادت إلى وضعيتها الجامدة، في الظلام، ونظرتها تائهة نحو الشارع، وعلى مسار الحياة التي تجري بلا كلل أسفل الضفة التي كانت جالسة فوقها بلا ملل، بينما كان ابنـــها يراقبها في الظل بلا ملل، وقد انقبضت حنجرته، وهو ينظر إلى الظهر النحيل المنحني، وقد امتـــلأ قلبه بقلق غامض أمام مصيبة لم يكن باستطاعته أن يفهمها.

---

[١] لوسيان - ١٤ EPS - ١٦ تأمينات.

الخُمّ وذبح الدجاج

إن هذا القلق، أمام المجهول وأمام الموت، الذي كان ينتابه دائماً وهو عائد من المدرسة الثانوية إلى البيت، كان يملأ قلبه في نهاية اليوم بالسرعة نفسها التي يلتهم فيها الظلام النُور والأرض، ولا يتوقف هذا القلق إلا حين تشعل جدته مصباح الغاز، واضعة الزجاجة على المشمع، وقد انتصبت واقفة على رؤوس أصابع قدميها في حين أسندت فخذيها على حافة الطاولة، وقد انحنى جسمها إلى الأمام، والتوى رأسها كي ترى بشكل أفضل رأس القنديل تحت العاكس، وقد أمسكت يدها المسمار اللولبي النحاسي الذي يضبط الفتيل تحت المصباح، بينما راحت يدها الأخرى تحك الفتيل بعود كبريت مشتعل، إلى أن يتوقف لهب الفتيل الأسودِ ويعطي نوراً مضيئاً، ثم تضع الجدة ثانية الزجاجة على أسنان المزراب النحاسي المحفورة فتصر قليلاً حين تنغرس الزجاجة فيه، أما هي فتنتصب واقفة من جديد أمام الطاولة، وقد رفعت ذراعاً واحدة، لتسوي الفتيل ثانية إلى أن ينتشر النور الأصفر، الحار، على الطاولة بشكل دائري تام، فيضيء بنوره الذي يزداد عذوبة، وقد عكس مشمع الطاولة، وجه المرأة والطفلِ، الذي كان يحضر من الطرف الآخر للطاولة حفلة إشعال المصباح، وقلبه ينشرح رويداً رويداً مع ارتفاع النور.

كان يحاول أحياناً أن يسيطر على هذا القلق الذي يعتريه سواءً بالكبرياء أو بالغرورِ، وذلك حين كانت جدته تأمره في بعض المناسبات أن يذهب ليحضر الدجاجة من الباحة. دائماً يحدث ذلك في المساء، عشية عيد هام، كالفصح أو الميلاد، أو بمناسبة مرور أحد الأقرباء الأكثر يسراً فترغب الأسرة بتكريمهم وكذلك بإخفائها عنهم خجلاً وضعها الحقيقي.

وبالفعل، كانت الجدة وفي سنوات جاك الأولى في الثانوية قد طلبت من الخال جوزيفلن أن يجلب لها دجاجات عربية من رحلاته التجارية أيام الآحاد، ولقد جندت الجدة الخال ارنست ليبني لها، في آخر الباحة على مستوى الأرض اللزجة الرطبة، ما يشبه الخم حيث ربت خمس أو ست دجاجات كانت تعطيها البيض، ودماءها عند الحاجة.

إن أول مرة قررت فيها الجدة مباشرة التنفيذ، كانت الأسرة تتناول العشاء، فطلبت الجدة من الصبي البكر أن يذهب ليحضر الضحية، ولكن لوي رفض، وأعلن بصراحة أنه يخاف. فسخرت منه وانتقدت بعنف أولاد الأثرياء الذين ليسوا مثل أولاد جيلها، الآتين من أعماق الريف، والذين لم يكونوا يخافون شيئاً ". إن جاك، أشجع منك وأنا أعرف ذلك، هيا ياجاك، إذهب أنت". في الحقيقة، لم يكن جاك يشعر مطلقاً بأنه أشجع. ولكن، بما أن ذلك قد أعلن، فلم يكن باستطاعته التراجع، فذهب إلى الخم في هذا المساء الأول. كان عليه أن يترل الدرج، متلمساً في العتمة طريقه، ثم يستدير نحو اليسار في الممر المظلم، ويجد باب الباحة ويفتحه، كان الليل أقل ظلاماً من الممر. وكان ترى الدرجات الأربع الزلقة والمخضرة التي تنحدر نحو الباحة. ثمة على اليمين شبابيك البيت الصغير الذي يأوي أسرة الحلاق وكانت هذه الأسرة العربية تترك ضوءاً شحيحاً ينساب. وأمامه لمح بقعاً ضاربة إلى البياض[أ] لحيوانات نائمة أرضاً أو على قضبان ملوثة بالبراز. وصل إلى الخم، وما أن لمس الخم المهتز وقد جلس القرفصاء واضعاً أصابعه فوق رأسه في الثقوب الكبيرة للشبكة حتى ابتدأت تعلو قوقأة مكتومة. ارتفعت معها رائحة البراز الدافئة والمقززة. فتح جاك الباب الصغير الواقع بمستوى الأرض على مصراعيه، وانحنى ليدخل منه يده وذراعه، ولامس بقرف الأرض أو عصى ملطخة بالأقذار، فسحب يده بسرعة، وانقبض قلبه ذعراً ما إن انفجرت ضوضاء الأجنحة والقوائم حتى راحت الحيوانات تطير أو تركض من كل الجهات.

ولكن كان عليه أن يجزم أمره، لأنه سمي الأشجع. إلا أن تخبط الحيوانات في هذا الظلام، في زاوية من العتمة والقذارة، قد ملأ قلبه بقلق كان يضغط على جوفه. راح ينتظر، ويرى فوقه الليل النظيف، والسماء المليئة بالنجوم الواضحة الهادئة، ثم ألقى بنفسه إلى الأمام، وأمسك أول قائمة وقعت في متناول يده، وجر الحيوان المليء بالصيحات والرعب حتى الباب الصغير، ثم أخذ القائمة الثانية بيده الأخرى، وجر الدجاجة بعنف خارج الخم، وقد بدأ ينتف قسماً من ريشها وهي تصطدم بدعائم الباب، في حين امتلأ الخم كله بقوقات حادة ومحمومة أخرجت العربي العجوز قافزاً في مستطيل ضوئي اقتطع فجأة ". قال الولد بصوت خائف: هذا أنا ياسيد طاهر. آخذ دجاجة لجدتي - آه، هذا أنت حسن، ظننت أن هناك لصوصاً " ثم دخل، وأغلق الباب فعم الظلام ثانية الباحة. حينئذ راح جاك يركض بينما كانت الدجاجة تتخبط بجنون، وهو يلطمها بجدران الممر أو بقضبان الدرج. كان مريضاً من القرف والخوف وهو يحس في راحة يده جلدها السميك البارد، وقشور قوائمها، أخذ يركض بسرعة أكبر وبرز على رأس الدرج وفي ممر المترل، وأخيراً

[أ] مشوهة.

ظهر في غرفة الطعام ظهور الفاتحين. كان المنتصر قد تقطع في المدخل وبدا أشعث الشعر، وقد اخضرت ركبتاه من عشب الباحة، وأمسك الدجاجة أبعد مايمكن عن جسمه، وابيض وجهه خوفاً ". قالت الجدة للولد الأكبر، أترى إنه أصغر منك ولكنه يخجلك كان جاك ينتظر لكي يزهو بحق، أن تأخذ جدته بيد ثابتة قائمتي الدجاجة التي هدأت فجأة كأنها أدركت أنها منذ الآن في أيد لاتعرف الرحمة. كان أخوه يأكل تحليته دون أن ينظر إليه، اللهم إلا ليوجه إليه تكشيرة إزدراء تزيد سرور جاك وغبطته، إلا أن هذا السرور لم يدم طويلاً، فالجدة وقد سرها أن يكون حفيدها شجاعاً، دعته مكافأة له أن يحضر في المطبخ ذبح الدجاجة. كانت قد لفت خصرها بمحزم أزرق خشن ممسكة بيد قائمتي الدجاجة، في حين وضعت على الأرض صحناً كبيراً مقعراً، من الخزف الأبيض المطلي وكذلك سكين المطبخ الطويلة التي كان الخال ارنست يشحذها بانتظام على حجر أسود طويل، حتى أن النصل قد ضاق، وضؤل من كثرة الاستعمال فلم يعد إلا خيطاً براقاً. " قف هناك" مكث جاك في المكان المحدد، في مؤخرة المطبخ في حين وقفت الجدة في المدخل تسد الباب على الدجاجة وعلى الولد. كانت كليتاها على المجلى وكتفها (اليسرى) على الحائط. والولد ينظر، برعب إلى الحركات الدقيقة التي يقوم بها مقدم الذبيحة. وبالفعل كانت الجدة تدفع الصحن بدقة تحت ضوء مصباح الغاز الموضوع على الطاولة الخشبية، يسار المدخل، وتبسط الحيوان على الأرض، واضعة ركبتها اليمنى على الأرض، وتحصر قائمتي الدجاجة وتسحقها بيدها لتمنعها من التخبط، وقد أمسكت بعد ذلك رأسها بيدها اليسرى جاذبة إياه إلى الخلف فوق الصحن. وراحت بعد ذلك تذبحها بطيئاً بالسكين القاطع كموسى الحلاقة، فاتحة جرحاً في الموضع المسمي لدى الإنسان بجوزة العنق، لاوية الرأس في لحظة إنغراز السكين بعمق في الغضاريف محدثاً صوتاً فظيعاً كانت تمسك الحيوان وهو بلا حراك، وقد اعترته انتفاضات رهيبة بينما كان الدم الأحمر يسيل في الصحن الأبيض، كان جاك يشعر وهو ينظر إليها، وقد ترنحت ساقاه كما لو كان هذا الدم دمه وقد أفرغ منه. قالت له جدته بعد زمن لامتناه "خذ الصحن فلقد توقف الدم". وضع جاك بحذر على الطاولة الصحن حيث بدأ الدم يغمق. بالقرب من الصحن، ألقت الجدة الدجاجة وقد كبا ريشها وتحجرت نظرتها تحت جفن منسدل مستدير وبجعد. نظر جاك إلى الجسد الجامد، وقد تجمعت الآن أصابع القائمتين وتهدلت، بلا قوى وكبا العرف وتهدل، كل شيء يدل على الموت. انطلق جاك إلى غرفة الطعام(١) . قال له أخوه في المساء الأول، بغضب مكتوم: " أنا لاأستطيع أن أرى هذا، إنه مثير للإشمئزاز" قال جاك بصوت متهدج: ولكن لا. كان لوي ينظر إليه نظرة عدائية

(١) في اليوم التالي عبقت رائحة لحم الدجاجة النيئ وهو يشوى.

فاحصة. فانتصب جاك وكتم قلقه، أخفى هذا الخوف المرعب الذي انتابه أمام الليل وأمام هلـــع الموت، ولقد استمد من الكبرياء ومن الكبرياء وحدها، عزم الشجاعة الذي انتهى أن تحول لديـــه إلى شجاعة. أخيراً قال لأخيه: "أنت خائف، هذا كل مافي الأمر". قالت الجدة وهي تدخل الغرفة: أجل، إن جاك هو الذي سيذهب في المرات القادمة إلى الخم. قال الخال أرنست مغتبطاً: حســـن، حسن، إنه شجاع". كان جاك قد تسمر رعباً، وهو ينظر إلى أمه، المتنحية قليلاً، والتي كانت ترتق الجوارب حول بيضة خشبية كبيرة. نظرت إليه أمه قائلة: " أجل فأنت شجاع وهذا حســـن". ثم استدارت نحو الشارع، أما جاك، فلقد نظر إليها ملء عينيه، وعاوده الشعور بالتعاسة وقد استقرت في قلبه المنقبض. قالت الجدة : " اذهب للنوم ".

ودون أن يشغل مصباح الغاز الصغير، خلع جاك ثيابه في الغرفة مستنيراً بالضوء الآتي مـــن غرفة الطعام، ثم نام على حافة السرير المخصص لشخصين كي لايلامس أخاه، أو يزعجه، ونـــام فوراً، وقد هده التعب وأنهكته الأحاسيس، كان يوقظه أخوه ليقفز فوقه وينام، وجهه للحائط، لأنه كان ينهض بعد جاك، وتارة توقظه أمه التي كانت تصطدم أحياناً بالخزانة وهي تخلع في الظـــلام ملابسها، ثم ترتقي بهدوء سريرها وتنام نوماً خفيفاً حتى ليظن أنها يقظة، هذا ماكان يخيل إلى جاك أحياناً، حتى إنه كان يرغب أن يناديها ثم يقول لنفسه إنها لن تسمعه على كل حال، ويرغم ذاتـــه على أن يبقى يقظاً بهدوء وبلا حراك، مابقيت أمه ساهرة، إلى أن يغلبه النعاس كما غلب أمه بعـــد يوم قاس من الغسيل أو الخدمة في البيوت.

أيام الخميس والعطل

كان جاك وبيير يعودان إلى عالمهما أيام الخميس والأحد فقط (ماعدا بعض أيام الخميس حين يعاقب جاك، أي يحتجز، وكان عليه (كما تشير إلى ذلك بطاقة من المراقبة العامة يوقعها من أمه بعد أن يكون قد لخصها لها بكلمة عقاب) أن يمضي ساعتين، من الثامنة إلى العاشرة صباحاً (وقد تصل إلى أربع ساعات في العقوبات الجسيمة)، في الثانوية، وهو يؤدي في قاعة خاصة، وسط مذنبين آخرين، تحت مراقبة ناظر حانق عامة لاستنفاره في ذاك اليوم، عملاً كتابياً مملاً، وأيضاً عقيماً. أما بيير، فلم يعرف، طوال ثمانية أعوام من المدرسة الثانوية، الاحتجاز مطلقاً. ولكن جاك، الكثير الحركة، والعظيم الغرور أيضاً، كان يدعي الغباء حباً بالظهور فكان بهذا التصرف يجمع عقوبات الاحتجاز. وطالما شرح عبثاً للجدة أن العقوبات تتعلق بالسلوك، إلاّ أنها لم تكن تستطيع أن تفرق بين الغباء والسلوك السيئ. فالتلميذ النجيب، في نظرها، كان حتماً فاضلاً وعاقلاً؛ وكذلك فإن الفضيلة تؤدي مباشرة إلى العلم. وهكذا فإن عقوبات أيام الخميس كانت تُثقل، في السنوات الأولى خاصة، بتأديبات الأربعاء).

كانت أيام الخميس التي بلا عقاب وأيام الآحاد، صباحاً، قد خصصت لقضاء الحاجات ولأعمال المترل، ثم، بعد الظهر، كان بيير وجان [1] يستطيعان أن يخرجا معاً. ففي فصل الصيف، كان هناك شاطئ **SABLETTES** ، أو حقل العمليات، وهو أرض فسيحة بور كانت تحتوي على ملعب كرة قدم قد حدد بشكل بدائي، وعلى مسارات كثيرة للاعبي الكرة. كان يمكن اللعب بكرة القدم، أكثر الأحيان بكرة من القماش، وفرق من الأولاد، العرب والفرنسيين، كانت تتشكل عفوياً. أما بقية السنة، فلقد كان الولدان يذهبان إلى دار مقعدي القبة **'KOUBA'**[أ] –، حيث كانت والدة بيير، بعد أن تركت وظيفتها في البريد، تعمل في البياضات كرئيسة للعاملات. كانت القبة

---

[1] المعني هنا جاك.

[أ] هل هذا اسمها ؟

اسم هضبة، تقع في شمال مدينة الجزائر، في نهاية إحدى خطوط الترام (*) -. والحق أن المدينة كانت تنتهي هناك، ويبدأ ريف الساحل العذب بتلاله المتناغمة، ومياه غزيرة نسبياً، ومروج تكاد تكون خصبة، وحقول بتراب أحمر شهي، وقد قطعت عن بعد بحواجز من أشجار السرو أو القصب. كان هناك كروم، وأشجار مثمرة، وكذلك كانت الدرة تنمو غزيرة ودون عناية كبيرة. وعلاوة على ذلك، كان الهواء عليلاً، ويعتبر ناجعاً لمن يأتي من المدينة ومن أحيائها المنخفضة الرطبة والحارة. أما بالنسبة إلى سكان مدينة الجزائر الذين ماإن يحصلون على شيء من المال أو بعض الموارد، حتى يهربوا من صيف الجزائر إلى فرنسا ذات المناخ الأكثر اعتدالاً. يكفي أن يكون الهواء الذي يستنشق في مكان ما أكثر طراوة قليلاً حتى يطلقوا عليه اسم "هواء فرنسا". كان الأمر كذلك في القبة، حيث يستنشقون هواء فرنسا. كانت تقع دار المقعدين التي أسست بعد الحرب بقليل لمشوهي الحرب المتقاعدين، على بعد خمس دقائق من نهاية خط الترام. كان هذا المبنى ديراً قديماً، فسيحاً، ذا هندسة معمارية معقدة ومتفرعة إلى أجنحة كثيرة، بجدران سميكة جداً مبيضة بالكلس، وأروقة مغطاة، وقاعات كبيرة مقببة باردة حيث أقيمت طاولات الطعام والخدمات. كانت غرفة البياضات التي تديرها السيدة مرلون، والدة بيير، تقع في إحدى هذه القاعات الفسيحة. كانت تستقبل فيها الولدين، وسط رائحة المكاوي الحارة والغسيل الرطب، وبين عاملتين، الواحدة عربية، والأخرى فرنسية، تشتغلان تحت إدارتها. كانت تعطي لكل من الولدين قطعة خبز وشوكولا، ثم، وقد شمرت كميها عن ذراعين جميلتين غضتين وقويتين، كانت تقول لهما: " ضعا هذا في جيبيكما للساعة الرابعة، واذهبا إلى الحديقة، عندي عمل ".

كان الولدان يتجولان تحت الأروقة ثم في الباحات الداخلية، ويأكلان فوراً وجبتهما الخفيفة ليتخلصا من الخبز المربك ومن الشوكولا التي تذوب بين أصابعهما. كانا يلتقيان مقعدين، ينقصهم ذراع أو ساق، أو أجلسوا في عربات صغيرة ذات عجلات دراجة. لم يكن هناك مشوهو حرب أو عميان، وإنما مبتورون فقط، وقد لبسوا ثياباً نظيفة، وحملوا في أغلب الأحيان أوسمة، وكانت أكمام القميص أو السترة، أو ساق البنطال، قد رفعت بعناية وأسندت بدبوس معقوف حول جدعة مخيفة، لم يكن هذا المنظر قبيحاً، وكانوا كثيرين. كان الولدان يعتبرانهم، وقد اختفت مفاجأة اليوم الأول، كما ينظران إلى كل مايكتشفان من جديد، ويدرجانه فوراً في نظام العالم. كانت السيدة مرلون قد شرحت لهما أن هؤلاء الرجال قد فقدوا ذراعاً أو ساقاً في الحرب، وأن الحرب بالتالي تشكل جزءاً من عالمهم، والكل لايتحدثون إلاّ عنها. ولقد أثرت في أشياء كثيرة

(*) الحريقة.

حولهم حتى إنهم يفهمون بسهولة أن الإنسان يستطيع أن يفقد فيها ذراعاً أو ساقاً، وبإمكـانهم أن يعرّفوها بدقة بأنها مرحلة من مراحل الحياة تُفقد فيها الأذرع والسوق. لذلك لم يكن عالم العـرج هذا حزيناً البتة لهذه الولدين. كان بعضهم صامتاً كئيباً، وهذا صحيح، ولكن معظمـهم كـانوا شباناً، مبتسمين، ساخرين حتى من عاهاتهم. كان أحدهم، أشقر ذو وجه شديد التربيع، يفيـض حياة، وغالباً ما كان يحوم في جناح البياض، ويقول للولدين: " ليس لي إلاّ ساق واحدة، ولكن قد تتلقى رفسة من رجلي على ردفيك". ثم كان ينتصب وقد استند بيده اليمنى على عصاه، وبيـده اليسرى على درابزين الرواق، مرسلاً قدمه الوحيدة في اتجاههما. كان الولدان يضحكان معـه، ثم يهربان مهرولين. كان يبدو لهما أنه من الطبيعي أن يكونا الوحيدين اللذين يستطيعان الركـض أو استعمال ذراعيهما. وقد خطر لجاك مرة واحدة، حين التوت قدمه وهو يلعب بكرة القدم واضطر خلال عدة أيام أن يجر قدمه، أن مقعدي يوم الخميس في حالة عجزه، طـوال حيـاتهم، وعـدم استطاعته الركض وركب القطار وهو يسير، والضرب في الكرة. وإن ما يكمن كقدرة خارقـة في الآلية البشرية قد صعقه فجأة، وفي الوقت ذاته، اعتراه قلق أعمى لفكرة أنه يمكن أن يصبح هـو أيضاً مقعداً، ثم نسي الأمر.

كانا* يحاذيان قاعات الطعام ذا ت الشبابيك نصف المغلقة، حيث كانت الطاولات الكبيرة، وقد غطيت تماماً بالتوتياء تلمع في الظل لمعاناً خفيفاً. ثم يحاذيان المطابخ ذات الأوعية الضخمـة، والقدور والطناجر، وكانت تتسرب من المطابخ رائحة فضلات راسخة. وفي الجناح الأخير، كانـا يلمحان الغرف ذا ت السريرين أو الأسرة الثلاثة وقد جللت بأغطية رمادية، وخزانات حائط مـن الخشب الأبيض. ثم كانا ينزلان عن طريق السلم الخارجي إلى الحديقة.

كانت دار المقعدين محاطة بحديقة كبيرة تكاد تكون مهجورة بكاملها. لقـد قـام بعـض المقعدين بالعناية بأجمات من أشجار الورد وأحواض زهور، حول الدار، وكان هناك بستان فاكهة صغير، وقد أحيط بحواجز كبيرة من القصب اليابس. إلاّ أن الحديقة الواقعة أبعد من ذلك، والـتي كانت في الماضي رائعة، صارت الآن مَواتاً. كان فيها أشجار الأوكاليبتوس الضخمة، وأشـجار النخيل الملكية، وأشجار جوز الهند، والمطاط [1] - ذوات الجذوع الضخمة والتي تمتـد أغصانهـا المنخفضة أبعد منها فترسخ في الأرض هكذا نفقاً نباتياً مليئاً بالظل والسر، كان هناك أشجار سرو

---

* الولـدان.

[1] الأشجار الأخرى الضخمة.

كثيفة ومتينة، وكذلك أشجار برتقال قوية، وحزم غار عالية بشكل مائل، وردية وبيضاء، تغطي الممرات الممحية حيث أكل التراب الحصى، كما تآكلت هذه الممرات بركام الفل العطر، والياسمين، والياسمين البري، وزهر الآلام، وزهر العسل على شكل أدغال قد اكتسحتها هي ذاتها في جذرها سجادة كثيفة من النفل، والحميض والأعشاب البرية. فالتنزه في هذا الدغل المعطر، والزحف فيه، والغوص والاختباء حتى الأنف على مستوى العشب، وتمهيد الممرات المتشابكة بالسكين، والخروج منها وقد تخدشت ساقاهما وامتلأ وجهاهما بالماء، كل هذا كان ذا نشوة لاتوصف.

إلاّ أن إعداد سموم قاتلة كان يشغل كذلك حيزاً كبيراً من بعد الظهر. كان الولدان قد كدسا، تحت مقعد حجري عتيق مسند إلى شقة جدار ومغطى بكرمة برية، مجموعة من أنابيب الأسبرين، وزجاجات أدوية أو محابر قديمة، وكسرات أواني وكؤوس مثلمة، كل هذا كان يشكل مخبرهما. هناك، وقد اختفيا في قسم الحديقة الأكثر كثافة، بمنأى عن الأنظار، كانا يعدان مشاريب الحب السحرية. كان أساسها الغار الوردي، لمجرد أنهما سمعا يُردد حولهما غالباً أن ظله ذو تأثير شرير وأن الطائش من ينام عند سفحه فلا يستيقظ مطلقاً. كانت أوراق الغار وزهره، إذ يأتي الربيع، تطحن طويلاً بين حجرين إلى أن تصبح عصيدة رديئة (فاسدة)، كان مظهرها وحده يوحي بميتة شنيعة. كانت تترك هذه العصيدة في الهواء الطلق، حيث تصيبها فوراً بعض التلوثات المرعبة بشكل خاص. أثناء هذا الوقت، كان يركض أحد الولدين ليملأ زجاجة قديمة ماءً. كانت صنوبرات السرو تسحق بدورها. كان الولدان على يقين من ضررها للسبب المشكوك فيه وهو أن السرو شجر المقابر. إلاّ أن الثمار كانت تقطف من على الشجرة، وليس من على الأرض حيث كان الجفاف يعطيها مظهراً رديئاً ينم عن صحة يابسة وقاسية أ -. كانت تُخلط العصيدتان حينئذٍ في قدح عتيق وتُمدد بالماء، ثم تُصفى بواسطة منديل قذر. كان العصير الذي حصلا عليه ذو الاخضرار المرعب، يُعالج حينئذٍ من الولدين بكل الاحتياطات التي تؤخذ بالنسبة إلى سم زعاف. ثم يصفف في أنابيب الأسبرين أو في قارورات صيدلانية كانا يغلفانها بسدادة وهما يتجنبان مس السائل. أما مابقي، فلقد كان يمزج بعصائد مختلفة، من كل الثمار العنبية التي يستطيعان قطافها، كي يصنعا مجموعات من السموم تزداد تعقيداً، وقد رقمت بعناية وصُفت تحت المقعد الحجري حتى الأسبوع التالي، كي يجعل التخمر هذه الأكاسير مميتة قطعاً. وحين يتم هذا العمل المشبوه، كان جاك وبيير يتأملان بنشوة واندهاش مجموعة القارورات المرعبة ويشمان بمتعة الرائحة المرة

---

[1] إعادة الترتيب الزمني.

والحامضة التي تنبعث من الحجر الملطخ بالعصيدة الخضراء. وفي الحقيقة، لم تكن هذه السموم معدة لأحد ما. كان الكيميائيان يقدران كمية الناس الذين يستطيعان قتلهم بها، وكان يدفعهما تفاؤلهما أحياناً إلى أن يفترضا أنهما قد صنعا كمية تكفي لإخلاء المدينة. إلاّ أنهما لم يفكرا البتة أن هذه العقاقير السحرية تستطيع أن تخلصهما من رفيق أو أستاذ يكرهانه. ذلك لأنهما لايكرهان أحداً، وهذا ماسيزعجهما في سن الرشد، وفي المجتمع الذي سيعيشان فيه حينذاك.

ولكن أعظم الأيام كانت أيام الرياح. كان أحد جوانب الدار المطلة على الحديقة تنتهي بما كان، – فيما مضى –، سطحاً، وكان درابزينه الحجري يرقد في العشب عند قدم قاعدة ضخمة من الإسمنت يغطيها البلاط الأحمر. فمن على السطح المفتوح من جهاته الثلاث، كانا يهيمنان على الحديقة، وعلى ماوراء الحديقة، حيث أحد الوديان يفصل هضبة القبة عن نجد من نجاد الساحل. كان اتجاه السطح بحيث أنه، في الأيام التي تهب فيها ريح الشرق العاصفة دوماً، في مدينة الجزائر، تصل هذه الريح عرضاً إليه لتصبيه مباشرة. وكان الولدان، في تلك الأيام، يركضان نحو أولى أشجار النخيل، وقد رقدت في سفحها سعف النخيل اليابسة. كانا يقشطان قاعدتها ليترعا الأشواك ولكي يستطيعا كذلك أن يمسكاها بيديهما. ثم وقد جرَّا السعف خلفهما، ينطلقان ركضاً نحو السطح؛ كانت الريح تعصف بغضب، وهي تصفر في أشجار الأكاليبتوس الشاهقة التي راحت أعلى أغصانها تهتز بجنون، وكانت الريح تفرق أشجار النخيل، وتجعد بخشخشة أوراق أشجار المطاط العريضة اللماعة، فيضطران إلى تسلق السطح، وإلى شد سعف النخل ثم الوقوف وظهراهما إلى الريح. كان الولدان يأخذان حينئذٍ سعف النخل الجافة والتي تصر، بكلتا يديهما، ويحميانها جزئياً بجسميهما، ثم يستديران بغتة. وفجأة، تلتصق السعفة بهما، فيستنشقان رائحتها المؤلفة من التراب والقش. وكانت لعبتهما تقوم حينئذٍ على التقدم في الاتجاه المعاكس للريح وهما يرفعان السعفة من علٍ إلى أعلى. والمنتصر هو الذي يستطيع أن يصل إلى آخر السطح دون أن تقتلع الريح السعفة من يده، وأن يبقى واقفاً وقد انتصبت السعفة، على طرف ذراعيه، واستند جسمه بكامله على ساق متقدمة، وأن يناضل بقوة وبأطول زمن ممكن ضد قوة الريح العاصفة. هناك، وقد انتصب فوق هذه الحديقة، وفوق هذه الهضبة التي تزخر بالأشجار، تحت السماء التي تقطعها غيوم ضخمة، بأقصى سرعة. كان جاك يشعر بالريح آتية من أقاصي البلد تنحدر على طول السعفة وعلى طول ذراعيه لتملأه قوة وابتهاجاً تجعلانه يطلق بلا انقطاع صرخات طويلة إلى أن يشعر بذراعيه وبكتفيه قد نُشرت من الجهد، فيترك. في النهاية السعفة التي تحملها العاصفة مع صراخه، دفعة واحدة. وفي المساء، وقد استلقى، يهده التعب، في صمت الغرفة حيث تنام أمه نوماً خفيفاً،

كان يسمع باستمرار في داخله صراخ الريح وصخبها وثورتها، تلك الريح التي سيحبها طوال حياته.

كان يوم الخميس [أ] - أيضاً اليوم الذي يذهب جاك وبيير فيه إلى مكتبة البلدية. كان جاك منذ صغره يلتهم الكتب التي تقع في يده ويبتلعها بالنهم عينه الذي يحب به الحياة، واللعب أو الحلم. إلاّ أن القراءة كانت تتيح له الهرب إلى عالم بريء حيث الثراء والفقر يتساويان في الأهمية، لأنهما كانا خياليين تماماً. فرواية الباسل، والمجلدات الضخمة للمجلات المصورة التي كان هو ورفاقه يتبادلونها فيما بينهم، إلى أن يصبح الغلاف المصنوع من الورق المقوى رمادياً مقشوراً، والصفحات الداخلية مثنية وممزقة، قد حملته أولاً إلى عالم مضحك أو بطولي يروي في أعماقه ظمأين أساسيين، ظمأ المرح والشجاعة. فحب البطولة والعظمة كان، ولا شك، حاداً جداً لدى الصبيين. إذا ماحكم المرء من خلال استهلاكهما الهائل لروايات المبارزة والفروسية، ومن السهولة التي كانا يدخلان فيها في حياتهما اليومية أبطال رواية PARDAILLAN . في الواقع كان مؤلفهما المفضل ميشيل زيفاكو، وكذلك عصر النهضة، الإيطالية خاصة، المصبوغة بالخنجر والسم، وسط القصور الرومانية والفلورنسية، والأبهة الملكية أو البابوية، كانت المملكة المفضلة لهذين الأرستقراطيين اللذين كانا يُريان أحياناً في الشارع الأصفر والمليء بالغبار حيث كان يسكن بيير، يتراشقان تحديات للمبارزة وهما يترعان من غمدهما مساطر طويلة لماعة من [ ] [1] ، يتقاتلان وسط صناديق القمامة بمبارزات عنيفة، كانت أصابعهما بالتالي تحمل آثارها أ - طويلاً. لم يكن بامكانهما العثور على كتب أخرى، لسبب واحد هو أن قليلاً من الناس كانوا يقرؤون في هذا الحي، ولم يكن باستطاعتهما أن يشتريا، من وقت إلى آخر، إلا كتباً شعبية مبعثرة في دكان بائع الكتب.

ولكن، في الوقت الذي صادف دخولهما إلى الثانوية تقريباً، أنشئ في الحي مكتبة البلدية، في منتصف الطريق من الشارع الذي يسكن فيه جاك والمرتفعات حيث تبدأ الأحياء الأكثر تأنقاً المؤلفة من فيلات تحيط بها حدائق صغيرة، ملأى بالنباتات العطرة التي تنمو قوية على المنحدرات

[أ] إبعادهما عن بيئتهما.

[1] كلمة غير مقروءة .

[أ] كانا يتقاتلان في الحقيقة على من سيكون دارتانيان أو باسبوال. لم يكن أحد يرغب في أن يكون آراميس، وربما آتوس وبورتوس إذا اقتضى الأمر.

الرطبة والحارة في مدينة الجزائر. كانت هذه الفيلات تحيط بالحديقة الواسعة للمدرسة الداخلية لسانت - أوديل، وهي مدرسة داخلية لراهبات لايستقبلن إلاّ الإناث.

ففي هذا الحي، القريب والبعيد عن حيهما، عرف جاك وبيير أعمق انفعالاتهما (لم يحن الوقت للتحدث عنها، وسيتحدث عنها، إلخ.). كانت الحدود بين العالمين (الواحد مغبر وبلا أشجار، حيث خصص المكان بأكمله إلى السكان وإلى الحجارة التي تحويهم، والآخر حيث الأزهار والأشجار تحمل ترف هذا العالم الحقيقي) يمثلها شارع عريض نوعاً ما، زرع على رصيفيه أشجار دلب رائعة. وبالفعل فلقد امتدت الفيلات على طول أحد طرفيه وكان على الطرف الآخر نباتات صغيرة رخيصة الثمن. أقيمت مكتبة البلدية في هذا المجمع.

كانت تفتح أبوابها ثلاث مرات أسبوعياً، وبين هذه المرات الخميس، مساءً بعد ساعات العمل، ويوم الخميس طوال الفترة الصباحية. كانت معلمة شابة دميمة الشكل، وقد تبرعت بعدة ساعات من وقتها إلى هذه المكتبة، تجلس وراء طاولة عريضة من الخشب الأبيض وتقوم بإعارة الكتب.

كانت الغرفة مربعة، وقد غطيت الجدران كلها برفوف من الخشب الأبيض، وبكتب مجلدة بالقماش الأسود. كان هنالك أيضاً طاولة صغيرة وحولها عدة كراسي للذين يرغبون في أن يراجعوا سريعاً أحد القواميس، ذلك لأن هذه المكتبة كانت للإعارة فقط، وكان هناك جذاذية بأسماء الكتب وفق الأبجدية، لم يكن جاك ولا بيير يرجعان إليها مطلقاً. فلقد قامت طريقتهما على التجول أمام الرفوف، وعلى اختيار كتاب حسب عنوانه، ونادراً وفق مؤلفه، وعلى تسجيل الرقم ثم نقله على بطاقة زرقاء يطلب بواسطتها الكتاب. وللحصول على حق الإعارة، كان يلزم إحضار وصل إيجار فقط ودفع مبلغ ضئيل جداً. فيعطى الشخص حينئذٍ بطاقة ذات طيات تسجل فيها الكتب المعارة، كما تكتب المعلمة الشابة في الوقت نفسه اسم الكتاب في سجل المكتبة.

كانت المكتبة تحتوي في معظمها على روايات، ولكن كتباً كثيرة كانت محظرة على من هم دون الخامسة عشرة، وقد صفت جانباً. فطريقة الولدين الحدسية البحتة لم تكن تحسن الاختيار بين ماتبقى. ولكن الصدفة ليست سيئة في الأمور التي تتعلق بالثقافة، إذ راح النهمان يفترسان معاً، وبشكل فوضوي، الجيد والرديء، دون أن يهتما أصلاً بحفظ شيء ما، وبالفعل لم يحفظا شيئاً تقريباً اللهم إلا انفعالاً غريباً وعنيفاً سيطر عليهما، خلال أسابيع، وأشهر، وسنين، فخلق في داخلهما عالماً من الصور والذكريات راح ينمو، ولم يكن هذا العالم يتلاءم مع الواقع الذي يعيشانه

يومياً، إلا أنه لم يكن أقل حضوراً بالنسبة إلى هذين الولدين المتحمسين اللذين كانا يعيشان أحلامهما بعنف يوازي عنف حياتهما [أ] - [ب] -.

في الحقيقة لم يكن ماتحويه هذه الكتب مهماً، فالمهم كان مايشعران به أولاً حين يدخلان إلى المكتبة، حيث لايريان الجدران المغطاة بالكتب السوداء ولكن فسحة من الآفاق المتعددة التي، ماإن يخطوا فيها أول خطوة حتى تخطفهما من حياة الحي الضيقة. ثم لاتكاد تأتي اللحظة التي يتزود كل واحد منها بكتابين، لهما الحق في استعارتهما، وقد ضماهما بقوة بمرفقيهما على جنبيهما، حتى كانا ينسابان في الشارع العريض المعتم في تلك الساعة، وهما يسحقان بقدميهما كتل السعف الضخمة ويقدران المتع التي سوف يجنيانها من كتابيهما، وهما يقارنانهما بكتابي الأسبوع الفائت، إلى أن يصلا إلى الشارع الرئيسي، فيبدأا بفتحهما تحت النور الخافت لأول فانوس ليلتقطا منهما بعض جمل (مثلاً: " كان ذا بسالة غير مألوفة ") قد تثبتهما في أملهما الفرح والنهم. كانا يفترقان بسرعة ويركضان نحو غرفة الطعام ليبسط كل واحد الكتاب فوق القماش المشمع، تحت نور مصباح الغاز. كانت رائحة صمغ قوية تصعد من التجليد غير المتقن الذي كان ينحت في الوقت ذاته الأصابع.

إن الطريقة التي طبع فيها الكتاب كانت تنبئ القارئ بالمتعة التي سيجنيها من قراءته. لم يكن ب. وج. يحبان المؤلفات الكبيرة ذات الهوامش الواسعة، حيث يُسرمنها المؤلفون المصطفون والقراء الانتقائيون، ولكنهما كانا يحبان الصفحات الملأى بالأحرف الصغيرة المصفوفة على طول السطر، المتراصة بشكل ضيق، وقد طعمت بالكلمات والجمل، شأنها شأن الوجبات الريفية حيث يمكن الأكل كثيراً وطويلاً دون أن تنفد، والتي تستطيع وحدها أن تشبع شهيات عظيمة. لم يكونا بحاجة إلى الحذلقة والانتقاء، لم يكونا مطلعين على شيء، وكانا يريدان أن يعرفا كل شيء. لايهمهما إن كان الكتاب ركيك الأسلوب أو غير متناسق التأليف، كان يهمهما أن يكون مكتوباً بأسلوب واضح مليء بالحياة العنيفة الصاخبة؛ كانت تلك الكتب، وهي وحدها، تعطيهما مادة أحلامهما التي يستطيعان أن يناما عليها نوماً ثقيلاً.

وبالمقابل، كان لكل كتاب رائحة خاصة حسب الورق الذي طبع فيه، وهي رائحة مرهفة، خفية، في كل حالة، ولكنها فريدة جداً لدرجة كان ج. يستطيع أن يميز وهو مغمض العينين كتاباً

[أ] - صفحات من قاموس QUILLET ، رائحة اللوحات.

[ب] - ياآنسة، هل جاك لندن كاتب جيد؟

من مجموعة نلسون للمطبوعات الرائجة التي كانت تنشرها دارفاسكيل للنشر. وكانت كل رائحة من هذه الروائح، حتى قبل البدء بالقراءة، تخطف جاك إلى عالم آخر مليء بالوعود [المنفذة] التي كانت قد بدأت تعتم الغرفة التي جلس فيها جاك، وأن تحذف الحي ذاته، بضوضائه، والمدينة والعالم بأسره الذي سيختفي تماماً ماإن تبدأ القراءة بنهم جنوني، متحمس، وتنتهي بأن تلقي بالولد في نشوة تامة لاتفلح حتى الأوامر المكررة أن تخرجه منها [أ] -. "جاك، أعد المائدة، للمرة الثالثة". كان يعد أخيراً المائدة، ونظرته زائغة وباهتة، تائهة إلى حد ما، كمدمن على القراءة، كان يأخذ ثانية كتابه كما لو لم يتركه البتة. " ياجاك، كل " كان يأكل طعاماً بالرغم من كثافته، يبدو له أقل واقعية وأقل صلابة من الطعام الذي يجده في الكتب، ثم يخلي الطاولة ويعود إلى الكتاب. كانت أمه تقترب أحياناً قبل أن تذهب لتجلس في زاويتها وهي تقول له: " إنها المكتبة". لم تكن تحسن لفظ هذه الكلمة التي سمعتها من فم ابنها والتي لم تكن تعني شيئاً بالنسبة إليها، ولكنها كانت تتعرف على جلد الكتب [ب] -. كان جاك يجيب: " أجل" دون أن يرفع رأسه، فتنحني كاترين كورمري على كتفه. كانت تنظر إلى المستطيل المزدوج تحت النور، وإلى صف الأسطر المنتظمة، وتستنشق هي أيضاً الرائحة، وكانت تمرر أحياناً على الصفحة أصابعها المتخدرة والمتجعدة من ماء الغسيل كما لو كانت تحاول أن تعرف بشكل أفضل ماالكتاب، وأن تحاذي بشكل أقرب هذه الإشارات الغريبة، غير المفهومة منها، ولكن حيث كان ابنها يجد غالباً وطوال ساعات، حياة تجهلها، ثم يعود منها بهذه النظرة التي يلقيها عليها كما لو كانت امرأة غريبة. كانت اليد المشوهة تداعب بلطف رأس الصبي الذي لايستجيب، فتتنهد، ثم تذهب لتجلس، بعيداً عنه. كانت الجدة تردد الأمر قائلة: " جاك، اذهب للنوم، غداً ستتأخر". فينهض جاك، ويعد محفظة كتبه لدروس اليوم التالي، دون أن يترك كتابه الذي وضعه تحت ابطه، ثم، كسكران، يغط في نوم عميق، بعد أن دس الكتاب تحت وسادته.

هكذا، طوال سنوات، تجزأت حياة جاك إلى حياتين غير متساويتين، ولم يكن باستطاعته أن يصل الواحدة بالأخرى. طوال اثنتي عشرة ساعة، على صوت الطبل، في مجتمع أولاد ومعلمين، بين الألعاب والدراسة. وخلال ساعتين أو ثلاث من حياة النهار في بيت الحي القديم، بالقرب من أمه التي لم يكن يدركها حقاً إلاّ في نوم الفقراء. وإن كانت حياته الأكثر قدماً تكمن في الواقع، في هذا الحي، أما حياته الحاضرة وكذلك مستقبله خاصة، فلقد كانت في الثانوية. حتى إن الحي،

[أ] التوسع.

[ب] كان الخال أرنست قد أعد له عند النجار مكتباً صغيراً من الخشب الأبيض.

بشكل ما، كان يختلط على التمادي بالمساء، وبالنوم وبالحلم. هل وجد هذا الحي فعلاً، ألم يكن ذات مساء قد تحول بالنسبة إلى الولد الذي صار غير واع، إلى تلك الصحراء؟ السقوط على الإسمنت... على كل حال، لم يكن يستطيع أن يُحدث أحداً في الثانوية عن أمه وعن أسرته. و لم يكن يستطيع أن يحدث أحداً من أسرته عن الثانوية. وطوال كل السنوات التي فصلته عن البكالوريا لم يزره أحد قط من رفاقه أو من مدرسيه. أما بالنسبة إلى أمه وجدته، فلم تأتيا مطلقاً إلى الثانوية، ماعدا مرة واحدة في السنة، في حفلة توزيع الجوائز، في مطلع تموز. في ذاك اليوم، والحق يقال، كانتا تدخلان إلى الثانوية من الباب الكبير، وسط جمهور الأهالي والطلاب المتأنقين. كانت الجدة تلبس الثوب الأسود والمنديل الأسود الخاصين بالمناسبات الكبيرة. وكانت كاترين كورمري تضع قبعة مزينة بالشف البني، وتلبس حذائيها الوحيدين ذوي الكعبين العاليين قليلاً. كان جاك يلبس قميصاً أبيض ذا ياقة عالية وكمين قصيرين، وبنطالاً قصيراً في السنين الأولى، ثم صار طويلاً، إلا أنه كان دائماً مكوياً بعناية في العشية، من قبل أمه، كان يسير وسط المرأتين ويقودهما نحو الترام الأحمر، حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، ويجلسهما على مقعد القاطرة الصغير، وينتظر، وهو واقف في المقدمة، ناظراً من خلال الزجاج إلى أمه التي تبتسم له من حين إلى آخر، والتي تتأكد طوال المسافة من استقرار القبعة أو من سقوط جوربيها، أو من مكان قلادة الذهب التي تمثل السيدة العذراء التي تحملها في طرف سلسلة صغيرة دقيقة. في ساحة الحكومة، تبدأ المسافة اليومية التي يقطعها الولد، مرة واحدة في السنة مع المرأتين، على امتداد شارع باب - عزون. كان جاك يشم من أمه عطر [لامبيرو] الذي تعطرت به بسخاء لهذه المناسبة، كانت الجدة تسير منتصبة ومزهوة، تؤنب ابنتها حين تشكو الأخيرة من قدميها (" سيعلمك هذا أن تأخذي حذاء صغيراً جداً في سنك")، بينما كان جاك يريهما بلا كلل المخازن والباعة الذين أخذوا حيزاً كبيراً من حياته. في الثانوية، كان باب الشرف مفتوحاً، وكانت نباتات في أصص تزين من الأعلى حتى أسفل الطرفين الدرج الفخم الذي شرع أول الواصلين من الأهالي والطلاب في صعوده، كان آل كورمري قد وصلوا مبكرين جداً طبعاً، شأنهم شأن الفقراء دائماً ذوي الالتزامات الاجتماعية القليلة والمتع الضئيلة، والذين يخشون ألا يصلوا في الوقت المحدد [1] -. كانوا يصلون حينئذٍ إلى باحة الكبار، وقد غطيت بصفوف الكراسي التي استؤجرت من مقاولين للحفلات الراقصة والموسيقية، بينما في آخر الباحة، تحت الساعة الكبيرة، كانت منصة تسد الباحة على العرض بأكمله، وقد

---

[1] وكذلك الذين نكبهم القدر، فهم لايستطيعون أن يتمالكوا عن الشعور في بعض من ذاتهم بأنهم مسؤولون - ويحسون أنهم ملزمون ألا يضيفوا تقصيرات صغيرة إلى هذا الشعور العام بالذنب.

غطيت بالأرائك والكراسي، وزينت هي الأخرى، وبسخاء، بالنباتات الخضراء. كانت الباحة تمتلئ رويداً رويداً بالملابس الزاهية، بما أن معظم الموجودين من النساء. كان القادمون الأوائل يختارون أماكنهم في ظل الشمس، تحت الأشجار، وكان الآخرون يروحون بمراوح عربية، من القش الدقيق المضفور، وقد زين طرفه بشرابات من الصوف الأحمر. كانت زرقة الشمس، فوق الحضور، قد تخثرت وازدادت قساوهما شيئاً فشيئاً تحت القيظ المحرق.

في الساعة الثانية، كانت فرقة موسيقية عسكرية في الرواق العالي تعزف بحماسة LA MARSEILLAISE [1] ، فيقف الحضور بأجمعه، ويدخل الأساتذة بقبعاقم المربعة ورداءاقم الطويلة والتي يتغير لون قماشها الرقيق وفق اختصاصهم، يرأسهم المدير والشخصية الرسمية (عادة موظف كبير من الحكومة العامة) التي سخرت لحفلة هذه السنة. ثم كانت الموسيقى تغطي من جديد جلوس المعلمين عازفة لحن سير حربي، ثم تلقي الشخصية الرسمية خطاباً، وتعطي وجهة نظرها عن فرنسا عامة وعن التعليم خاصة. كانت كاترين كورمري تصغي دون أن تسمع، ولكن دون أن تظهر مطلقاً نفاد صبر أو ضجراً. كانت الجدة تسمع، ولكن دون ان تفهم شيئاً. كانت تقول لابنتها التي كانت تؤيدها بمظهر مقتنع: " إنه يحسن الكلام ". وكان ذلك يشجع الجدة على النظر إلى جارها أو جارتها على اليسار، وعلى الابتسام لهما، مؤكدة بهز رأسها الحكم الذي عبرت عنه تواً. لاحظ جاك، في السنة الأولى، أن جدته كانت الوحيدة التي تلبس منديل الإسبانيات المسنات الأسود، فتضايق من ذلك. والحقيقة أن هذا الخجل الزائف لم يفارقه قط؛ فاكتفى بأن قرر أنه عاجز عن القيام بأي شيء بعد أن حاول متلعثماً التحدث عن القبعة إلى جدته والتي أجابته بأنه ليس لديها مال تضيعه وأن المنديل يدفئ أذنيها. ولكن، حين كانت جدته تتحدث إلى جيرانها أثناء حفلة الجوائز، كان يشعر بخجل مخز. فبعد الشخصية الرسمية، ينهض أصغر الأساتذة، الذي وصل عامة تلك السنة من العاصمة والذي عهد إليه تقليدياً بالقاء خطاب فخم. كان الخطاب يستغرق من نصف ساعة إلى ساعة، ولم يكن الجامعي الشاب يتوانى مطلقاً عن أن ينمقه بتلميحات ثقافية وإنسانية بليغة تجعله غير مفهوم البتة من هذا الجمهور الجزائري. أخذ الانتباه يخف، وقد ساعد القيظ على ذلك، وراحت المراوح تهتز بسرعة أكبر. حتى الجدة، قد عبرت عن ضجرها بنظرها إلى مكان آخر. كانت كاترين كورمري وحدها، المنتبهة دون أن ترف عيناها إلى وابل المعرفة والحكم الذي كان يسقط عليها بلا انقطاع. أما جاك فلقد كان يخبط الأرض بقدميه، ويبحث بنظره عن بيير وعن بقية الرفاق، وينبههم بإشارات خفية ويبدأ معهم محادثة طويلة من تكشيرات في الوجه

---

[1] النشيد الوطني الفرنسي (المترجمة).

والحركات، كانت تصفيقات مدعومة تشكر أخيراً الخطيب الذي تفضل باختتام كلمته، ويبدأ النداء على الناجحين. كانوا يبدؤون بالصفوف العليا، وفي السنوات الأولى، كان يمضي بعد الظهر كله والمرأتان جالستان على كرسيهما تنتظران أن يصلوا إلى صف جاك. كانت جوائز الامتياز وحدها تحييها الفرقة الموسيقية غير المرئية. كان الناجحون، الصغار، فالأصغر، ينهضون، ويقطعون الباحة، ثم يصعدون إلى المنصة، ويستقبلون الأيدي المصافحة المرشوشة بعبارات طيبة من الشخصية الكريمة، ثم من المدير، الذي يسلمهم رزمة كتب (بعد أن تلقاها هو من حاجب صعد قبل الفائز من أسفل المنصة)، حيث وضعت صناديق متنقلة ملأى بالكتب. وبعد ذلك، ينزل الفائز ترافقه الموسيقى وسط التصفيق، وقد حمل كتبه تحت ذراعه، مبتهجاً يبحث بنظره عن أهله السعداء الذين كانوا يمسحون دموعهم. ثم تصبح السماء أقل زرقة، وتفقد شيئاً من حرارتها عن طريق فتحة غيرمرئية في مكان ما فوق البحر. كان الفائزون يصعدون وينزلون، ومعزوفات الفرقة تتتابع، والباحة تفرغ شيئاً فشيئاً، وحين بدأت السماء الآن بالاخضرار، وصلوا إلى صف جاك. فما إن يلفظ اسم صفه، حتى يكف عن شقاواته ويصبح جدياً. وحين يلفظ اسمه، كان ينهض، ورأسه يطن. يكاد لايسمع، ووراءه أمه التي لم تكن قد سمعت، تقول لجدته: " هل قال كورمري؟ فتجيب الجدة وقد احمرت انفعالاً: – أجل". كان الطريق المطلي بالاسمنت الذي يقطعه، ثم المنصة، وصدرية الشخصية الرسمية مع سلسلة ساعتها، فابتسامة المدير الطيبة، وأحياناً النظرة الودية من أحد أساتذته وقد ضاعت وسط جمهور المنصة، ثم العودة مرافقاً بالموسيقى نحو المرأتين وقد وقفتا في الممر، وأمه تنظر إليه بنوع من الفرح الحائر، فكان يعطيها مجموعة الجوائز لتمسكها، وجدته تنظر إلى جيرانها كأنها تشهدهم على تفوقه. كان كل شيء يحدث بسرعة كبرى بعد فترة بعد الظهر المفرطة في الطول، وكان جاك حينئذٍ يتلهف على العودة إلى البيت وعلى النظر إلى الكتب التي أعطيت له [أ] –.

كانوا يرجعون عادة مع بيير وأمه [ب] –، وكانت الجدة تقارن بصمت ارتفاع كدستي الكتب. في البيت، كان جاك يأخذ أولاً قائمة الفائزين، ويعمل، بناء على طلب جدته، ثنيات في الصفحات التي كانت تحوي اسمه، كي تستطيع أن تريها للجيران والأقرباء. ثم كان يقوم بجرد

[أ] رواية عمال البحر (لفيكتور هيغو : المترجمة).

[ب] لم تكن قد رأت الثانوية ولا أي شيء من حياته اليومية. لقد حضرت تمثيلية نظمت للأهل، لم تكن الثانوية هذه الحفلة فقط ولكنها كانت......

كنوزه. لم يكن قد انتهى حتى يرى أمه تعود وقد خلعت ثيابها، ولبست خفيها، وهي تزر قميصها الكتاني وتسحب كرسيها نحو النافذة. كانت تبتسم له قائلة: " لقد اشتغلت جيداً" وكان تهز رأسها وهي تنظر إليه. كان ينظر هو أيضاً إليها، ينتظر، لايعرف ماذا، ثم تستدير نحو الشلوع، في الوضعية المألوفة لديها، بعيداً عن الثانوية الآن، التي لن تراها البتة قبل عام، بينما راح الظلام يخيم على الغرفة، وأضيئت المصابيح الأولى في أعلى الشارع*، و لم يعد يسير فيه إلا متنزهون بلا ملامح.

ولكن إذا كانت الأم قد تركت حينذاك نهائياً هذه الثانوية ماإن لمحتها، فإن جاك كان يعود ثانية بلا انتقال إلى الأسرة والحي الذي لن يخرج منه مطلقاً.

كانت العطل تعيد جاك أيضاً إلى أسرته، على الأقل في السنوات الأولى، لم يكن أحد في بيتهم يأخذ اجازة، كان الرجال يشتغلون بلا هوادة، طوال السنة. كانت إصابة العمل وحدها، حين كانوا موظفين في مؤسسات قد أمنت عليهم ضد هذا النوع من الأخطار، تعطيهم استراحة، وكانت إجازاتهم تُعطى عن طريق المستشفى أو من الطبيب. فالخال أرنست مثلاً، في فترة شعر فيها بأنه مرهق، وضع نفسه، كما يقول " في التأمين " ثم قشط متعمداً بالمنجر قطعة لحم سميكة من راحة يده. أما بالنسبة إلى النساء، وإلى كاترين كورمري، فلقد كن يعملن بلا توقف، ذلك أن الراحة تعني إليهم جميعاً طعاماً خفيفاً. وكانت البطالة، التي لم يكن أي تأمين عليها، الأذى الأكثر خطورة. وهذا مايفسر كيف أن هؤلاء العمال، في بيت بيير وكذلك في بيت جاك، الذين كانوا في الحياة اليومية أكثر الناس تسامحاً، كانوا دائماً يعادون الأجانب في قضايا العمل، ويتهمون بشكل متتابع الإيطاليين، والإسبانيين، واليهود، والعرب وأخيراً الأرض قاطبة، بسرقة عملهم - وهذا موقف محرج طبعاً بالنسبة إلى المثقفين الذين ينادون بنظرية الطبقة العاملة، إلاّ أنها إنسانية جداً ولها تبريرها الكبير. لم تكن السيطرة على العالم أو امتيازات المال والمتع ماكان يزاحم هؤلاء الوطنيون غير المتوقعين فيها بقية الجنسيات، ولكنهم كانوا يطالبون بامتياز العبودية. لم يكن العمل في هذا الحي فضيلة، ولكنه ضرورة، ولكي تُحيي، تؤدي إلى الموت.

وفي كل الأحوال، ومهما كان صيف الجزائر قاسياً، حين كانت البواخر المحملة تنقل الموظفين وكذلك الميسورين من الناس كي يتجددوا في " هواء فرنسا " العليل (وكان العائدون من فرنسا يأتون بوصف أسطوري لايصدق لمراع خصبة تجري فيها المياه وسط شهر آب)، كانت الأحياء الفقيرة لاتغير حصراً شيئاً في حياتها، وكانت أبعد من أن يخلو نصفها كما في احياء وسط

* الأرصفة .

المدينة، كانت على العكس تبدو وقد زاد سكانها، وذلك لأن الأولاد يتدفقون بأعداد كبـــيرة في الشوارع [أ] -.

كانت العطلة الصيفية تعني، قبل كل شيء بالنسبة إلى بيير وجاك، الحرارة، وهما يـهيمان في الشوارع الجافة، وقد لبس كل واحد خفين مثقوبين، وبنطالاً قصيراً رثاً، وقميصاً قطنياً صغـيراً ذا قبة مستديرة. كانت الأمطار الأخيرة تعود إلى نيسان أو إلى أيار في أقصى حد. فخلال الأســابيع والأشهر، كانت الشمس وقد ازدادت ثباتاً، وحرارة قد جففت الجدران ثم يبستها فحمصتـــها، وكذلك سحقت الطلاء، والأحجار والقرميد وحولتها إلى غبار دقيق، وفق اتجاه الريح، وقد غطى الشوارع وواجهات المخازن وأوراق الأشجار كافة. فأصبح الحي بأكمله حينذاك، في شهر تموز، أشبه بنفق فضي وأصفر [أ] -، مقفراً في النهار. وأغلقت شبابيك البيوت كلها بإحكام، وهيمنت الشمس على الحي بشكل وحشي، طارحة الكلاب والقطط على عتبات المنازل، مجبرة الأحياء على السير بمحاذاة الجدران ليبقوا بعيدا عن متناولها. كانت الشمس تختفي، في شهر آب، وراء مشـــاقة ثقيلة من سماء جعلتها الحرارة رمادية اللون، ثقيلة، رطبة ينحدر منها نور منبـــث، ضـــارب إلى البياض، ومتعب للعيون، كان يطفئ في الشوارع آخر آثار الألوان. كانت المطرقات، في معـــامل البراميل، ترن بتراخ أكبر، والعمال يتوقفون أحياناً ليضعوا رؤوسهم وجذوعهم المغطاة بالعرق تحت نافورة ماء المضخة البارد [ب] -. أما في الشقق، فلقد كانت زجاجات الماء، وزجاجـــات الخمـــر النادرة، تلف بقماشٍ مبلل. كانت جدة جاك تطوف داخل الغرف المعتمة عارية القدمين، وقـــد لبست قميصاً خفيفاً، وراحت تحرك مروحتها القشية بشكل آلي، وهي تعمل صباحاً، وتجر جـــاك إلى السرير للقيلولة، وتنتظر بعد ذلك أول طراوة المساء لتعود إلى العمل. طوال أســـابيع، كـــان الصيف واتباعه يزحفون هكذا تحت السماء الثقيلة، والمحرقة، إلى أن تُنسى حتى ذكرى الـــبرودة ومياه الشتاء كأن العالم لم يعرف مطلقاً الريح، والثلج، والأمطار، وكأن هذا العالم منذ الخليقة حتى ذاك اليوم من أيلول، لم يكن إلا هذا الجماد الضخم الجاف المحفور من أروقة ملتهبة حيث يتحـــرك ببطء أشخاص تائهون قليلاً، ذوو نظرة جامدة وقد غطاهم الغبار والعرق. ثم، كانت السماء وقـــد تقلصت على بعضها إلى أقصى التوتر، تنشق فجأة إلى قسمين. فتغمر المدينة مطرة أيلـــول الأولى،

[أ] في الأعلى الألعاب مدينة الملاهي الهدايا المفيدة.

[أ] - الوحشي.

[ب] - ساحل السابليت؟ ومشاغل أخرى في الصيف.

العنيفة والسخية. راحت كل شوارع الحي تلمع، كما أخذت تلمع أوراق أشجار التين البراقـــة، والخطوط الكهربائية وسكك الترام. كانت تصل رائحة تراب مبلل آتية من الحقول البعيدة، مـــن فوق الهضاب التي تطل على المدينة، تحمل إلى سجناء الصيف رسالة الفضاء والحريـــة. فينطلـــق الأولاد إلى الشارع يركضون تحت المطر بثيابهم الخفيفة، ويخوضون سعيدين في سواقي الشـــارع الضخمة، الهائجة، وقد انتصبوا على شكل حلقة في البركات الضخمة، وهم يمسكون بعضهم مـــن أكتافهم، وقد امتلأت وجوههم بالصراخ والضحكات، وهم ينقلبون نحو المطر المستمر، ضـــاربين بإيقاع أقدامهم القطاف الجديد لينبثق منه ماء قذر أكثر ثمالة من الخمرة.

أجل، كان القيظ فظيعاً، وغالباً ماكان يجعل معظم الناس مجانين، يزداد توترهم يوماً بعد يوم وقد فقدوا القوة والنشاط على العمل، يصرخون ويشتمون أو يضربون، فيتجمع توترهـــم كمـــا الحرارة ذاتها، إلى أن تنفجر ثورة أعصابهم، في هذا الحي الوحشي والحزين، من هنا وهناك- كمـــا حدث ذاك اليوم، في شارع ليون الواقع على حد قريب من الحي العربي الذي كـــانوا يســـمونه MARABOUT [1] ، حول المقبرة المنحوتة في غضار الهضبة الأحمر، رأى جاك عربياً يخرج من حانوت الحلاق المغربي المغير، وقد لبس ثياباً زرقاء، رأسه محلوق، يسير عدة خطوات على الرصيف أمـــام الولد، في مظهر غريب، وقد انحنى جسمه إلى الأمام، ورأسه إلى الوراء بشكل أكثر ممـــا يمكـــن، وبالفعل كانت وضعية الرأس مستحيلة. ذلك أن الحلاق وقد أصابه الجنون وهو يحلق له، قطـــع بضربة واحدة من موسى الحلاقة الطويلة عنقه المقدم، ولم يشعر هذا الرجل بشيء بسبب المشـــرط الحاد، إلا بالدماء التي راحت تخنقه، فخرج، بينما راح الحلاق وقد أمسكه الزبائن فوراً، يصـــرخ بعنف- مثل الحرارة نفسها طوال هذه الأيام التي لاتنتهي.

كان الماء المنهمر سيولاً من السماء، يغسل حينئذٍ بعنف الأشجار والســـطوح، والجـــدران والشوارع من غبار الصيف. كان المطر وقد صار وحلاً يملأ بسرعة السواقي، يبقبق بشراســـة في أفواه المجاري ويشق المجاري ذاتها كل سنة تقريباً فيغطي الطرقات ويتدفق أمام السيارات والـــترام كأنه أصبح جناحين أصفرين خُطا بشكل عميق.

كان البحر نفسه قد صار موحلاً حينئذٍ على الشاطئ وفي المرفأ. كانت أول أشـــعة شمـــس تجعل بالتالي المنازل والشوارع والمدينة بأكملها تدخن. وقد تعود الحرارة، ولكنها لم تعد تســـيطر، كانت السماء أكثر عرياً، والتنفس أوسع، وخلف كثافة الشموس، كان ثمة خفقان هواء، فـــهو

[1] تعني هذه الكلمة بالعربية المزار (المترجمـــة).

إنذار بالمطر يبشر بالخريف وببدء السنة الدراسية [أ] -. كانت الجدة تردد: " إن الصيف طويـــل جداً " وتستقبل بالارتياح ذاته مطر الخريف ورحيل جاك، الذي كان وطء أقدامه الضجر طـوال الأيام الملتهبة، في الغرف ذي الشبابيك المغلقة، يزيد من توترها.

لم تكن تفهم أصلاً أن فترة من السنة قد خصصت كي لايعمل أحد فيها شـيئاً. كـانت تقول: "لم أنل قط في حياتي أية إجازة". وكان هذا صحيحاً، لم تعـرف مطلقـاً المدرسـة ولا التسلية، لقد اشتغلت منذ طفولتها، واشتغلت بلا توقف. لقد قبلت، مقابل ربح أكبر، ألا يجلـب حفيدها، طوال سنوات، مالاً إلى البيت. ولكنها، منذ اليوم الأول، شرعت تفكر في هذه الأشـهر الثلاثة الضائعة، وحين دخل جاك في الصف الثالث، قدرت أن الوقت قد حان لإيجاد عمل لـه في العطلة الصيفية. قالت له في نهاية العام الدراسي: " ستعمل هذا الصيف، وتأتي بقليل من المـال إلى البيت. لايمكنك أن تبقى هكذا بدون عمل" [أ] -. في الواقع، كان جاك يجد أن عليه مهام كثيرة من سباحة، ورحلات إلى القبة، ورياضة، وتجولاً في شوارع بلكور، وقراءات الكتب المصـورة، والروايات الشعبية، وتقويم فيرموت، وفهرس مصور لصناعة الأسلحة في سان - أتيين لاينضب [ب] -. دون أن يُحصي التسوق للبيت والأعمال الصغيرة التي كانت تأمره بها جدته. كل ذلك كـان يعني بدقة للجدة اللاعمل، بما أن الولد لايجلب مالاً ولا يدرس كما يدرس خلال العام الدراسـي. وكان هذا الوضع المجاني يلمع بنيران الجحيم كلها في نظرها فكان أبسط الأمور إذن أن تجد لــه عملاً.

في الحقيقة لم يكن الأمر بهذه السهولة. كان هناك طبعاً في الاعلانات الصحفية الصغـيرة، عروض عمل لكتاب صغار أو لسعاة. وكانت السيدة بيرتو، بائعة الألبان ذات الدكان التي تعبـق منها رائحة السمن (المستغربة لمن اعتاد منخراه وفمه على الزيت) بالقرب من دكـان الحـلاق، وكانت تقرأ هذه الإعلانات للجدة. ولكن أصحاب العمل كانوا يطلبون دائمـاً مرشـحين في الخامسة عشرة من العمر على الأقل، وكان من الصعب الكذب بدون وقاحة بخصوص عمر جـاك الذي لم يكن طويل القامة لسنيه الثلاث عشرة. ومن جهة أخرى كان أصحاب الإعلانات يحلمون دائماً بموظفين ينجحون في المهنة ويبقون لديهم. كان أوائل المعلنين الذين قدمت إليهم جاك (وقـد

[أ] في الثانوية بطاقة الاشتراك الإجراء كل شهر نشوة الإجابة: " مشترك " والتحقق المنتصر.

[أ] تدخل الأم سوف يُرهق.

[ب] هل القراءات قبل؟ الأحياء المرتفعة .

لبست أحسن ثيابها، كما كانت تفعل في المناسبات الكبرى، بما في ذلك المنديل المشهور) قد وجدوه صغيراً جداً أو رفضوا صراحة أن يقبلوه لشهرين. قالت الجدة: لم يبقَ لنا إلاَّ أن نقول: إنك ستبقى في العمل. - ولكن هذا غير صحيح- هذا لايهم. سيصدقونك". لم يكن ذلك ماكان يريد جاك فعله، وفي الحقيقة، لم يكن يهتم بأن يعرف إن كانوا سيصدقونه أم لا. ولكن بدا له أن هذا النوع من الكذب سيتوقف في حلقه. وبالطبع، فلقد كذب غالباً في بيته، كي يتجنب عقاباً، كي يحتفظ بقطعة نقدية من فئة الفرنكين، وأغلب من ذلك، لمتعة الكلام أو التبجح والادعاء. ولكن إذا كان الكذب على أسرته قد بدا له خطيئة عرضية فلقد كان مع الغرباء خطيئة مميتة. شعر، بشكل غامض، أن الإنسان لايكذب في الأمور الأساسية مع الذين يحبهم، لسبب وحيد هو أنه لن يستطيع العيش معهم بعد ذلك أو حبهم. لم يكن أصحاب العمل يستطيعون أن يعرفوا عنه إلاَّ ماكان يقال لهم، إذن لن يعرفوه البتة، وسوف يكون الكذب في هذه الحالة كاملاً. قالت الجدة وهي تربط منديلها: " هيا، فلنذهب" في ذاك اليوم حين أشارت إليها السيدة بيرتو أن مصنعاً كبيراً للخرداوات في منطقة الآغا يطلبون فيه مستخدماً صغيراً للتصنيف. كان يقع مصنع الخرداوات في أحد المطالع الذي يصعد نحو أحياء وسط المدينة، كانت شمس منتصف تموز تشوي المصنع وتثير روائح البول والزفت التي تنبعث من الطريق. كان في الطابق الأرضي مخزن ضيق ولكنه عميق جداً، وقد قسم طولانياً قسمين بواسطة منضدة مغطاة بنماذج من قطع الحديد والمزالج، وكان الجزء الأكبر من الجدران قد غطي بدروج تحمل لافتات صغيرة عجيبة. على يمين المدخل، كان يعلو المنضدة شبك من الحديد المسبوك حيث أعدت كوة للصندوق. دعت السيدة الحالمة والزابلة التي تجلس وراء الشبك الجدة إلى الصعود إلى المكاتب، في الطابق الأول، كان سلم خشبي، في آخر المخزن، يؤدي فعلاً إلى مكتب كبير مجهز أقيم في اتجاه المخزن، وقد جلس إليه خمسة موظفين أو ستة، من رجال ونساء، حول طاولة كبيرة في الوسط. وثمة باب على أحد الجوانب يؤدي إلى مكتب الإدارة.

كان المدير يلبس قميصاً رُفع كماه إلى الأعلى وفتحت قبته، في مكتبه الحار جداً [1] -. كانت نافذة صغيرة خلفه، تطل على باحة لاتصل إليها الشمس، بالرغم من الساعة الثانية بعد الظهر. كان قصير القامة بديناً، ويمسك سبابتيه اللتين مررهما داخل حمالات ذات لون أزرق سماوي، وكان متقطع الأنفاس. لم يكن يُميز جيداً الوجه حيث خرج صوت خشن لاهث يدعو الجدة إلى الجلوس، استنشق جاك رائحة الحديد المهيمنة في كل مكان من هذه الدار. بدا جمود رب العمل له

[1] قميص الياقة، ياقة يمكن نزعها.

منبعثاً من الحذر، وشعر بساقيه ترتجفان لفكرة الكذب الذي يجب قوله أمام هذا الرجـل القـادر والمخيف. أما الجدة، فلم تكن ترتجف. سيبلغ جاك قريباً الخامسة عشرة، وعليه أن يجـد مكانـة محترمة، وأن يبدأ بدون تأخير. في نظر المدير، لايعطي جاك الخمس عشر سنة، ولكن إذا كـان ذا ذكاء... وعلى فكرة، هل حصل على الشهادة الابتدائية؟ كلا، لديه منحة. أية منحة؟ للدراسة في الثانوية. إنه إذن في الثانوية؟ في أي صف؟ في الصف الثالث. وهل يترك الثانوية؟ كان رب العمل أكثر جموداً، وظهر وجهه بشكل أفضل الآن، كانت عيناه المستديرتان واللتان بلون الحليب تنتقلان من الجدة إلى الولد. راح جاك يرتجف، تحت هذه النظرة. قالت الجدة: " أجل، إننا فقراء جداً " .

انفرجت أسارير المدير بشكل غير ملحوظ وقال" من المؤسف أن يـترك الدراسـة، لأنـه موهوب. ولكن يستطيع المرء أن يكوِّن مكانة مرموقة في التجارة أيضاً ". إن العمل المحترم يبـدأ بشكل متواضع، وهذا صحيح. سيكسب جاك ١٥٠ فرنكاً شهرياً مقابل ثماني ساعات دوام يومياً. يمكنه أن يبدأ غداً. قالت الجدة: " أترى، لقد صدَّقنا. - ولكن حين سأترك، كيف أفسر لـه؟ - دعني أتصرف- حسناً"، أجاب الولد مستسلماً. كان ينظر إلى سماء الصيف فوق رأسيهما ويفكر في رائحة الحديد، وفي المكتب المليء بالظلال، وأن عليه أن ينهض باكراً غداً وأن العطلة الصيفية ماإن بدأت حتى انتهت.

طوال سنتين، اشتغل جاك أثناء الصيف. أولاً في معمل الخرداوات، ثم عند وسيط بحـري. كان يرى، كل مرة، بخشية وصول ١٥ ايلول، وهو التاريخ الذي عليه أن يترك فيه العمل[1] .

وفعلاً، انتهت هاتان السنتان، وإن كان الصيف هو ذاته كما كان سابقاً، بقيظه، وسـأمه. ولكنه فقد مايُجَمِّله، أي سماءه، وفسحاته، وصخبه. لم يعد جاك يمضي أوقات النـهار في حـي البؤس الوحشي، ولكن في حي وسط المدينة، حيث كان الاسمنت الغني يحل مكان ملاط الفقر وهو يصبغ على البيوت لوناً رمادياً أكثر تميزاً وأشد حزناً. فمنذ الساعة الثامنة، في الوقت الذي كـان يدخل جاك فيه إلى المخزن الذي يعبق برائحة الحديد والظل، ينطفئ نور في داخله، فالسماء قـد اختفت. كان يلقي التحية على أمينة الصندوق ويتسلق السلم إلى المكتب الكبير المعتم في الطـابق الأول. لم يكن مكان له حول طاولة وسط الغرفة. جلس إليها المحاسب العجـوز، ذو الشـاربين المصفرين من السكائر الملفوفة يدوياً التي كان يمصها طوال النهار، وكذلك جلس مساعد المحاسب، وهو رجل في الثلاثين من العمر، شبه أصلع، يذكر صدره ووجهه بمصارعي الثيران، كان هنـاك

[1] مقطع أحيط بخط من المؤلف.

مستخدمان أصغر منه، أحدهما نحيل، أسمر، مفتول العضلات، وذو ملامح جميلة ومتناسقة وكان يصل دائماً وقمصانه مبللة وملتصقة، ناشراً رائحة البحر الطيبة لأنه يستحم في المرفأ، كل صباح، قبل أن يدفن نفسه في المكتب طوال النهار، أما المستخدم الآخر، فلقد كان ضخماً وضحوكاً ولا يستطيع أن يضبط حيويته المرحة، وأخيراً السيدة راسلان، سكرتيرة الإدارة التي تذكر بالخيول قليلاً، ولكنها جميلة المنظر في أثوابها الكتانية المتنوعة والتي كانت كلها وردية اللون، إلاّ أنها كانت تلقي على العالم بأسره نظرة قاسية. كان كل هؤلاء يُغطون الطاولة بملفاتهم، ودفاتر حساباتهم وآلاتهم. كان جاك يجلس إذن على كرسي وضع على يمين باب المدير، ينتظر أن يعطوه عملاً، وفي الغالب، يقتصر على تصنيف الفواتير أو على وضع البريد التجاري في خزانة البطاقات التي تحيط بالنافذة، وكان يحب في البداية أن يخرج الأضابير ذات الشريط الذي يشد، وأن يحركها ويتنشقها، إلى أن أصبحت رائحة الورق واللصاق، اللذيذة في البداية،رائحة الضجر بعينه، أو كان يُطلب منه أن يتأكد مرة أخرى من عملية جمع طويلة، وكان يقوم بها على ركبتيه، وهو جالس على كرسيه، أو يدعوه كذلك محاسب المساعد "للمقارنة" سلسلة أرقام معه، وكان يطابق باجتهاد ودقة، وهو واقف، الأرقام التي يعددها الآخر بصوت كئيب مخنوق، كي لايزعج زملاءه. ومن النافذة، يُرى الشارع والبنايات المقابلة، ولكن السماء لم تكن ترى مطلقاً. وأحياناً، وقد يحدث هذا من وقت إلى آخر، كانوا يرسلون جاك ليشتري مواد قرطاسية من المكتبة التي تقع قرب المخزن، أو ليرسل من البريد حوالة مستعجلة. كان البريد الرئيسي يقع على مسافة مئتي متر في شارع عريض يصعد من المرفأ حتى قمة الهضاب، حيث بنيت المدينة. في هذا الشارع يجد جاك ثانية الفضاء والنور. كان البريد ذاته، الواقع داخل بناء مستدير ضخم، تضيئه أبواب ثلاثة كبيرة، وقبة فسيحة ينسلب منها النور[1] . ولكن في معظم الأحيان، ولسوء الحظ، كانوا يطلبون من جاك أن يرسل البريد في نهاية اليوم، وهو يغادر المكتب، وكان هذا العمل عبئاً إضافياً. ذلك أن عليه أن يركض في الساعة التي يبدأ النهار فيها بالشحوب، نحو بريد احتشد فيه جمهور من الزبائن، وأن يقف في الرتل أمام الكوات، ويطوّل الانتظار هكذا وقت العمل. وفعلاً، كان الصيف الطويل يمضي بالنسبة إلى جاك على شكل أيام قاتمة بلا بريق وفي أعمال لامعنى لها.

كانت الجدة تردد :" لايمكن أن يبقى الإنسان بلا عمل". وبالضبط، في هذا المكتب، كان يشعر جاك بأنه لايعمل شيئاً. لم يكن يرفض العمل، وإن كان لاشيء يعوض بالنسبة عن البحر

---

[1] عمليات بريدية ؟

وألعاب القبة. ولكن العمل الحق، بالنسبة إليه، كان في معمل البراميل مثلاً، حيث الجهد العضلي الطويل، وسلسلة حركات ماهرة ودقيقة، وأيدٍ قاسية ورشيقة، وتُشاهد بالتالي نتيجة الجهود: برميل حديد، محسن الصنع، بلا شق، ويستطيع العامل أن يتأمله.

ولكن عمل المكتب هذا، لم يكن ينبع من أي مكان ولا يؤدي إلى شيء. البيع والشراء، كان كل شيء يدور حول هذه الأعمال الوضيعة والتي لاتقدر، وإن كان جاك قد عاش حتى ذاك الوقت في الفقر، إلاّ أنه اكتشف في هذا المكتب الفظاظة والسوقية، وراح يبكي على النور المفقود. لم يكن زملاؤه مسؤولين عن هذا الشعور الخانق.

كانوا لطيفين معه، لايطلبون منه شيئاً بلهجة قاسية، وحتى السيدة راسلان الصارمة، كان تبتسم له أحياناً. كانوا يتحادثون قليلاً، فيما بينهم، بهذا المزيج من المودة المرحة واللامبالاة الخاصة بالجزائريين. وحين يصل رب العمل، بعدهم بربع ساعة، او حين يخرج من مكتبه ليعطي أمراً أو يدقق فاتورة (في الأمور الجسيمة، كان يستدعي المحاسب العجوز، أو الموظف المعني إلى مكتبه)، كانت الطباع تنكشف بشكل أفضل، كما لو كان هذان الرجلان أو هذه المرأة، لايستطيعون أن يحددوا ذاهم إلاّ من خلال العلاقات مع السلطة، شأن المحاسب العجوز الجلف والاستغلالي، والسيدة راسلان التائهة في حلمها القاسي ومساعد المحاسب ذي الخضوع التام على العكس. ولكن، خلال بقية اليوم، كانوا ينطوون على أنفسهم، وجاك ينتظر على كرسيه الأمر الذي يعطيه فرصة التململ الوهمي الذي كانت جدته تسميه العمل [1] -.

وحين يعجز عن التحمل، وهو يغلي غلياناً كاملاً على كرسيه، يترل إلى الباحة خلف المخزن، وينعزل في المراحيض التي على الطريقة التركية، ذات الجدران الاسمنتية، يكاد لاينفذ إليها النور، وحيث تعم رائحة البول المرة.

في هذا المكان المظلم، كان يغمض عينيه، مستنشقاً الرائحة المألوفة، يحلم. ثمة شيء ما غامض، أعمى، على صعيد الدم والجنس، كان يضطرب في داخله، فيتخيل أحياناً ساقي السيدة راسلان ذاك اليوم، وقد أسقط علبة دبابيس أمامها، جلس على ركبتيه ليلمها، وقد رفع رأسه، رأى ركبتيها المتباعدتين تحت تنورتها، وفخذيها في ملابس داخلية من الدانتيل. لم يكن قد رأى حتى ذاك الحين ماتلبس المرأة تحت ثياها الخارجية، وهذه الرؤية المباغتة قد نشفت فمه وملأته

---

[1] الصيف الدروس بعد البكالوريا الرأس الغبي أمامه.

برجفة شبه جنونية. كان سر قد تكشف له، وبالرغم من تجاربه المستمرة فيما بعد، لم ينضب هذا السر مطلقاً.

كان جاك، مرتين يومياً، ظهراً وفي السادسة مساءً، ينطلق إلى الخارج، يهبط الشارع المنحدر، ويقفز في الترامات المزدحمة، وقد زينت بعناقيد من الركاب الواقفين على كل المراقي، والتي كانت تنقل العمال [إلى] أحيائهم. كانوا صامتين وقد التصقوا ببعضهم بعضاً وسط الحرارة الثقيلة، الكبار والولد، وقد اتجهوا إلى البيت الذي كان ينتظرهم، متعرقين بهدوء، خاضعين لهذه الحياة الموزعة بين عمل بلا روح، والذهاب والإياب في ترامات غير مريحة، وفي النهاية نوم فوري. كان قلب جاك ينقبض دائماً وهو ينظر إليهم في بعض الأمسيات. لم يكن قد عرف حتى ذاك الوقت إلا ثروات الفقر وأفراحه. ولكن القيظ، والسأم والتعب كشفوا له عن لعنته، ألا وهي العمل الغبي والممل حتى البكاء، والذي تصل رتابته التي لاتنتهي إلى أن تجعل، في آن واحد، الأيام طويلة جداً والحياة قصيرة جداً.

أما لدى الوسيط البحري، فلقد كان الصيف ألطف لأن المكاتب كانت تطل على شارع (واجهة البحر) وخاصة لأن قسماً من العمل كان يتم في المرفأ. وفعلاً، فلقد كان على جاك أن يصعد على ظهر سفن من كل الجنسيات ترسو في مدينة الجزائر، وكان الوسيط، وهو عجوز جميل، وردي اللون، أجعد الشعر، يمثل هذه السفن في مختلف الإدارات. كان جاك يحمل أوراق السفن إلى المكتب حيث تترجم، وخلال أسبوع، كان عليه أن يترجم قائمات المؤن وبعض وثائق الشحن إذا كانت مكتوبة بالانجليزية ومرسلة إلى سلطات الجمارك أو إلى مؤسسات الاستيراد الكبيرة التي تستلم البضائع. كان على جاك إذن أن يذهب بانتظام إلى مرفأ البضائع في منطقة الآغا ليحضر هذه الأوراق. كانت الحرارة تكتسح الشوارع التي تنحدر إلى المرفأ. وكانت الدرابزين الثقيلة، المصنوعة من الحديد الصب، التي تحاذي هذه الشوارع محرقة، ويستحيل وضع الأيدي عليها. وعلى أرصفة المرفأ الفسيحة كانت الشمس تجعلها خالية، إلا حول السفن التي رست تواً، بمحاذاة الرصيف، وقد تحلق عمال المرفأ حولها بصخب، وكل منهم يلبس بنطالاً أزرق رفع حتى بطة الساق، في حين كانت صدورهم عارية ومسمرة، وغطوا رؤوسهم بكيس ينزل من أكتافهم حتى كلاهم، وكانوا يعبئون عليه أكياس الإسمنت، والفحم أو الحزم الثقيلة التي تقصف الظهر. كانوا يروحون ويجيئون على الجسر الخشبي الضيق الذي ينزل من ظهر السفينة إلى الرصيف، أو يدخلون مباشرة إلى جوف السفينة الشاحنة عن طريق باب العنبر المفتوح على مصراعيه، وهم يسيرون مسرعين على رافدة ألقيت بين العنبر والرصيف. كان جاك من خلال رائحة أشعة الشمس

والغبار الذي يصعد من الأرصفة أو من الأسطحة المحرقة التي، وقد ذاب زفتها، والتهبت حدائدها، يتعرف منها على الرائحة الخاصة لكل شاحنة. فالسفن الآتية من النروج تنبعث منها رائحة الخشب، والقادمة من داكار حيث يجلب البرازيليون معهم عطر القهوة والتوابل، والآتية من ألمانيا تنبعث رائحة الزيت منها، كما كانت تنبعث رائحة الحديد من السفن الإنكليزية. كان جاك يتسلقها على طول الممر الخشبي، ويبرز إلى البحار بطاقة الوسيط والتي لايفهم هذا البحار منها شيئاً. ثم كانوا يقودونه، على طول الممرات، داخل السفينة حيث كان الظل نفسه حاراً، نحو حجرة ضابط وأحياناً القبطان [1]-. كان ينظر بنهم، وهو يمر، إلى هذه القمريات الصغيرة الضيقة والعارية، حيث يتركز فيها ماهو أساسي لحياة الإنسان، وبدأ منذ ذاك الوقت يفضلها على الغرف الأكثر ترفاً. كانوا يستقبلونه بلطف لأنه هو نفسه كان يتسم بلطف، وكان يحب وجوه هؤلاء الرجال القساة ونظراتهم كلهم المنبعثة من حياتهم الانعزالية والتي يظهرونها. كان أحدهم أحياناً يتحدث بالفرنسية قليلاً ويطرح عليه أسئلة. فيعود سعيداً، نحو الرصيف الملتهب والدرابزين المحرقة والعمل والمكتب.إلاّ أن هذه الجولات في القيظ كانت ترهقه فينام نوماً ثقيلاً، وحين يقبل شهر أيلول، يصبح جاك نحيلاً وعصبياً.

كان يرى بارتياح قدوم أيام الثانوية ذات الاثنتي عشرة ساعة، ويكبر الضيق في داخله في الوقت ذاته، لأنه سيعلن للمكتب أنه سيترك عمله. كان أقسى ماحدث في مكتب تاج الخرداوات. لقد كان يفضل بجبن ألا يذهب إلى المكتب، وأن تذهب الجدة لتشرح مايحلو لها. ولكن الجدة وجدت بكل بساطة أن تحذف كل الإجراءات. لم يكن عليه إلاّ أن يأخذ اجره وألا يعود إلى المكتب دون أية تبريرات. كان جاك، وقد وجد من الطبيعي أن يرسل جدته تتلقى صواعق غضب رب العمل، والحقيقة أنها كانت بمعنى ما، مسؤولة عن الوضع، وعن الكذب الذي جره هذا الوضع، إلا أنه يستنكر، دون أن يستطيع أن يفسر لماذا، هذا الهروب؛ ولقد وجد، بالإضافة إلى ذلك، الحجة المقنعة: " ولكن رب العمل سوف يرسل أحداً إلى هنا". قالت الجدة: هذا صحيح، حسناً، ماعليك إلاّ أن تقول له إنك ستشتغل عند خالك. ماإن انطلق جاك والعذاب يعصر قلبه حتى قالت له الجدة: " احرص أن تأخذ أجرتك أولاً، ثم أعلمه بعد ذلك". في المساء، كان رب العمل يدعو كل موظف إلى عرينه ليسمله أجره. قال لجاك وهو يمد له ظرفه "خذ، ياصغيري". مد جاك يداً مترددة حين كان الآخر يبتسم له: " إن الأمور تسير على أحسن مايرام، كما تعرف. بإمكانك أن تبلغ ذلك لأهلك". بدأ جاك يتكلم ويشرح أنه لن يعود البتة. نظر إليه رب العمل

[1] حادث عامل المرفأ ؟ مراجعة الجريدة.

منذهلاً، وقد بقيت ذراعة مبسوطة نحوه: " لماذا ؟ " كان عليه أن يكذب. و لم تكن الكذبة تخرج. بقي جاك صامتاً وقد تملكه الأسى حتى إن رب العمل قد فهم: " هل ستعود إلى الثانوية؟ - أجل" قال جاك وسط خوفه وحزنه وقد أثار ارتياح مفاجئ الدموع في عينيه. نهض رب العمل غاضباً ثائراً " كنت تعرف ذلك حين أتيت إلى هنا. وجدتك كانت هي ايضاً تعرف ذلك". لم يستطع جاك إلاّ أن يقول نعم برأسه. راح الصراخ يملأ الآن الغرفة؛ لقد كانا غير مستقيمين معه، وكان هو، رب العمل، يكره عدم الاستقامة. هل كان يعرف جاك أن بامكان رب العمل الا يدفع له أجره، وسيكون في منتهى الغباء إذا دفع، كلا، لن يدفع له، فلتأت جدته، سيحسن استقبالها، لو قالت له الحقيقة، لربما قبله في المتجر، ولكن هذه الكذبة، آه " لم يعد يستطيع الذهاب إلى الثانوية، إننا في منتهى الفقر". ولقد احتالت عليه، قال جاك فجأة تائهاً: " لهذا السبب. - أي سبب؟ - لأننا فقراء"، ثم سكت، أضاف الآخر ببطء بعد أن نظر إليه: " لهذا كذبتما، ورويتما لي هذه الحكاية؟ " كان جاك صامتاً لاينبس ببنت شفة، وهو ينظر إلى قدميه، وحدث صمت لامتناه. ثم أخذ رب العمل الظرف من على الطاولة ومده إليه قائلاً بخشونة: " خذ مالك، واذهب من هنا". قال جاك: " كلا". دس رب العمل الظرف في جيب جاك:" هيا، إذهب من هنا". في الشارع أخذ جاك يركض، وهو يبكي الآن، وقد تمسكت يداه بياقة سترته كي لايمس المال الذي كان يحرق جيبه.

كان عليه أن يكذب كي يكون له الحق بعدم أخذ إجازة صيفية، وبالعمل بعيداً عن سماء الصيف والبحر الذي يحبه حباً جماً، والكذب كذلك كي يكون له الحق في العودة إلى الدراسة في الثانوية، ولقد جعل هذا الظلم قلبه منقبضاً حتى الموت. ذلك أن أسوأ مافي الأمر لم يكن في هذه الكذبات التي كان عاجزاً في النهاية عن النطق بها، كان دائماً مستعداً للكذب في سبيل المتعة وعاجزاً عن الرضوخ للكذب بدافع الضرورة، وكانت تؤلمه هذه المتع الضائعة، واستراحات فصل النور هذا التي خطفت منه، و لم تعد السنة حينئذٍ إلاّ سلسلة نهوضات مبكرة وأيام كئيبة ومتسارعة. إن الجانب الملكي في حياته الفقيرة، والثروات التي لاتعوض والتي يتمتع بها بسخاء وبنهم، كان عليه أن يضيعها ليربح قليلاً من المال لايكفي لشراء جزء من مليون من هذه الكنوز. ومع ذلك، فلقد أدرك أن عليه أن يقوم بذلك، حتى إن جزءاً منه، في أعماقه، وهو في قمة تمرده، كان مزهواً لأنه قام بعمله. لأن تعزيته الوحيدة عن هذه الصيفيات التي ساير فيها بؤس الكذب، قد وجدها يوم أخذ أول أجر له، حين دخل إلى غرفة الطعام، حيث كانت جدته تقشر البطاطا التي تلقيها بعد ذلك في حوض الماء، وخاله أرنست الجالس ينظف الكلب بريان الصبور من البراغيث، وقد أمسكه بين فخذيه، وأمه التي وصلت تواً وراحت تفك في زاوية الصوان حزمة صغيرة من الملابس القذرة التي أعطيت إليها لتغسلها، تقدم جاك ووضع على الطاولة، دون أن يقول شيئاً، قطعة من

فئة المئة فرنك والقطع النقدية الأخرى التي أمسكها بيده طوال الطريق. دفعت الجدة نحوه، دون أن تقول شيئاً قطعة من فئة العشرين فرنك ولمت الباقي. لمست بيدها كاترين كورمري من جنبها لتلفت انتباهها وأرتها النقود: " إنه ابنك. - قالت: أجل". وداعبت عيناها الحزينتان خلال ثانية الولد. هزَّ الخال رأسه وهو يمسك بريان الذي ظن أن عذابه قد انتهى. وراح يردد قائلاً :" حسناً، حسناً، أنت، رجل".

أجل، كان رجلاً. لقد دفع قليلاً مما كان عليه، وإن مجرد تفكيره أنه ساهم في تخفيف بؤس هذا البيت قليلاً، قد ملأه زهواً يكاد يكون شريراً، هذا الزهو الذي يراود الناس بعد أن يبدؤوا بالشعور بأنهم أحرار لايخضعون لشيء. وبالفعل، حين عاد إلى الثانوية بعد ذلك، ودخل إلى باحة الصف الثاني، لم يعد الولد الضائع الذي، منذ أربع سنوات خلت، قد ترك حي بيلكور في الصباح الباكر، وهو يتأرجح على حذائيه المليئتين بالمسامير، وقد انقبض قلبه لفكرة العالم المجهول الذي كان ينتظره، وكانت النظرة التي يلقيها على رفاقه قد فقدت شيئاً من براءتها. وبالفعل كان ثمة أشياء كثيرة قد بدأت في ذاك الوقت تنتزعه من الطفل الذي كان. وحدث له ذات يوم، هو الذي قبل بصبر حتى ذاك الوقت أن تضربه جدته كما لو كان الضرب يشكل جزءاً من وجائب حياة الولد التي لايمكن تجنبها، انتزع السوط من يدها، وقد جن فجاة عنفاً وغضباً، مصمماً تصميماً تاماً على ضرب هذا الرأس الأبيض ذي العينين الفاتحتين والباردتين اللتين كانتا تخرجانه عن طوره، حتى إن الجدة فهمته، فتراجعت وذهبت تحبس نفسها في غرفتها، وهي تندب حتماً مصيبتها وهي أنها ربت أولاداً عاقين، ولكنها مقتنعة أنها لن تضرب بعد ذلك مطلقاً جاك، وبالفعل، لم تعد تضربه البتة، لأن الطفل قد مات فعلاً في هذا المراهق النحيل والمفتول العضلات، ذي الشعر الأشعث والنظرة المحتدة، الذي كان قد اشتغل طوال الصيف ليجلب أجره إلى البيت، ولقد سمي الآن حارس مرمى فرقة الثانوية، وكان قبل ثلاثة أيام، قد ذاق للمرة الأولى، وقد خارت قواه، فم شابة.

٢- غامض أمام ذاته

آه! نعم، هكذا كانت، حياة هذا الولد كانت هكذا، كانت الحياة على هـــذا النحـــو، في جزيرة الحي الفقيرة، وقد ارتبطت بالعوز المدقع العاري تماماً، وسط أسرة معاقة وجاهلة، بدمـــه الفتي المزمجر، وحب حياة وحشي، وذكاء عنيف لهم، وعلى المدى، هذيان فرح تقطعه ضربـــات توقف مفاجئة يصيبه بها عالم مجهول، ويتركه بعدها مضطرباً قلقاً، ولكنه يسترجع زمـــام أمـــره بسرعة، فيحاول أن يفهم، أن يعرف، وأن يستوعب هذا العالم الذي لايعرفه، ولقد استوعبه فعـلاً لأنه واجهه بنهم، دون أن يحاول الإفلات منه، مفعماً بالإرادة الطيبة، ولكن دون وضاعـــة، و لم ينقصه مطلقاً اليقين الهادئ آخر الأمر، وكذلك الثقة بالنفس، أجل، لأنها كانت تؤكد لـــه أنـــه سيصل إلى كل مايريد، وأن لاشيئاً، مطلقاً، قد يستحيل عليه مما في هذا العالم، وفي هـــذا العـــالم فقط، وهو يعد ذاته (وقد هيأه كذلك عري طفولته) ليجد نفسه في مكانه الملائم في كل مكـــان، لأنه لم يرغب في أي مكان، ولكنه نشد الفرح، والناس الأحرار، والقوة، وكل مافي الحياة مـــن صالح، وسحري ولا يشترى، ولن يشتري البتة. لقد أعد نفسه من شدة الفقر أن يكون قادراً ذات يوم على تلقي المال دون أن يطلبه مطلقاً ودون أن يخضع له، وكما هو الآن، جاك، في الأربعـــين من عمره، وقد سيطر على أشياء كثيرة، إلاّ أنه على يقين من أنه أقل من أكثر المتواضعين، وأنـــه لاشيء، على كل حال، إذا ماقيس بأمه. نعم، لقد عاش على هذا النحو في ألعاب البحر، والريح، والشارع، تحت وطأة الصيف، وأمطار الشتاء القصير الثقيلة، بدون أب، بدون أخلاق نقلت إليه، ولكنه وجد أباً خلال سنة، في الوقت الضروري بالضبط، وتقدم وسط النـــاس والأشـــياء لـــ [ ] [1] ، فالمعرفة التي تكشفت له ليصنع لذاته مايشبه السلوك (الكافي في ذاك الوقت للظـروف التي واجهته، وغير كافية فيما بعد أمام سرطان العالم)، وليخلق لنفسه أخلاقيته الخاصة.

ولكن هل كان هذا كل شيء، هذه الحركات، هذه الألعاب، هذه الجرأة، هذه الحماســـة، الأسرة، مصباح الغاز والسلم المظلم، وسعف النخل في مهب الريح، الولادة والعماد في البحر، وفي

(1) كلمة غير مقروءة .

النهاية هذه الصيفيات المعتمة والمجدة؟ كان كل هذا، آه نعم، على هذا الشكل، ولكن كان هناك القسم المعتم للكائن، ماتحرك بصمت في داخله، طوال كل هذه السنين كمياه عميقة تحت الأرض، من قعر المتاهات الصخرية، لم ترَ مطلقاً نور النهار، ولكنها تعكس بريقاً خفياً، لايعرف أحد من أين جاء هذا البريق، ربما امتصته شعيرات بحرية من مركز الأرض المحمر لتنطلق نحو هواء هذه الأغوار المدفونة الأسود، هناك، لاتزال نباتات دبقة و[مضغوطة] تستمد طعامها لتعيش حيث يستحيل أي شكل من الحياة فيها. وهذه الحركة العشوائية في داخله، التي لم تتوقف مطلقاً، والتي مازال يشعر فيها الآن، ناراً قائمة مدفونة في أعماقه، شأنها شأن نيران الخث هذه، المنطفئة في السطح ولكن اشتعالها يبقى في الداخل، وهي تحرك شقوق الخث الخارجية من أماكنها، وكذلك هذه الدوامات النباتية العنيفة، حتى إن السطح الطيني يقوم بالحركات نفسها التي يحدثها خث المستنقعات، فتولد من هذه التموجات الكثيفة وغير المرئية في داخله، يوماً بعد يوم أعنف رغباته وأفظع شهواته، كما تبعث مخاوفه الأكثر وحشية، وحنينه وأشواقه الغنية، ومتطلباته المفاجئة للتجرد وللتقشف، تطلّعه كذلك أن يكون لاشيء، أجل، هذه الحركة الغامضة، خلال كل هذه السنوات تتفق مع هذا البلد الشاسع حوله والذي، وهو طفل صغير، شعر بوطأته مع البحر الفسيح الممتد أمامه، وخلفه هذا الفضاء اللامتناهي من الجبال، والهضاب والصحراء التي تسمى بالداخل، وبينهما الخطر الدائم الذي لايتحدث أحد عنه، لأنه بدا طبيعياً، إلاّ أن جاك أدرك هذا الخطر، حين كان في المزرعة الصغيرة ذات الغرف المقببة والجدران المطلية بالكلس في منطقة بير ماندريس، كانت الخالة تمر وقت النوم في الغرف لتتأكد من أن المزاليج الضخمة قد أنزلت على الشبابيك الخشبية المصمتة والسميكة، إنه بلد كان يشعر بأنه قد رمي فيه بالضبط، كما لو كان أول الساكنين، وأول الغزاة، وأول من حط الرحال فيه حيث قانون القوة لايزال يسيطر، وحيث أقيمت العدالة لتعاقب بشكل لايرحم مالم تستطع الأخلاق أن تحمي الناس به، وقد التف حوله هذا الشعب الجذاب والمثير للقلق، القريب والمتباعد، والذي يُحاذَى طوال النهار، وتولد الصداقة أحياناً، أو الألفة، وحين يقبل الليل، ينسحب الجميع إلى بيوتهم المجهولة، التي لايدخل أحد إليها مطلقاً، وقد احتبسوا فيها مع نسائهن اللواتي لايراهن أحد البتة، وإذا مارآهن أحد في الشارع، فإنه لايعرف من هن بالحجاب الذي يغطي نصف وجوههن فلا تظهر إلاّ عيونهن الجميلة الشهوانية والعذبة فوق القماش الأبيض. ولقد كانوا كثيرين جداً في هذه الأحياء حيث تمركزوا، كثيرين جداً حتى إنهم بعددهم وحده، وإن كانوا خانعين مرهقين، يوحون بخطر غير مرئي يرف على المدينة، ويشعر الناس به في هواء الشارع في بعض الأمسيات التي تنشب فيها مشاجرة بين فرنسي وعربي، بالطريقة ذاتها التي قد تنشب بين فرنسيين وعرب، ولكن لم يكن لها الوقع ذاته. كان سكان الحي

العرب، وقد لبسوا بزة الوقاد الباهتة، أو جلابية بالية، يقتربون ببطء، آتين من كل الجهات بحركة مستمرة، إلى أن تصبح الكتلة التي التزقت ببعضها بعضاً، رويداً رويداً تقذف من كثافتها، وبلا عنف، من مجرد حركة تجمعها، الفرنسيين القلائل الذين جذبهم رقباء المشاجرة، فيتراجع الفرنسي الذي يتقاتل، وقد وجد نفسه فجأة أمام غريمه، وأمام جمهور من الوجوه القاتمة والمنطوية التي قد تفقده شجاعته لو لم يكن قد ترعرع في هذا البلد وعرف أن الشجاعة وحدها هي التي تسمح بالعيش فيه، فيواجه حينئذٍ هذا الجمهور المتوعد، والذي لايهدد بشيء، اللهم إلا بحضوره وبالحركة التي لايتوانى عن أخذها، وفي أغلب الأحيان، كانوا هم الذين يدعمون العربي الذي كان يقاتل بغضب ونشوة ليُهربوه قبل وصول الشرطة، وقد أعلموا بسرعة، فوصلوا بسرعة إلى مكان المشاجرة، والذين كانوا يقبضونَ بلا جدال على المتقاتلين، والمارين، ويجرونهم تحت نوافذ جاك إلى المخفر. كانت أمه تردد " المساكين" وهي ترى الرجلين وقد أمسك بهما بقوة، ودفعا بكتفيهما، ثم، بعد رحيلهم، كان التهديد، والعنف، والخوف يحوم على الشارع في نظر الولد، فينشف حلقه من قلق مجهول. هذا الظلام في داخله، أجل، هذه الجذور المعتمة والمتشابكة التي تربطه بهذه الأرض الرائعة والمرعبة، بأيامها الملتهبة كما تربطه بأمسياتها السريعة التي ينقبض القلب لها، والتي كانت كأنها حياة أخرى له، أكثر صدقاً ربما، تحت المظاهر اليومية للحياة الأولى والذي صُنع تاريخها ربما من سلسلة رغبات غامضة وأحاسيس عنيفة لايمكن وصفها، من رائحة المدارس، واصطبلات الحي، وآثار الغسيل على يدي أمه، من الياسمين وزهر العسل فوق الأحياء المرتفعة، من صفحات القاموس والكتب الملتهمة، ومن رائحة المراحيض الحامضة في بيته أو في متجر الخرداوات، ومن رائحة قاعات الصف الكبيرة الباردة حيث كان يدخل أحياناً وحده قبل الحصة أو بعدها، ومن حرارة الرفاق المفضلين، ومن رائحة الصوف الحارة والبراز، التي يجرها ديديه معه، أو رائحة ماء الكولونيا الذي تسكبه أم ماركوني عليه بسخاء، والتي كانت تبعث الرغبة في جاك، على مقعد صفه، أن يقترب أكثر من صديقه، ومن عطر أحمر الشفاه الذي سرقه بيير من إحدى خالاته، وراحوا يستنشقونه كثرة، وقد اضطربوا وقلقوا مثل كلاب دخلت إلى بيت مرت فيه أنثى ودقة، وهم يتخيلون أن المرأة هي هذه الكتلة من العطر العذب المصنوع من زهر البرغموت والمرهم، والتي[1] كانت تحمل إليهم، في عالمهم المؤلف من الصراخ الفظ، والتعرق والغبار رؤيا عالم مرهف ورفيع -، وذات إغراء لايمكن التعبير عنه، حتى إن الكلمات البذيئة التي كانوا يطلقونها في الوقت ذاته، عن اصبع الحمرة لم تستطع أن تحميهم، فكان حب الأجساد منذ نعومة أظافره، وجمالها الذي

[1] إضافة إلى القائمة.

يضحكه سعادة وهو على الشواطئ، وكان دفء الأجسام يجذبه بلا هوادة، وبلا أية فكرة محددة، بشكل حيواني، لاليمتلكها، وهذا مالم يكن يعرف القيام به، ولكن الدخول إلى إشعاعها، اسناد كتفه إلى كتف رفيق له، مع شعور عظيم بالتسليم والثقة، والانهيار تقريباً حين تلمس يد امرأة في زحمة الترام ولمدة طويلة قليلاً يده، الرغبة، أجل رغبة الحياة، والاستمرار في الحياة، والامتزاج بأشد مافي الأرض من حرارة، وهذا ماكان، دون أن يدري، ينتظر من أمه، والذي لم يحصل عليه أو لم يجرؤ ربما، في الحصول عليه، والذي كان يجده بالقرب من الكلب بريان حين كان جاك يتمدد بجانبه تحت الشمس ويستنشق رائحة وبره القوية، أو في أقوى الروائح وأشدها حيوانية حيث كانت حرارة الحياة العنيفة قد بقيت لديه، بالرغم من كل شيء فهو لايستطيع العيش بدونها.

في هذا الغموض داخله، ولدت هذه الحمية الجائعة، حب الحياة الجنوني هذا الذي سكنه على الدوام وحتى اليوم، حافظ على وحدة كيانه وقد جعله أكثر حرارة- وسط أسرته التي وجدها ثانية وأمام صور طفولته - هذا الشعور المرعب فجأة وهو أن زمن الشباب قد هرب، شأنه شأن المرأة التي أحبها، آه نعم، لقد أحبها حباً عظيماً بكل قلبه وبجسمه أيضاً، أجل، كانت شهوته لها عارمة مطلقة، وحين كان ينسحب منها بصرخة عظيمة مكتومة في ذروة المتعة، كان العالم يستعيد نظامه المحرق، ولقد أحبها بسبب جمالها وحبها الجنوني للحياة، لهذا الجنون النبيل واليائس الذي كان خاصاً بها والذي جعلها ترفض، ترفض مرور الزمن، وإن كانت تعرف أنه يمضي في هذه اللحظة بالذات، ولا تريد أن يقال يوماً عنها إنها لاتزال شابة، ولكن، كانت تريد أن تبقى شابة على العكس، دائماً شابة، وقد انفجرت باكية، ذات يوم، حين قال لها ممازحاً: إن الشباب يمر وإن الأيام تمضي وتزول. قالت له وسط دموعها " آه كلا، آه كلا، أحب الحب بقدر عظيم" وكانت ذكية ومتفوقة في كثير من المجالات، ربما لأنها كانت ذكية فعلاً ومتفوقة، رفضت العالم كما كان. كما حدث في تلك الأيام، حين كانت تعود من إقامة قصيرة في البلد الغريب حيث ولدت، وتلك الزيارات المأتمية لعمات وخالات يقال لها عنهن:" هذه آخر مرة ترينهن"، وبالفعل، كانت وجوههن، وأجسامهن وحطامهن... وكانت تريد الرحيل وهي تصرخ، أو حفلات العشاء العائلية على غطاء طرزته جدة بعيدة ماتت منذ زمن طويل، والتي لايفكر فيها أحد، ماعداها هي التي تفكر في جدتها البعيدة وفي متعها وحبها للعيش، مثلها، رائعة الجمال في بريق صباها، وكان الجميع يمدحونها على هذه الطاولة التي انبسط حولها على الجدران صور نساء شابات جميلات كن هي اللواتي يمدحنها واللواتي أصبحن هرمات ومتعبات. وحينئذٍ، وقد التهبت دماؤها، أرادت الهرب نحو بلد لايهرم إنسان فيه ولا يموت، حيث يخلد الجمال وتكون الحياة وحشية دائماً

ومتفجرة، و لم يكن لهذا البلد من وجود؛ فكانت تبكي بين ذراعيه حين تعود، وكان حبها حبـــاً يائساً.

وكان هو أيضاً كذلك، وربما أكثر منها، لأنه ولد على أرض بلا أجداد وبلا ذاكرة، وكان فناء الذين سبقوه عليها أكثر كلية أيضاً، حيث لاتجد الشيخوخة أية حماية من الكآبة كما في دول الحضارة [ ] [1] ، كان هو أيضاً كنصل وحيد يهتز دائماً، ولقد قُدر لهذا النصل أن ينكســـــر بضربة واحدة إلى الأبد. كان شغف صرف بالحياة يجابه ميتة كلية، إنه يشعر اليوم بالحياة وبالصبا، وبالناس يفلتون منه، دون أن يستطيع أن ينقذهم بعمل شيء ما، واستسلم للأمل الأعمى وحــده، وهو هذه القوة الغامضة التي حملته طوال سنين كثيرة فوق الأيام، وغذته بلا حســاب، وكــانت دائماً بالقوة نفسها في أقصى الظروف، قد مدته أيضاً، وبالسخاء عينه الذي لايتعـــب، وأعطتــه أسبابه للعيش، ومبرراته للشيخوخة، وللموت بدون تمرد.

---

[1] كلمة غير مقروءة .

مرفقـــات

وريقة رقم (١)

٤) على السفينة. قيلولة مع طفل + حرب الــ ١٤.

*

٥) عند الأم - اعتداء .

*

٦) سفر إلى موندوفي - قيلولة - الاستعمار.

*

٧) عند الأم. تابع الطفولة - لقد استعاد الطفولة و لم يستعد الأب. عرف أنه الرجـل الأول. السيدة ليكا.

*

" كانت وقد قبلته بكل قواها مرتين أو ثلاث مرات، وضمته إلى صدرها بعد أن تركتـــه، نظرت إليه وأخذته ثانية لتقبله مرة أخرى، كما لو أنها، وقد قدرت عبوة الحنان الذي(امتلأت به)، قررت أن ثمة جزءاً لايزال ناقصاً و [1] . ثم، بعد ذلك فوراً، حولت وجهها، وبدت كأنها لم تعـد تفكر فيه، ولا بأي شيء آخر حتى إنها كانت تنظر إليه أحياناً بتعبير غريب كأنه صار الآن غـــير مرغوب فيه، يزعج العالم الفارغ، المغلق، الضيق حيث تتحرك ".

---

[1] تتوقف الجملة هنا.

وريقة رقم (٢)

كتب مستعمر عام ١٨٦٩ إلى محام:

" كي لا تجدي نفعاً علاجات أطباء الجزائر في سكانها، ذلك يثبت أن أهلها ذوو مقاومة حيوية عظيمة لما قاسوا في حياتهم ".

*

قرى أحيطت بخنادق أو بأسوار (وبأبراج صغيرة في زواياها الأربع).

*

من بين ٦٠٠ مستعمر أرسلوا عام ١٨٣١، مات ١٥٠ منهم تحت الخيام، يعود العدد الكبير من اليتامى في الجزائر إلى ذلك.

*

في منطقة بوفاريق، يحرثون الأرض وبنادقهم على أكتافهم والكينا في جيوبهم. " له وجه سكان بوفاريق ". مات ١٩% عام ١٨٣٩. تباع الكينا في المقاهي كمشروب.

*

زوّج القائد بوجو جنوده المستعمرين في مرفأ طولون بعد أن كتب إلى عمدة طولون يطلب منه أن يختار عشرين خطيبة نشيطة، دُعي هذا الزواج " زيجات الطبل ". ولكن حين وصل الجنود اختار كل واحد زوجته بين المنتقاة. من هنا نشأت فوكا.

*

العمل المشترك في البداية. هكذا تشكلت المزارع الجماعية العسكرية.

*

استعمار " اقليمي". استعمرت ٦٦ أسرة من جنائني منطقة غراس منطقة شيراغاس.

*

لم يكن لمحافظات الجزائر، في معظم الأحيان، وثائق وسجلات.

*

كان أهالي ماهون يصلون جماعات صغيرة بحقائبهم وأولادهم. كانت كلمتهم تعادل وثيقة. لا تشغِل أبداً عاملاً إسبانياً لديك. لقد أغنوا الساحل الجزائري وأثروه.

بير مندريس وبيت بيرناردا.

قصة [الطبيب طوناك[أول مستعمر في منطقة ميتيدجا. مراجعة دوبــاندیکورن، كتــاب تاريخ استعمار الجزائر، ص، ٢١.

قصة بيريت، المرجع ذاته، ص. ، ٥٠ و ٥١.

وريقة رقم (٣)

١٠) سان - بريوك(١)

*

١٤) مالان

٢٠) ألعاب الطفولة

٣٠) مدينة الجزائر. الأب وموته (+ الاعتداء)

٤٢) الأسرة

٦٩) السيد جيرمان والمدرسة

٩١) موندوفي - الاستعمار والأب

(١) توافق الأرقام صفحات المخطوطة.

- ٢ -

١٠١) مدرسة ثانوية

١٤٠) غامض تجاه ذاته

١٤٥) المراهق(١)

وريقة رقم (٤)

إنه مهم كذلك موضوع الملهاة. إن ماينقذنا من أسوأ آلامنا، هو هذا الشعور بأن الإنسان قد تخلى عنه الجميع، وهو وحيد، إلاّ أنه ليس وحيداً تماماً وذلك لأن " الآخرين لايعتبروننا" إلاّ في بؤسنا. وفي هذا المعنى، فإن دقائق سعادتنا هي تلك التي يعلونا فيها شعور استسلامنا غروراً ويرفعنا إلى حزن لاحد له، وفي هذا المعنى أيضاً نجد أن السعادة ليست غالباً إلاّ شعوراً رؤوفاً ببؤسنا.

وهو يضرب لدى الفقراء- وضع الله بجانب اليأس التعاطف كالعلاج قرب الداء(أ).

*

كنت أطلب من الآخرين، وأنا شاب، أكثر مما يستطيعون أن يعطوا: صداقة مستمرة، انفعال دائم.

الآن، أعرف أن أطلب منهم أقل مما يستطيعون أن يعطوا: رفقة بلا كلام. أما انفعالاتهم، وصداقتهم، ومبادراتهم النبيلة، فلها في نظري قيمة المعجزة كاملة: أثر تام للنعمة.

ماري فيتون: الطائرة.

---

(١) تنتهي المخطوطة صفحة ١٤٤.

(أ) موت الجسدة .

وريقة رقم (٥)

كان ملك الحياة، وقد توج بمواهب باهرة، برغبات، بقوة، وبفرح، ولقد أتى يعتذر منـــها عن كل ذلك، هي التي كانت أسيرة خاضعة للأيام وللحياة، لم تكن تعرف شيئاً، لم تشتهِ شيئاً و لم تجرؤ أن تشتهي، إلاّ أنها احتفظت بها كاملة، حقيقة كان قد فقدها وهذه الحقيقة وحدها تـــبرر العيش.

أيام الخميس في القبة

التدريب، الرياضة

الخـــال

البكالوريـــا

المـــرض

أيتها الأم، أيتها الرؤوفة، طفل عزيز، أعظم من عصري، أعظم من التاريخ الذي يخضعك له، أكثر صدقاً من كل ما أحببت في هذا العالم، أيتها الأم سامحي ابنك لأنه هرب ظلام حقيقتك.

الجدة، طاغية، ولكنها كانت تقدم الطعام على المائدة وهي واقفة.

الابن الذي يفرض احترام الأم ويضرب على خاله.

الرجل الأول

(ملاحظات ومخططات)

" لاقيمة لشيء مقابل الحياة المتواضعة، الجاهلة، والعنيدة...

" كلوديل، مسرحية المبادلة.

أو كذلك

حديث عن الارهاب.

موضوعياً إنها مسؤولة (متعاضدة)

غيِّر الظرف وإلاَّ ضربتُكَ

ماذا ؟

لا تأخذ عن الغرب مافيه من غباء متناهٍ. لا تقل بعد الآن موضوعياً وإلاّ ضربتُك.

لماذا ؟

هل استلقت أمك أمام القطار الآتي من مدينة الجزائر إلى أوران؟ (الباص الكهربائي).

لا أفهم .

انفجر القطار، قُتِل أربعة أطفال. لم تتحرك أمك. إن كانت موضوعياً مسؤولة * مع ذلك، فأنت تؤيد إذن قتل الرهائن رمياً بالرصاص

لم تكن تعرف.

تلك لم تكن تعرف مطلقاً. كف عن القول بموضوعية.

اعترف أن هناك أبرياء وإلاّ قتلتُك أنت أيضاً.

أنت تعرف أني أستطيع القيام بذلك.

أجل، لقد رأيتك.

*

جان (أ) هو الرجل الأول.

استخدام بيير كدلالة وإعطاؤه ماضياً، وبلداً، وأسرة، وأخلاقاً (؟) - بيير - ديديه ؟

*

قصص حب مراهقين على الشاطئ - والمساء الذي يهبط على البحر - والليالي الملأى بالنجوم.

---

* متعاضدة .

(١) مراجعة تاريخ الاستعمار.

*

لقاء مع العربي في سان - أتبين. وهذه الأخوة بين منفيين في فرنسا.

*

التعبئة. حين دعي أبي إلى خدمة الوطن، لم يكن قد رأى قط فرنسا. رآها وقتـــل. (هـــذا ماأعطته أسرة متواضعة مثل أسرتي إلى فرنسا).

*

محادثة أخيرة مع صدوق حين كان ج. ضد الإرهاب. ولكنه يستقبل ص. فحـــق اللجـــوء مقدس. عند والدته. جرى الحديث بينهما أمام أمه. قال ج. أخيراً وهو يشير إلى أمه: " انظــر" . نهض صدوق، وذهب نحو أمه، ويده على قلبه، كي يقبل أمه وهو ينحني على الطريقة العربية. إلاّ أن ج. لم يكن قد رآه أبداً يقوم بهذه الحركة، لأنه قد تفرنس. قال: " إنها أمي، فوالدتي قد ماتت. أحبها وأحترمها كما لو كانت أمي.

(لقد سقطت بسبب اعتداء. إنها مريضة جداً .)

*

أو كذلك

أجل، إني أبغضكم. إن شرف العالم بالنسبة إلي يحيا لدى المظلومين وليس لدى ذوي النفوذ. وهنا فقط يُدفن العار. حين سيعلم أحد المضطهدين في التاريخ... حينئذٍ...

قال صدوق: إلى اللقاء.

ابقَ، إذا ذهبت فسيلقونْ القبض عليك.

هذا أفضل. هم، أستطيع أن أكرههم، وألتقيهم في الكراهية. أما أنت، فإنك أخي ونحـــن منفصلان.

......

في الليل، كان ج. على الشرفة... سُمع عن بعد طلقتان ناريتان وركض...

- قالت الأم: ماهذا ؟

- لاشيء.

- آه، لقد خفت عليك.

ارتمى عليها...

أوقف بعد ذلك لأنه استضاف.

كانوا يرسلونه إلى الفرن لخبز الطعام الفرنكان في الحفرة

الجدة، سلطتها، نشاطها

كان يسرق النقود

*

معنى الشرف لدى الجزائريين.

*

تعلم العدالة والأخلاق، هو الحكم على خير هوى أو شره من خلال آثاره ونتائجه. يستطيع ج. أن يستسلم للنساء - ولكن إذا أخذن وقته كله...

*

لقد مللت العيش، والعمل، والشعور بأن أُخطّي هذا وأعطي حقاً لذاك. لقد سئمت العيش وفق الصورة التي يعطيها الآخرون لي عني. قررت الاستقلال الذاتي، أنشد الاستقلال في التعلق".

*

هل سيكون بيير الفنان ؟

والد جان سائق عربة ؟

*

بعد عشق ماري تصيب بيير نوبة من نوع الشابة كلامانس. (لاأحب شيئاً...) إنه ج. (أو غرونيه) الذي يرد حينئذٍ على السقوط.

*

مواجهة الأم بالعالم (الطائرة، البلاد النائية ربطها كلها).

بيير محام. ومحامي إيغوتون [1] .

*

" وبما أننا شجعان، فخورون وأقوياء... لو كان عندنا إيمان، إله، لما هزّنا شيء. ولكن لم يكن لدينا شيء، وجب أن نتعلم كل شيء، وأن نعيش للشرف وحده الذي له ضعفه ونقائصه..."

*

يجب أن يكون في الوقت ذاته تاريخ نهاية عالم- تقطعه حسرة سنوات النور هذه...

*

فيليب كولومبيل والمزرعة الكبيرة في تيباسه. الصداقة مع جان. موته بالطائرة فوق المزرعة. وجدت عصا القيادة في جنبه، ووجهه محطم على لوحة القيادة. عصيدة دامية ذُرت بشظايا الزجاج.

*

العنوان: البدو الرحل. يبدأ بتنقل وينتهي بالجلاء عن الأراضي الجزائرية.

*

تمجيدان: المرأة الفقيرة وعالم الوثنية (ذكاء وسعادة).

*

---

[1] مناضل شيوعي كان قد وضع متفجرات في مصنع. أعدم بالمقصلة أثناء حرب الجزائر.

الجميع يحبون بيير. نجاحات ج. وكبرياؤه تسبب له عداوات.

*

مشهد الاعدام بدون محاكمة: أربعة رجال عرب ألقوا في قعر كاسور.

*

أمه هي المسيح.

*

إثارة الحديث عن ج.، إحضاره، وجعل الآخرين يقدمونه ويوصفونه وصفاً متناقضاً يخطونه كلهم عنه.

مثقف، رياضي، ماجن، وحيد، وأفضل الأصدقاء، شرير ذو استقامة كاملة، إلخ، إلخ.

" إنه لايحب أحداً "، " ليس هناك قلب أكرم منه "، " بارد ومتحفظ "، " ودود ومتقد المشاعر"، الكل يرونه نشيطاً ماعداه هو، مستلق دائماً.

جعْل الشخصية تكبر على هذا الشكل.

حين يتكلم هو: " بدأت أؤمن ببراءتي. كنت قيصراً. كنت ملكاً على كل شيء وعلى جميع الناس، الجميع تحت تصرفي (إلخ.) ثم تعلمت أن ليس لدي شجاعة كافية لأحب حقاً وظننت أني سأموت احتقاراً لذاتي. ثم قبلت أن الآخرين، هم أيضاً، لايحبون حقاً ويجب أن أقبل ببساطة أن أكون مثل معظم الناس.

ثم قررت الرفض، وأن علي أن ألوم نفسي وحدي لأني لست كبير النفس وأن أيأس كما يحلو لي منتظراً المناسبة التي تسنح لي لأصبح عظيماً، وبكلمة أخرى، أنتظر اللحظة لأصبح قيصراً وألا أتمتع بذلك.

*

وكذلك أيضاً :

لايمكن العيش مع الحقيقة - " فالعارف" الذي يقوم بذلك يبتعد عن بقية الناس، فلن يستطيع مطلقاً بعد ذلك أن يشاركهم وهمهم. إنه وحش - وهذا ماأنا عليه.

*

مكسيم راستاي: عذاب المستعمر لعام ١٨٤٨. موندوفي-

إدراج قصة موندوفي؟

مثال: ١) القبر العودة و [ ] [١] إلى موندوفي.

١) مكرر: موندوفي عام ١٨٤٨ ← ١٩١٣.

*

جانبه الاسباني تقشف وشهوانية

نشاط وحيوية.

*

ج. : " لايستطيع أحد أن يتخيل الألم الذي عانيت منه... يكرمون الذين قاموا بجلائل الأعمال. ولكن عليهم أن يكرموا أكثر الذين، بالرغم من ظروفهم، عرفوا أن يضبطوا أنفسهم وأن يمتنعوا عن ارتكاب أكبر الآثام. نعم. كرموني".

*

محادثة مع الملازم المظلي :

- إنك تتبجح كثيراً. سنرى، بالقرب من هنا، إن كنت تتكلم بهذا اللسان السليط. هيا.

- حسناً، ولكني أريد أن أحذرك لأنك ولا شك لم تلتقِ قط برجال. اسمع جيداً. إني أحملك مسؤولية ماسيحدث بالقرب من هنا، كما تقول. إذا لم أرضخ فلن يحدث شيء. سأكتفي بأن أبصق على وجهك أمام الجميع متى سنحت الفرصة لي. ولكن إذا رضخت ونجوت من ذلك، فسأقتلك أنت شخصياً سواء في سنة أو في عشرين سنة.

قال الملازم: اعتنوا به، إنه ماهر" [أ] .

---

[١] كلمة غير مقروءة .

[أ] (يلتقيه أعزل [ويُحدث] المبارزة).

*

يُقتل صديق ج. " كي تتحقق أوروبا ". ليصنعوا أوروبا، يلزم ضحية متطوعة.

*

لدى ج. أربع نساء في آن واحد ويعيش إذن حياة فارغة.

*

ك. س. : حين يلم بالنفس ألم عظيم جداً، يولد ذلك فيها شهوة المصيبة التي...

*

مراجعة تاريخ حركة "نضال"

*

تموت قطة في المستشفى بينما يروي مذياع جارها ترهات. - مرض القلب. موت جوال. " لو انتحرت، لكانت لي المبادرة على الأقل ".

*

" أنت وحدك ستعرفين أني قتلت نفسي. أنت تعرفين مبادئي. كنت أكره الانتحارات. لما تسببه للآخرين. إن كنا نحرص على الانتحار، يجب أن نموه ذلك. كرماً. لماذا أقوله لك؟ لأنك تحبين المصيبة. هذه هديتي لك. تفضلي، بشهية طيبة ! " .

*

نهاية. رفعت نحوه يديها ذواتيْ المفاصل العقدية وداعبت وجهه. " أنت ، إنك الأعظم" كان عظيم الحب والعبادة في عينيها القائمتين (في قوس الحاجب المهترئ قليلاً) حتى إن أحداً داخله - ذاك الذي يعرف- قد تمرد... في اللحظة التالية، ضمها بين ذراعيه. لأنها الأوضح رؤية، كانت تحبه، عليه أن يقبل ذلك، وليعترف بهذا الحب، عليه أن يحب ذاته قليلاً.

*

موضوع الكتاب موزيل: البحث عن خلاص الروح في العالم الحديث- دوستويفسكي: [معاشرة] وفراق في رواية "الممسوسون".

*

تعذيب. جلاد بدافع التعاضد. لم أستطع مطلقاً أن أقترب من أي إنسان- الآن نحن جنباً إلى جنب.

*

الوضع المسيحي: الاحساس الطاهر.

*

يجب أن يكون الكتاب ناقصاً. مثال: "وعلى السفينة التي كانت تعيده إلى فرنسا ..."

*

إنه غيور، ويبدو كأنه لايغار ويمثل دور رجل المجتمع. ثم لم يعد يغار البتة.

*

لقد اعترف، وهو في الأربعين، أنه يحتاج إلى من يريه الطريق ويؤنبه ويمدحه: أب. السلطة وليس القدرة.

*

يرى فلان ارهابياً يطلق على... يسمعه يركض وراءه في شارع مظلم، لايتحرك، يستدير فجأة، ويسقطه بشغربية، فيقع المسدس. يأخذ السلاح ويمنعه من الاعتداء، ثم يفكر بأنه لايستطيع أن يسلمه، فيأخذه إلى شارع ناءٍ، يجعله يركض أمامه ويطلق النار.

*

الممثلة الشابة التي في المخيم: العشب المنثور، أول حشيشة وسط خبث الحديد وشعور السعادة الحاد هذا. البائس والفرح. أحبت فيما بعد جان- لأنه نقي. أنا؟ ولكني [لاأستحق] أن تحبيني. بالضبط. فالذين [يبعثون] الحب، وإن كانوا ساقطين، هم ملوك العالم ومبرروه.

*

٢٨ ت٢ ١٨٨٥: ولادة ك. لوسيان في أولاد- فايت: إبـــن ك. باتيســـت (٤٣ ســنة) وكورمري ماري (٣٣ سنة). تزوج في ١٩٠٩ (١٣ ت٢) بالآنسة سينتيس كاترين المولودة في ٥ ت٢ ١٨٨٢). توفي في سان - بريوك في ١١ ت١ ١٩١٤.

*

قارن التواريخ، وهو في الخامسة والأربعين، فاكتشف أن أخاه قد ولد بعد شـــهرين مــن الزواج؟ ولكن الخال الذي وصف له توا حفلة الزواج تحدث عن ثوب طويل نحيل...

*

إنه طبيب ولدها بابنها الثاني في البيت الجديد حيث تكدس الأثاث.

*

رحلت في تموز ١٩١٤ مع الطفل وقد تورم من لسع بعوض نهر السيبوز. آب، التعبئة العامة. التحق الزوج مباشرة [بوحدته] في مدينة الجزائر. هرب ذات مساء وأتى ليقبل ولديه. لن يظهر بع ذلك حتى خبر موته.

*

كان أحد المستعمرين، وقد طرد، أتلف الكروم، وأخرج المياه الأجاج... " إن كنا ماصنعناه هنا جريمة، فيجب محيها..."

*

أماه (بخصوص ن.) يوم "نجحت" - "حين أعطيت إليك مكافأة ".

*

كريكلنسكي والحب التقشفي.

*

يتعجب كيف أن مرسيل وقد اتخذها عشيقة له لاتهتم ببؤس البلد. قالت له: "تعال". فتحت باباً: طفلها الذي في التاسعة من عمره- ولد بالآلة التي سحقت أعصاب الحركة لديه - مشلول، لايتكلم، وجهه من جهة اليسار أعلى من اليمين، يحتاج لمن يطعمه ويغسله إلخ.. أغلق الباب ثانية.

*

إنه يعرف أنه مصاب بالسرطان، ولكنه لايقول إنه يعرف ذلك. يعتقد الآخرون أنهم يمثلون عليه.

*

الجزء الأول: مدينة الجزائر، موندوفي. ويلتقي عربياً يحدثه عن أبيه. علاقاته مع العمال العرب.

*

ج. دواي: الهويس.

*

موت بيرال في الحرب.

*

صرخة ف. وهي تبكي حين عرفت علاقته مع ي. : "إني، أنا أيضاً، جميلة ". وصراخ ي:" آه! فليأتِ أحد ويذهب بي".

*

بعد المأساة، بعدها طويلاً، ف. وم. يلتقيان.

*

لم يهبط المسيح في الجزائر.

*

الرسالة الأولى التي يستلمها منها وشعوره أمام اسمه هو وقد كتب بيدها.

*

في الوضع الأمثل، إذا كتب الكتاب إلى الأم، من أوله إلى آخره - وسيعرف القارئ في النهاية فقط أنها لاتعرف القراءة -، أجل سيكون الأمر هكذا [أ] .

*

وأعز ماكان يتمناه في هذا العالم، هو أن تقرأ أمه كل ماكوّن حياته ولحمه، وهذا مستحيل. حبه، حبه الوحيد سيكون صامتاً إلى الأبد.

*

اقتلاع هذه الأسرة الفقيرة من مصير الفقراء الذي هو الزوال من التاريخ دون أن يتركوا آثاراً. الخرسان.

كانوا أعظم مني ولا يزالون.

*

الابتداء من ليلة الولادة. فصل أول، ثم فصل ثانٍ: بعد ٣٥ سنة، يترل رجلٌ من القطار في سان - بريوك.

*

غر، [١] الذي اعترفت به كأب، ولد هناك حيث مات أبي الحقيقي ودفن.

*

بيير مع ماري. في البدء لم يستطع أن يأخذها: لذا راح يحبها. وعلى العكس، فإن د. مع جيسيكا، السعادة الآنية. لذا استغرق وقتاً كي يحبها حقاً- حجبها جسمها.

*

[أ] ت. ي. مشار إليها.

[١] غرونيه .

عربة الموتى على الهضاب العليا [فيغاري].

*

حكاية الضابط الألماني والطفل: لاشيء يستحق الموت من أجله.

*

صفحات قاموس كيبه: رائحتها، اللوحات.

*

رائحة مصنع البراميل: رائحة البراية أكثر [   ] [٢] من النشارة.

*

جان، عدم رضائه الدائم.

*

يترك البيت وهو يافع لينام وحده.

*

اكتشاف الدين في إيطاليا: عن طريق الفن.

*

نهاية الفصل الأول: أثناء ذلك كانت أوروبا تضبط مدافعها. انفجرت بعد ستة أشهر. وصلت الأم إلى مدينة الجزائر، تمسك بيدها طفلاً في الرابعة من عمره، بينما حملت على ذراعها هذا الرضيع وقد تورم من لسع بعوض نهر سيبوز. دخلوا عند الجدة المقيمة في شقة بثلاث غرف في حي فقير. " أمي، أشكرك على استضافتنا ". كانت الجدة منتصبة القامة، بعينيها الفاتحتين والقاسيتين تنظر إليها: " يابنتي عليك أن تشتغلي ".

---

[٢] كلمة غير مقروءة .

أماه: شأنها شأن مويشكين الجاهل. إنها لاتعرف حياة المسيح، إلاّ التي على الصليب. ومن أقرب منها إليه؟

*

صباحاً، في باحة فندق في الريف، بانتظار م. شعور السعادة هذا لم يشعر به إلاّ مؤقتاً، وفي المحرم - والذي بمجرد أنه كان محرماً، يمنع هذه السعادة من الاستمرار- كان يسمم حياته في معظم الأوقات، ماعدا مرات نادرة حيث يفرض ذاته - كما يحدث الآن، في الوضع النقي، في نور الصباح الخفيف، وسط زهر الدهلة الذي لايزال يلمع بقطرات الندى...

*

قصة س. س.

إنها تأتي، تقتحم الباب، " إني حرة "، إلخ.، تمثل دور المتحررات. ثم تستلقي عارية على السرير، تقوم بكل شيء كي... في النهاية [ ] [1] رديئاً تعيساً.

تركت زوجها - يائساً، إلخ. كتب الزوج إلى الآخر: " أنت مسؤول. استمر في لقائها وإلاّ ستقتل نفسها ". كان فشلاً ذريعاً، فعلاً: أن يعشق الإنسان المطلق، وفي هذه الحالة، يسعى أن يجني المستحيل- إذن، قتلت نفسها. أتى الزوج. " أنت تعرف ماأتى بي. - نعم. - حسناً، لك الخيار، أقتلك أو تقتلني. - كلا، عليك يقع ثقل الاختيار. - أقتل". في الواقع، لم يكن الشخص الذي حشره، أو الضحية مسؤولين فعلاً. ولكن، كانت [بلا شك] مسؤولة عن شيء آخر لم تكفر عنه البتة. حماقة.

*

س.س. فيها روح الدمار والموت. إنها [مكرسة] لله.

*

عالم الطبيعة: في حالة حذر دائم تجاه الغذاء، والهواء، إلخ.

*

---

[1] كلمة غير مقروءة .

في ألمانيا المحتلة :

أسعدت مساءً سيدي الملازم.

أسعدت مساءً، أجاب ج. وهو يغلق الباب. أدهشته نبرة صوته. وأدرك أن كثيراً من الغـزاة ليس لهم هذه النبرة إلاّ لأنه يزعجهم أن يغزوا وأن يحتلوا.

*

يريد ج. ألا يكون. مايفعله يفقده اسمه، إلخ.

*

شخصيته روائية: نيكول لادميرال.

*

" كآبة " الأب " الأفريقية " .

*

نهاية. يصحب ابنه إلى سان - بريوك. في الساحة الصغيرة، وقف الواحد أمام الآخر. قـــال الابن: كيف تعيش؟ ماذا؟ نعم، من أنت، إلخ. (سعيداً). شعر حوله بشبح الموت يزداد كثافة.

*

ف.ف. نحن رجال هذا العصر ونساءه، من هذه المدينة، في هذا البلد ضم أحدنا الآخـــر، تباعدنا، عدنا إلى العناق، افترقنا أخيراً. ولكن طوال هذا الوقت، لم نكف عن أن نساعد بعضنـــا بعضاً على العيش، بهذا التواطؤ الرائع الخاص بالذين عليهم أن يناضلوا وأن يتألموا معاً. آه! هذا هو الحب - الحب للجميع.

*

أدرك وهو في الأربعين، وقد طلب طوال حياته في المطاعم قطعة اللحم مضهبة، أنه يحبها، في الواقع، مشوية جيداً وليست مضهبة مطلقاً.

*

التحرر من كل اهتمام بالفن، وبالشكل. العودة إلى الاتصال المباشر، بلا وسيط، إذن البراءة والنقاء. إن نسيان الفن هنا، يعني أن ينسى الفرد ذاته. التخلي عن الذات ليس بدافع الفضيلة. بل على العكس، قبول الإنسان جحيمه. فالذي يريد أن يكون أفضل مما هو عليه، يفضل ذاته، والذي يريد أن يستمتع بفضل ذاته. فذاك وحده يتخلى عما هو، عن الأنا، هو الذي يقبل بما يأتي مع نتائجه. فذاك هو حينئذٍ على اتصال مباشر.

استعادة عظمة اليونانيين أو العظماء الروسيين لهذه البراءة على الصعيد الثاني. ألا يخاف الإنسان. ألا يخشى شيئاً... ولكن من سيأتي لمعونتي!

*

بعد الظهر، على الطريق من " كراس " إلى " كان "، وقد شعر بحمية فائقة، اكتشف فجأة، وبعد سنوات من العلاقة، أنه يحب جيسيكا، أنه يجب في نهاية الأمر، فيصبح باقي الناس كظل بالقرب منها.

*

لم أكن معنياً فيما قلت ولا فيما كتبت. لم أكن أنا الذي تزوجت، ولست أنا الذي كنت أباً، الذي... إلخ...

*

دراسات جامعية كثيرة للتأثير على الأطفال اللقطاء في استعمار الجزائر. أجل، إننا كلنا هنا.

*

ترام الصباح، من بلكور إلى ساحة الحاكم. في المقدمة، سائق الحافلة ومقابضه.

*

سأروي حكاية وحش.

القصة التي سأرويها...

*

أمي والتاريخ: أخبروها عن القمر الصناعي الذي أطلقه السوفييت : " آه، لاأحب الأعالي!."

*

فصل تراجعي. رهائن قرية قبلية. جندي مخصي - تمشيط منطقة، إلخ، رويداً رويداً حتى أول طلقة نار للاستعمار. لماذا التوقف هنا؟ قابن قتل هابيل. المشكلة تقنية: فصل واحد أو على الشكل لحن معاكس؟.

*

راستاي: مستعمر ذو شارب كثيف وعارضين فضيين. أبوه: نجار في ضاحية سان- دوني؛ أمه غسالة من النوع الممتاز.

كان كل المستعمرين باريزيين أصلاً (ومن بينهم ثوار كثيرون من ثورة ١٨٤٨). كثير من العاطلين عن العمل في باريز. صوتت الجمعية التأسيسية على مبلغ ٥٠ مليون لإرسال "جالية":

لكل مستعمر:

مسكن

من ٢ إلى عشرة هكتارات

بذور، أراضٍ مزروعة، إلخ.

مخصصات غذائية.

لم يكن هناك سكة حديدية (لم يكن القطار يذهب أبعد من ليون) - من هنا كانت القنوات- على قوارب تجرها خيول بالحبال. النشيد الوطني الفرنسي، أنشودة الرحيل، بركة رجال الدين، علم سُلم ليوضع في موندوفي.

٦ قوارب، كل واحد منها من ١٠٠ إلى ١٥٠ متراً. أبحرت على بسط. كانت النساء لكي يغيرن ملابسهن الداخلية يقفن وراء شراشف أسرة تمسكها كل واحدة منهن للأخرى.

شهر من السفر تقريباً.

في مرسيليه، في عراء لازاريه كان (١٥٠٠ شخص)، طوال أسبوع. ثم أبحروا بعد ذلك على حراقة بعجلات: اللبرادور. الرحيل وسط ريح الميسترال الشمالية الباردة. طوال خمسة أيام وخمس ليال- الجميع مرضى.

بون- كان كل السكان على رصيف المرفأ لاستقبال المستعمرين.

الأغراض المكدسة في العنبر والتي تختفي.

من بون إلى موندوفي (على ظهر شاحنات الجيش، الرجال قد وقفوا ليتركوا للنساء وللأطفال مكاناً وهواء.) ليس هناك طريق معبدة. فسواء في السهل المستنقعي أو في الأدغال، تحت أنظار العرب العدائية، يرافقهم رهط كلاب قبلية تعوي- في ٨-١٢-٤٨[1] لم يكن لموندوفي وجود، كانت خياماً عسكرية. في الليل كانت النساء يبكين - ٨ أيام من المطر الجزائري على الخيام، طافت الأودية. كان الأولاد يقضون حاجاتهم تحت الخيام. بنى النجار ملاجئ خفيفة غطيت بشراشف لتحمي المفروشات. قُطعت أعواد القصب المجوفة على ضفاف نهر السيبوز كي يستطيع الأولاد أن يبولوا من الداخل إلى الخارج.

٤ أشهر تحت الخيام ثم أكواخ مؤقتة من ألواح خشبية؛ كان على كل مخيم مزدوج أن يأوي ست أسر.

في ربيع ٤٩: قيظ مبكر. احترقوا داخل الأكواخ. البرداء ثم الكوليرا. مات ٨ إلى ١٠ يومياً. ابنة النجار، أوغستين، ماتت، ثم زوجته، ثم أخو الزوجة. (دفنوهم داخل مقعد من فليس)

وصفة الأطباء: ارقصوا كي تحمى دماؤكم.

وراحوا يرقصون كل ليلة بين مأتمين على أنغام عازف كمان رديء.

لن توزع الامتيازات قبل عام ١٨٥١. مات الأب . بقيت روزين وأوجين وحدهما.

للذهاب إلى رافد السيبوز لغسل ملابسهم كانوا يحتاجون إلى جنود يرافقونهم.

أسوار مبنية + حفر من الجيش. بيوت صغيرة وحدائق، بنيت بأيديهم.

---

(١) أحيط بخط من المؤلف.

خمسة أسود أو ستة تزأر حول القرية (أسد ذو لبدة سوداء من نوميديا.) أبناء آوى. خنازير برية. ضبع. فهد.

الهجوم على القرى. سرقة الماشية. بين بون وموندوفي عربة تغوص في الوحل. ذهب الركاب ليبحثوا عن عون، ماعدا امرأة شابة حامل. حين رجعوا وجدوها وقد بُقر بطنها وقطع ثدياها.

الكنيسة الأولى، أربعة جدران من لبن، لايوجد كراسي، هناك بعض المقاعد.

المدرسة الأولى: كوخ من العصي والأغصان. ٣ راهبات.

الأراضي: قطع مبعثرة، يحرثون والبنادق على الأكتاف. يعودون إلى القرية مساءً.

يمر رتل من ٣٠٠٠ جندي فرنسي فينهب القرية ليلاً.

حزيران ٥١: عصيان. مئات الفرسان اللابسين البرنس يطوفون القرية. يقلدون المدافع على الأسوار الصغيرة ببواري المدافئ.

*

في الواقع، الباريزيون في الحقول؛ كثيرون كانوا يذهبون إلى الحقول وقد لبسوا قبعاتهم العالية كما لبست نساؤهم ثياباً حريرية.

*

ممنوع تدخين السيكارة. الغليون ذو الغطاء وحده كان مسموحاً به. (بسبب الحرائق).

*

المنازل المبنية في ٥٤.

*

في مقاطعة قسطنطينة مات ٢/٣ من المستعمرين دون أن يزرعوا أو يحصدوا تقريباً.

مقبرة قديمة للمستعمرين، النسيان[1] العظيم.

---

[1] "النسيان العظيم" وضعها المؤلف وسط دائرة.

*

أماه. الحقيقة أني، بالرغم من حبي كله؛ لم أستطع أن أعيش على مستوى هذا الصبر الأعمى، بلا جمل، بلا مشاريع. لم أستطع أن أعيش من حياتها الجاهلة. وقطعت العالم، بنيت، أبدعت، وألهبت الأشخاص. كانت أيامي حافلة إلى أقصى حد- ولكن لا شيء قد ملأ قلبي مثل ...

*

كان يعلم أنه سيرحل من جديد، وسيخطئ ثانية، وينسى كل ماعرف. ولكن، ماكان يعرفه بالضبط، هو أن حقيقة حياته تكمن هنا في هذه الغرفة ... سيهرب ولا شك من هذه الحقيقة.

من يستطيع أن يحيا مع حقيقته؟ ولكن يكفي أن يعرف أنها هناك، يكفي أن يعرفها وأن تغذي في ذاته [حمية] خفية وصامتة، أمام الموت.

*

الديانة المسيحية بالنسبة إلى أمي في نهاية حياتها. المرأة الفقيرة، التعيسة، الجاهلة [ ] [1] أن ترى القمر الاصطناعي الروسي؟ فليعنها الصليب!

*

في عام ٧٢، حين استقر أجدادي من جهة والدي، أتى ذلك بعد

- ثورة العوام

- العصيان المسلح العربي لعام ٧١ (أول من قتل في ميتيدجا كان معلماً).

- احتل الألزاسيون أراضي الثوار.

*

أبعاد العصر

*

---

[1] كلمة غير مقروءة.

جهل الأم في طباق مع [ ] [٢] التاريخ والعالم.

بيير عاقل: "إنه بعيد" أو "هناك".

دينها مرئي. إنما تعرف ما رأت دون أن تستطيع تفسيره. يسوع هو العذاب، يهوي، إلخ.

*

مناضلة.

*

كتابة [ ] [٣] لاسترجاع الحقيقة.

*

الجزء الأول

البدو الرحل

١) ولادة في التنقل. ٦ أشهر بعد الحرب(أ). الطفل. مدينة الجزائر، الأب زواوي وقد لبس قبعة قشية كان يتأهب للهجوم.

٢) بعد أربعين سنة. الابن أمام الأب في مقبرة سان - بريوك. عاد إلى الجزائر.

٣) الوصول إلى الجزائر من أجل "الأحداث". الجيش.

سفر إلى موندوفي. استعاد الطفولة وليس الأب. عرف أنه الرجل الأول [أ] .

الجزء الثاني

الرجل الأول

---

[٢] كلمة غير مقروءة.

[٣] كلمتان غير مقروءتين.

[أ] موندوفي عام ٤٨.

[أ] أهل ماهون في ١٨٥٠- الألزاسيون في ٧٢- ٧٣.

المراهقة: ضربة القبضة

رياضة وأخلاق

الرجل: (العمل السياسي (الجزائر)، المقاومة)

الجزء الثالث

الأم

قصص الحب

المملكة: رفيق الرياضة القديم، الصديق القديم، بيير، المعلم العجوز وقصة ارتباطيه الاثنين.

الأم [1]

في الجزء الأخير، يشرح جاك لأمه القضية العربية، وحضارة البيض المولودين في المستعمرات الأوروبية القديمة، ومصير الغرب.

"قالت: نعم، نعم." ثم اعتراف كامل ونهاية.

*

كان ثمة سر لدى هذا الرجل، وسر أراد أن يوضحه.

ولكن لم يكن في النهاية إلا سر الفقر الذي يجعل الناس بلا اسم وبلا ماض.

*

الشباب على الشواطئ. بعد الأيام المليئة بالصراخ، والشمس، والجهود العنيفة، والرغبة الصامتة أو المتفجرة. يهبط المساء على البحر. سماقة تصرخ عالياً في السماء. والقلق يعصر قلبه.

*

يتخذ في آخر الأمر أمبيدوكليوس كنموذج الفليسوف [ ] [2] الذي عاش وحيداً.

---

[1] كل هذا المقطع قد أحاطه المؤلف بخط.

[2] كلمة غير مقروءة.

*

أريد أن أكتب قصة زوجين مرتبطين بدماء واحدة وبكل الفوارق الممكنة. فهي تماثل أفضل ماحملت الأرض، أما هو فوحش كامل. هو رمى نفسه في كل حماقات تاريخنا؛ أما هي فلقد اجتازت التاريخ ذاته كما لو كان تاريخ كل الأزمنة. كانت صامتة معظم الأوقات وتكاد لا تستعمل إلا عدة كلمات لتعبر عن نفسها؛ أما هو فيتكلم بلا انقطاع ويعجز أن يجد من خلال آلاف الكلمات ما كانت تستطيع قوله بصمت واحد منها...

الأم والابن.

*

حرية اتخاذ أية نبرة.

*

إن جاك، الذي شعر حتى ذاك الوقت بأنه متعاضد مع كل الضحايا، اعترف الآن أنه متعاضد أيضاً مع الجلادين. حزنه. تعريف.

*

من الأفضل أن يعيش الإنسان كمتفرج على حياته الخاصة. كي يضيف إليها الحلم الذي يكمل الحياة. ولكن المرء يعيش، ويحلم الآخرون بحياتك.

*

كان ينظر إليها. لقد توقف كل شيء، والزمان يجري وهو يطقطق. كما في حفلات السينما هذه حيث، وقد اختفت الصورة إثر عطل، لا يسمع في ظلام الصالة إلا التتابع الآلي... أمام الشاشة الخيالية.

*

أطواق الياسمين التي يبيعها العرب. مسبحة الزهور المعطـــرة الصفـــراء والبيضـــاء [ ][1]، الأطواق تذبل بسرعة [ ][2] الأزهار تصفر [ ][3] وتبقى الرائحة طويلاً، في الغرفة الفقيرة.

*

أيام أيار في باريس حيث تعبق أكياس زهر الكستناء الأبيض في كل مكان في الهواء.

*

لقد أحب أمه وولده، كل ما لايتوقف عليه اختياره. وفي آخر الأمر، هو الذي احتج علـــى كل شيء، وشك في كل شيء، لم يحب مطلقاً إلا الضرورة. الأشخاص الذين فرضهم القدر عليه، والعالم كما بدا له، كل ما لم يستطع أن يتجنبه في حياته، من مرض، وموهبة، ومجـــد، أو فقـــر، وبمجمل القول نجمه. وبشأن ما تبقى، وكل ما كان عليه اختياره، فلقد أرغم ذاته على الحـــــب، وهذا ليس بسيان. لقد عرف ولا شك الاندهاش، والعشق، ولحظات الحنان كذلك. ولكن كـــل لحظة قد دفعته إلى لحظات أخرى، وكل شخص إلى أشخاص آخرين، لم يحب شيئاً ليتخلص ممـــا كان عليه أن يختار، اللهم، إلا ما فرض ذاته رويداً رويداً عليه من خلال الظروف، والذي اســـتمر بحكم الصدفة بقدر ما هو بحكم الإرادة وانتهى أن أصبح ضرورة: جيسيكا. فالحب الحقيقي ليـــس اختياراً ولا حرية. القلب، والقلب خاصة ليس حراً.

إنه المحتم والتعرف على المحتم. وهو، حقاً، لم يعشق مطلقاً بكل قلبه إلا ماهو محتـــم. الآن لم يبقَ له إلا أن يحب موته الخاص به.

*

غداً [أ] ، ستمائة مليون من العرق الأصفر، مليارات من الصفر، من السود، مـــن الســـمر، سيتدفقون على رأس أوروبا.. وفي أفضل الحالات [سيهدونها]. حينئذٍ يصبح كل ما علمـــوه لـــه ولأمثاله. وكل ما تعلمه هو أيضاً، ذاك اليوم، كل الرجال الذين من جنسه، وكل القيم التي عـــاش

---

[1] ست كلمات غير مقروءة.

[2] كلمتان غير مقروءتين.

[3] كلمتان غير مقروءتين.

[أ] يحلم بذلك في القيلولة.

من أجلها، ستموت من عدم جدواها. ماذا يبقى حينئذٍ ذا قيمة؟... صمت أمه. وضـــع أســـلحته أمامها.

*

م. في التاسعة عشر من عمرها. أما هو فلقد كان في الثلاثين، كان كل واحد يجهل الآخـر. أدرك أن الرجوع إلى الوراء مستحيل، ولا يمكن أن يمنع الشخص المحبوب من أنـــه قــد وجــد، وتصرف، وتحمل، لا يملك أحد شيئاً مما اختار. ذلك لأن الاختيار واجب مع أول صرخــة ولادة، ونحن نولد منفصلين- إلا عن الأم، فلا نملك إلا الضروري، ويجب العودة إلى ذلـــك و(مراجعــة الملاحظة السابقة) الخضوع لهذا. يا له من حنين ويا له من أسف!

يجب الإعراض عن كل شيء. كلا، يجب تعلم أن نحب النحس.

*

في النهاية، طلب الصفح من أمه- لماذا كنت ابناً صالحاً- ولكن من أجل كل البقية الـــتي لا يمكن أن تعرفها ولا أن تتخيلها [ ][1] والتي هي وحدها قادرة على الصفح (؟)

*

بما أني قلبت الترتيب، أظهرت جيسيكا مسنة قبل أن أصفها شابة.

*

تزوج بـــ م. لأنها لم تعرف رجلاً البتة ولقد جذبه ذلك. وبمجمل القول، تزوجها بســـبب عيوبه هو. سيتعلم فيما بعد أن يحب النساء اللواتي خدمن- أي- أن يحب عوز الحياة الفظيع.

*

فصل عن حرب ١٤. حاضنة عصرنا. في نظر الأم؟ التي لا تعرف فرنسا ولا أوروبـــا، ولا العالم. من يظن أن شظايا القنابل مستقلة، إلخ

*

---

[1] كلمة غير مقروءة.

فصول متتالية قد تعطي صوتاً للأم. تعليق الأحداث ذاتها بمفرداتها التي لا تتجاوز ٤٠٠ كلمة.

*

مجمل القول، إني سأتحدث عن الذين أحببتهم. وعن ذلك فقط.

فرح عميق.

*

أ) صدوق[أ]:

١) - ولكن لماذا تتزوج على هذه الطريقة، يا صدوق؟

- هل عليَّ أن أتزوج على الطريقة الفرنسية؟

- على الطريقة الفرنسية أو على غير ذلك! لماذا تخضع لعادات تعتقد أنها غبية ووحشية[ب]؟

- لأن شعبي متماثل مع هذه التقاليد، وليس له شيء آخر غيرها، فتسمر فيها، والانفصال عن هذه التقاليد يعني الانفصال عنه لذا سأدخل غداً إلى هذه الغرفة، وسأعري امرأة مجهولة، وسأغتصبها وسط قصف البنادق.

- حسناً. في انتظار ذلك، هيا نسبح.

٢) إذن؟

- يقولون إنه يجب دعم الجبهة المناوئة للفاشية في الوقت الحاضر، وإن على فرنسا وروسيا أن تدافعا عن ذاتهما معاً.

- ألا تستطيعان الدفاع عن أنفسهما بإحلال العدالة لديهما؟

- يقولون إن هذا سيحدث فيما بعد، ويجب الانتظار.

[أ] كل هذا بأسلوب [غير معاش] غنائي، وليس واقعياً على وجه الدقة.

[ب] الفرنسيون على حق، ولكن عقلهم يطغي علينا، لذا اختار الجنون العربي، جنون المظلومين.

– العدالة لن تنتظر هنا، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة.

– يقولون: إذا لم تنتظروا، فستخدمون الفاشية بشكل موضوعي.

– ولهذا ينفع السجن لرفاقك القدامى.

– يقولون إن هذا المؤسف، ولكن لا يمكن أن يفعلوا غير ذلك.

– يقولون، يقولون. وأنت تصمت.

– أصمت.

نظر إليه، بدأت الحرارة تصعد.

– إذن، فأنت تخونني؟

لم يقل: "تخوننا" وكان على حق لأن الخيانة تخص اللحم، الفرد وحده، إلخ...

– كلا، اترك اليوم الحزب...

٣) - تذكر عام ١٩٣٦.

– لست ارهابياً بالنسبة إلى الشيوعيين. إني ارهابي ضد الفرنسيين.

– إني فرنسي. وتلك فرنسية أيضاً.

– أعرف ذلك. هذا أسوأ لكما.

– إذن تخونني.

برقت عينا صدوق بريقاً محموماً.

*

لو اخترت في النهاية الترتيب الزمني، لأصبحت السيدة جاك أو الطبيب سليلي أوائل مستعمري موندوفي.

قال الطبيب: فلنكف عن الشكوى، تصوروا فقط أجدادنا الأوائل، هنا...إلخ.

*

٤) - ووالد جاك الذي قتل في معركة المارن. ماذا بقي من هذه الحياة المغمورة؟ لاشـــيء، ذكرى غير محسوسة- رماد خفيف لجناح فراشة احترقت في حريق غابة.

*

الوطنيتان الجزائريتان- الجزائر بين ٣٩ و ٥٤ (التمرد).

ما صارت عليه القيم الفرنسية في ضمير جزائري، ضمير الرجل الأول. تأريخ جيلين يفســر المأساة الحالية.

*

مخيم العطلة الصيفية في ميليانا، أبواق الثكنة في الصباح وفي المساء.

*

قصص حب: كان يود أن يكنّ كلهن نقيات من الماضي وعذارى من الرجال. والإنســـان الوحيد الذي صادفه وكان هكذا فعلاً، كرس حياته له ولكنه لم يستطع مطلقاً أن يكون هو نفسه مخلصاً له. أراد إذن أن تكون النساء ما لم يكن هو كذلك. وما كان هو يعيده إلى النساء اللـــواتي كن يشبهنه وكان يحبهن ويأخذهن حينئذٍ بغيظ وغضب.

*

مراهقة. طاقته الحياتية، إيمانه بالحياة. ولكنه يبصق دماً. هل الحياة إذن هـــذا، المستشـــفى، الموت، العزلة، هذه العبثية، من هنا التشتت. ومن أبعد أعماقه: كلا، كلا، الحياة شيء آخر.

*

إشراق على الطريق من كان إلى غراس...

كان يعرف أنه، وإن يَعُد إلى هذا الجفاف حيث عاش دائماً، فسوف يهب حياته وقلبـــــه، وامتنان كيانه كله الذي سمح له مرة، مرة واحدة ربما، ولكن مرة، أن يتوصل إلى...

*

بدء الجزء الأخير بهذه الصورة:

إن الحمار الأعمى الذي دار بصبر طوال سنوات حول الناعورة، متحملاً الضربات، والطبيعة القاسية، والشمس، والذباب، والذي لا يزال يتحمل، فمن هذا التقدم الدائري البطيء، والــــذي يبدو عقيماً، رتيباً، مؤلماً، تنبثق المياه بلا كلل...

*

١٩٠٥، حرب المغرب اشترك فيها ل. ك.[1]. ولكن، في الطرف الآخر لأوروبــــا، كـــان كاليايف *

حياة ل.ك. بأكملها لا إرادية، ما عدا إرادته أن يكون وأن يثبت وأن يستمر. الميتم. عــامل زراعي أرغم على الزواج من امرأته. حياته التي بنيت هكذا رغماً عنه - ثم قتلته الحرب

*

ذهب ليرى غرونيه : "إن الرجال مثلي، أعترف بذلك، عليهم أن يطيعوا. يلزمهم قـــاعدة تجبرهم، إلخ. الدين، الحب، إلخ... وهذا ما يستحيل علي. قررت إذن أن أقف عن طاعتك." ما تلا ذلك (قصة).

*

في النهاية، لايعرف من هو أبوه. ولكن هو ذاته من هو؟ الجزء الثاني.

*

السينما الصامتة، قراءة الحواشي السينمائية للجدة.

*

كلا، لست ابناً باراً: فالابن البار هو الذي يبقى. أما أنا فلقد طفت العالم، وخنتـــها مــع الأباطيل، والمجد، ومئة امرأة.

- ولكن، لم تحب إلا هي؟

- آه! لم أحب إلا هي؟

---

[1] إنه لوسيان كامو، الأب، على الأرجح.

*

حين شعر، بالقرب من قبر أبيه، بالزمن يتفكك- إن الترتيب الزمني الجديد هذا هو ترتيب الكتاب.

*

إنه رجل الإفراط: نساء، إلخ.

إذن [الزيادة] عوقبت فيه. عرف فيما بعد.

*

القلق في إفريقية حين يرخي الليل بسرعة سدوله على البحر أو الهضاب المرتفعة أو على الجبال المتعرجة. إنه القلق أمام القدسي، الرهبة أمام الأبدية. إنه القلق ذاته، في معبد ديلف، في المساء، وقد أأحدث الأثيبيتتبتببتتأحداً

أحدث الأثر عينه، جعل المعابد تنبثق. ولكن المعابد قد هدمت فوق أرض أفريقية، ولا يبقى إلا هذا الثقل الهائل على القلب. كم يموتون حينذاك صامتين، وقد أشاحوا عن كل شيء.

*

ما لم يحبوا فيه، الإنسان الجزائري.

*

علاقاته مع المال. وهذا عائد بجزء منه إلى الفقر (لم يكن يشتري شيئاً لنفسه)، الجزء الآخر عائد إلى كبريائه: لم يكن يساوم مطلقاً.

*

اعتراف إلى الأم للختام.

"أنت لا تفهمينني، ومع ذلك أنت الوحيدة التي تستطيع أن تسامحني. أناس كثيرون عرضوا أنفسهم للقيام بذلك. كثيرون صرخوا أيضاً بجميع الطرق أني مذنب، وأنا لست مذنباً حين يقولون ذلك لي. آخرون لهم الحق أن يقولوا ذلك لي وأعرف أنهم على صواب وأن عليّ أن أطلب عفوهم، ولكن، يطلب الإنسان العفو ممن يعرف أنهم يستطيعون العفو عنك. بجرد العفو، لا أن

يطلبوا منك أن تستحق العفو. أن تنتظر. [ولكن] يكف التحدث إليهم، الافضاء إليهم بكل شيء، وتلقي عفوهم. إن الذين واللواتي أستطيع أن أطلب العفو منهم، أعرف أن في زاوية من قلوبهم، بالرغم من إرادتهم الطيبة، لا يستطيعون ولا يعرفون أن يسامحوا. إنسان واحد كان يستطيع مسامحتي، ولكني لم أذنب مطلقاً تجاهه، وأعطيته قلبي كاملاً، إلا أنه كان في مقدوري الذهاب نحوه، قمت بذلك كثيراً صامتاً، ولكنه مات وأنا وحيد. أنت وحدك تستطيعين القيام بذلك، ولكن لا تفهميني ولا تستطيعين أن تقرئيني. ومع ذلك إني أتحدث إليك، أكتب لك، لك، لك وحدك، وحين ينتهي ذلك، سأطلب الصفح دون أي تفسير وستبتسمين لي....."

*

قتل جاك إثر الهرب من صالة التحرير السرية، مطارداً (حرك وجهه، ترنح وقد انحنى إلى الأمام قليلاً. شعر جاك حينئذٍ بغضب عارم يصعد من أعماقه: ضربة ثانية من الأسفل إلى الأعلى في [العنق]، فثار على الفور ثقب عظيم في قاعدة الرقبة، ثم، وقد جُن حنقاً واشمئزازاً، ضربه مرة أخرى [ ][1] مباشرة في العينين دون أن يرى أين يضرب...) ... ثم ذهب عند فاندا.

*

الفلاح البربري فقير وجاهل. المستعمر. الجندي. الرجل الأبيض بدون أراض. (كان يحبهم، هم، وليس هؤلاء الخلاسيين ذوي الأحذية الصفراء المقرنة، والمناديل، الذين أخذوا من الغرب أسوأ ما لديه.)

*

نهاية

أعيدوا الأرض، الأرض التي ليست لأحد. أعيدوا الأرض التي ليست للبيع ولا للشراء (أجل والمسيح لم يترل مطلقاً في الجزائر، فحتى الرهبان كان لهم ملكية وامتيازات).

ثم صرخ، وهو ينظر إلى أمه، ثم إلى الآخرين:

أعيدوا الأرض. أعطوا الأرض كلها للفقراء، إلى الذين لا يملكون شيئاً، والفقراء لدرجة أنهم لم يشتهوا مطلقاً الحصول على شيء ولا التملك، إلى الذين هم مثلها في هذا البلد، حشد البؤساء

---

[1] أربع كلمات غير مقروءة.

العظيم، معظمهم من العرب، والبعض فرنسيون والذين يعيشون أو يصمدون هنا عناداً وصبواً، في الشرف الوحيد الذي له قيمة في العالم، ألا هو شرف الفقراء، أعطوهم الأرض كما يعطى ماهو مقدس للمقدسين، فأصير حينئذٍ، فقيراً ثانية وفي النهاية، قد أُلقيت في أسوأ منفى في طرف العالم، فسأبتسم وأموت سعيداً، وأنا أعرف أنه قد اجتمع أخيراً تحت سماء مولدي الأرض التي أحببت كثيراً وكل الذين احترمت، والتي بجلت.

(حينئذٍ يصبح التستر الكبير مثمراً وسيغمرني أيضاً- سوف أعود إلى هذا البلد.)

*

تمرد.. مراجعة "غداً" في الجزائر ص، ٤٨، سيرفيه.

مفوضون سياسيون شبان من جبهة التحرير الوطنية الذين اتخذوا اسم طرزان اسماً حربياً.

أجل، إني آمر، أقتل، أعيش في الجبل، تحت الشمس والمطر، ماذا تعرض علي في أفضل الحالات: عملية في بيتون.

وأم صدوق، مراجعة ص.١١٥.

*

وقد جاهنا... في أقدم تاريخ للعالم فنحن أوائل الرجال- لسنا رجال الانحطاط كما ينادون بذلك في [ ][1] الصحف ولكننا رجال فجر مختلف لم يتضح بعد.

*

كنا أطفالاً بلا إله وبلا أب. والمعلمون الذين عهد بنا إليهم، كانوا يرعبوننا. كنا نعيش بدون شرعية- كبرياء.

*

ما يسمونه بالفلسفة الارتيابية للأجيال الجديدة - كذب.

منذ متى يطلق على الرجل الشريف الذي يرفض أن يصدق الكاذب اسم المتشكك؟

---

[1] كلمة غير مقروءة.

*

إن نبل مهنة الكاتب يكمن في مقاومة الظلم، إذن في قبول العزلة.

*

إن ما يساعدني على دعم قدر معاكس سيساعدني ربما على تلقي مصير أفضل بكثير- وما دعمني هو في البدء الفكرة العظيمة - الفكرة العظيمة جداً التي كونتها عن الفن.

ليس لأنه يعلو على كل شيء بالنسبة إليّ، ولكن لأنه لا ينفصل عن أحد.

*

تستثنى من ذلك [العصور القديمة]

ابتدأ الكتاب بالعبودية.

حصلوا على حريتهم- لا يمكن [ ][٢]

*

ك. هـ.: كل ما هو مبالغ فيه لا معنى له. ولكن السيد ك.هـ. كان تافهاً، لا شأن له، قبل أن يكون مبالغاً فيه. حرص أن يجمع.

*

---

[٢] أربع كلمات غير مقروءة.

رسالتان

١٩ت٢ ١٩٥٧

عزيزي السيد جرمان

تركت الضجة التي تحيط بي تخمد قليلاً كل هذه الأيام قبل أن آتي لأحدثك من كل قلبي. لقد مُنحت شرفاً عظيماً جداً لم أسعَ إليه ولا التمسته. ولكن حين علمت النبأ، فكرت بعد أمي، أولاً فيك. بدونك، بدون هذه اليد المحبة التي مددتها نحو الولد الصغير الفقير الذي كنته، بدون تعليمك، وقدوتك، لما كان أي شيء من ذلك قد حدث. لا أبني عالم من هذا النوع من المجد. ولكن تلك مناسبة على الأقل لأقول لك ما كنت، وما أنت دائماً بالنسبة إلي، ولأؤكد لك أن جهودك، وعملك وكل حبك المعطاء الذي تضعه في ذلك، هم دائماً أحياء في أحد تلاميذك الذي، بالرغم من تقدم العمر، لم يكف مطلقاً عن أن يكون تلميذك المعترف بجميلك. أقبلك من كل قواي.

البير كامو.

الجزائر، هذا ٣٠من نيسان ١٩٥٩

*

صغيري العزيز

استلمت الكتاب الذي بعنوان كامو، مرسلاً من يدك، والذي أراد مؤلفه السيد جـ. كل. بريزفيل أن يهديه إليّ.

لا أعرف أن أعبر لك عن الفرح الذي بعثته في نفسي ببادرتك الظريفة، ولا كيف أشكرك. فلو استطعت لضممت بقوة الصبي الكبير الذي صرت وستبقى دائماً بالنسبة إلي "صغيري كامو".

/٢١٠/

لم أقرأ بعد هذا الكتاب، اللهم إلا الصفحات الأولى. من هو كامو؟ أشعر بأن الذين يحاولون أن ينفذوا إلى شخصيتك لا ينجحون تماماً. لقد أظهرت دائماً حياءً فطرياً في الكشف عن طبيعتك، وعن مشاعرك. وإنك تنجح في ذلك خاصة لأنك بسيط، وصريح. وطيب فوق كل ذلك! هذه الانطباعات، لقد أعطيتني إياها في الصف. فالمربي الذي يريد أن يؤدي مهنته بأمانة لا يهمل أية فرصة ليعرف تلاميذه، أولاده، والفرص كثيرة في هذا المجال، رب جواب، بادرة، موقف كل ذلك يكشف بشكلٍ واسع. أعتقد إذن أني أعرف حق المعرفة الولد الصغير اللطيف الذي كنته، ويحوي الولد غالباً بذرة ما سيصيره رجلاً. كان سرورك لوجودك في الصف يتفجر من جميع الجهات. فوجهك يظهر التفاؤل، وحين راقبتك، لم يساورني أي شك عن وضع أسرتك الحقيقي. لمحت ذلك حين أتت أمك لتراني حول موضوع تسجيلك في قائمة المرشحين للمنح. حدث ذلك في الوقت الذي كنت ستفارقني. ولكن حتى ذاك الوقت، كنت تبدو لي في الوضع نفسه الذي كان فيه رفاقك. كان لديك دائماً ما يلزم. وكنت دائماً، شأنك شأن أخيك، حسن الهندام. لا أظن أن في مقدوري أن أمدح أمك بأجمل مما قلت.

وللعودة إلى كتاب السيد بريزفيل، فهو يحوي دراسة مصورة غنية. فتأثرت كثيراً حين عرفت، من صورته، أباك المتوفى الذي اعتبرته دائماً "رفيقي في السلاح". لقد تفضل السيد بريزفيل وذكرني: سأشكره على ذلك.

لقد رأيت قائمة بالمؤلفات التي خصصت لك أو تتحدث عنك. وإنه لمدعاة سرور عظيم لي أن ألاحظ أن شهرتك (وهذه هي الحقيقة بدقة) لم تغيرك. بقيت كامو: أحسنت.

تابعت باهتمام الأحداث الكثيرة للمسرحية التي أخرجتها بتصرف: الممسوسون. إن حبي العظيم لك يدفعني أن أتمنى لك أعظم النجاح: ذاك الذي تستحقه. يريد مالرو كذلك، أن يعطيك مسرحاً. أعرف أنك تعشق ذلك. ولكن... هل ستنجح وتلمع في كل هذه الفعاليات؟ أخشى عليك أن ترهق نفسك. واسمح لصديقك العجوز أن يلاحظ أن لك زوجة لطيفة وولدين وهم يحتاجون: إلى زوجها وإلى أبيهم. وفي هذا الخصوص، سأروي كل ما كان يردده لنا أحياناً مدير مدرسة إعداد المعلمين. لقد كان قاسياً جداً معنا، في منتهى القساوة، وهذا ما منعنا أن نرى، أن نشعر بأنه كان يحبنا فعلاً: "إن الطبيعة تمسك كتاباً ضخماً تسجل فيه بدقة كل الإفراطات التي ترتكبونها". وأعترف أن هذا الرأي الحكيم قد منعني مرات كثيرة في اللحظة التي كنت على وشك نسيانه إذن قل، حاول أن تحافظ على الصفحة بيضاء تلك التي خصصت لك في كتاب الطبيعة العظيم.

تُذكرني أندريه أننا رأيناك وسمعناك في إحدى البرامج الأدبية في التلفزيون، وهو برنامج يتعلق برواية: "الممسوسون". لقد تأثرت لرؤيتك تجيب عن الأسئلة المطروحة. ورغماً عني أبديت الملاحظة الخبيثة وهي أنك واثق، في النهاية، من أنني سأراك وسأسمعك. ولقد عوضني هذا قليلاً عن غيابك عن الجزائر. لم نرك منذ زمن طويل...

قبل أن أختم رسالتي، أريد أن أحدثك عن كل الصعوبات التي أعيش كمعلم علماني أمام المشاريع المهددة التي تحاك ضد مدرستنا. أعتقد، أني طوال حياتي المهنية، قد احترمت أقدس ما في الولد: حق البحث عن حقيقته. لقد أحببتكم كلكم وأظن أني قد قمت بأقصى ما في وسعي كي لا أظهر آرائي وأثقل وأؤثر في ذكائكم الفتي. حين مكان الموضوع يتعلق بالله (وهذا موجود في البرنامج الدراسي)، كنت أقول: بعضهم يؤمن بالله وبعضهم الآخر لايؤمن، وإن كل فرد يعمل ما يريد وذلك وفق مطلق حقوقه. وكذلك الأمر بخصوص فصل الديانات. كنت أكتفي بأن أشير إلى الديانات الموجودة، وليعتنقها من يروق له ذلك. ولكي أكون صادقاً، كنت أضيف أن هناك أناساً لا يمارسون أية ديانة. وأعرف حق المعرفة أن هذا لا يروق لمن يود أن يعمل من المعلمين دعاة دين ومروجيه. ولكي أكون أكثر دقة ، في مجال الدين الكاثوليكي. ففي مدرسة إعداد المعلمين في مدينة الجزائر (التي أقيمت حينذاك في حديقة كالان)، كان والدي، شأنه شأن رفاقه، ملزماً بالذهاب إلى القداس وبالمناولة كل يوم أحد. وذات يوم، وقد ضاق ذرعاً بهذا الإكراه، وضع القربان "المقدس" في كتاب القداس وأغلقه؟ أعلم مدير المدرسة بهذا الحدث و لم يتردد في فصل أبي من المدرسة. هذا ما يريده أنصار "المدرسة الحرة" (حرة... في التفكير مثل ما يفكرون). وبتشكيل مجلس النواب الحالي، أخشى أن تفلح مساعيهم. إن صحيفة (LE CANARD ENCHAINE) قد ذكرت أن في إحدى المحافظات مئة من صفوف المدرسة العلمانية تدرس تحت الصليب المعلق على الجدار. أرى في ذلك اعتداءً فاضحاً على ضمير الأطفال. ماذا سيحدث ربما، بعد زمن؟ هذه الأفكار تحزنني بشكل عميق.

صغيري العزيز، وصلت إلى نهاية صفحتي الرابعة: وهذا يعني أني قد بالغت في الأخذ من وقتك وأرجو أن تعذرني. هنا، الأمور على ما يرام، كريستيان، صهري، سيبدأ غداً شهره السابع والعشرين في خدمة العلم. اعلم أني، حتى حين لا أكتب، أفكر غالباً فيكم جميعاً.

أنا والسيدة جيرمان نقبلكم كلكم الأربعة بقوة.

المحب لكم

جيرمان لوي

مازلت أذكر الزيارة التي قمت بها، مع رفاقك مثلك وأنتم في ثيـــاب منـــاولتكم الأولى إلى صفنا. كنت بادي السعادة وفخوراً بالبزة التي تلبسها وبالحفلة التي تشرك فيها. وكنتُ، صادقـــاً، سعيداً بفرحكم، ولقد قدرت أنه طالما تتقدمون للمناولة، فهذا يعني أنكم راضون عن ذلك؟ إذن...

À toi qui ne pourras jamais lire ce livre

ALBERT CAMUS

[illegible]

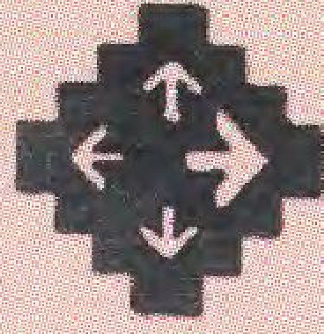
[illegible]

ALBERT CAMUS

59

[illegible]

المحتويات



دار شرقيات
للنشر والتوزيع

أحدث الإصدارات

الرجل الأول / ألبير كامو

ترجمة: د. كيتي سالم

قصيدة النثر / سوزان برنار

ترجمة: راوية صادق، مراجعة: رفعت سلام

هذا هو كل شيء: مائتا قصيدة من برشت

ترجمة: أ. د. عبد الغفار مكاوي

الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر:
الاستشراق المتأسلم في فرنسا / هنري لورنس

ترجمة: بشير السباعي

المثقفون / بول جونسون

ترجمة: طلعت الشايب

هوية مصر بين العرب والإسلام / جانكوفسكي وجارشوني

ترجمة: بدر الرفاعي

فن الرواية / ميلان كونديرا

ترجمة: أحمد عمر شاهين